

الإباضية في ليبيا

(الجزء الثاني)

تأليف: الشيخ علي يحي معمر



إليك أيها القاريء الكريم في الفصول الآتية تخطيطاً
جغرافياً، وصورة طبيعية للمناطق التي عاش فيها الإباضية ولا
يزالون يعيشون.

زُواغَة

"زواغة" مدينة عظيمة تقع غربي طرابلس بنحو خمسين
كيلو متراً على شاطئ البحر، ويطلق عليها اليوم اسم "صبرانه"
وإلى هذه المدينة كان يرجع أكثر السكان البداة في السهل
المنبسط بين البحر والجبل. هذا السهل الغني بالثروتين الزراعية
والحيوانية، وفي هذه المدينة نشأ عدد غير قليل من العلماء
الأعلام، الذين كانوا يحافظون على رسالة الإسلام، ويبلغون دعوة
الله، إلى الأحياء الضاربة في ذلك السهل الفسيح فيواصلونهم
بالدروس والتفقيه في دين الله لا يكلون ولا يفترون من أمثال أبي
الخطاب وسيل بن سنتين بن يزيد، وأبي بكر بن يحيى، وأبي موسى
عيسى ابن السمح، ويزيد بن خلف، وخلف بن يزيد، وعشرات
غيرهم، ولو لم ينشأ في هذه المدينة العظيمة من كبار العلماء
إلا أبو الخير لكفى ...

عاش أبو الخير توزير الزواغ 55 في القرن الرابع، وقد كانت
طرابلس تحت حكم الدولة العبيدية، أما جبل نفوسة فقد
كان مستقلاً بحكمه، وكانت مدينة زواغة كغيرها من المدن

التابعة لتلك الدولة الظالمة تترج تحت اعباء الضرائب الباهظة، والاستغلال المشين، وكان أبو الخير الزواغي رجل علم ودين لا يأبه للدنيا ولا يملك منها فجاءه يوماً عامل 56 الحكومة الظالمة يطالبه بدفع مائة دينار للدولة، وفكر الشيخ العالم طويلاً ثم استمهل العامل وصعد إلى جبل نفوسة، وقصد إلى صديقه المخلص أبا علي الفساطوي فأخبره الخبر، فقام أبو علي وأحضر إليه مائة دينار ثم قال له : ادفع عنك الأذى.

ورجع أبو الخير إلى زواغة ودفع المال إلى العامل الظالم، ولكن العامل بداله، فلم يلبث أن انتشرت رسالته تبحث عنه في كل جهة، وأرشدتهم الناس إلى مصلى أبي الخير على شاطئ البحر حيث يفرغ من دنيا الناس ليناجي ربه، فما وصلوه حتى ذهبوا به إلى العامل، فقال العامل للشيخ خذ مالك. وأخذ الشيخ المال وصعد إلى الجبل ليرجع المال إلى صاحبه أبي علي، فقال أبو علي : ما كنت لأخذ مالا أعطيته لله، واحترأ أبو الخير مرة أخرى من هذا المال، فهذا العامل الظالم يفر منه بعد أن أخذه، وهذا صاحبه أبو علي يمتنع من استرداده، أفيحفظ به هو ؟ ...

وأشرقت في قلبه المؤمن فكرة.. إن هذا المال لله، ويجب أن يفرق على عباد الله، ووقف أبو الخير يفرق المال على الفقراء والمساكين، لا يمسك منه لنفسه ديناراً ولا درهماً.

عرض أبو علي على أبي الخير أن يقاسمه - ماله وكان صاحب ثروة عظيمة - فقال أبو الخير مستنكراً : ما أريد بمالك يا أبا علي ؟.

إن أبا الخير لو أراد أن يملك مالا لسلك السبيل التي يسلكها طلاب المال، ولكنه لا يقيم للدنيا وزناً ولا يجعل لها حساباً.

كان أبو الخير لا يفتأ بين زواغة وجبل نفوسة، ماراً بهذه الأحياء الضاربة في السهل الفسيح، يفصل مشاكلها، ويعلمها أحكام دينها ويأمر بمعروف هي في حاجة إليه، وينهاها عن منكر برز بسبب الجهل بدين الله..

وكان لا يطيل الإقامة لا في الجبل ولا في زواغة، فقد كان يضع حديدة في رف عندما يدخل زواغة، ويتفقدتها من حين إلى حين، فإذا وجد أن صدأ بدأ يعلوها قال : هذا الحديد قد صدأ أفلا تصدأ القلوب ؟ !.. ثم يسافر ليزيل الصدأ عن قلبه وقلوب إخوانه المؤمنين : إما في الطريق وإما في الجبل، فيفيد علماً وخلقاً وديناً ويستفيد ...

شكا إليه بعض الناس حاله فقال : أشكو إليك من قلب قاس، وعقل لا يفهم، ولسان لا يسأل، وبدو لا يخشع، ويد لا تعطى، ورجل لا تزور...

فقال أبو الخير : دواء الست بالست : محبة المسلمين، وقراءة القرآن، والتضرع إلى الله عند السحر، وقيام الليل، والصيام، وزيارة المسلمين⁵⁷.

هذه هي " قائمة الأدوية " التي اعطاها هذا الطبيب النفساني لهذا المريض. وهذا الجواب يكفي للدلالة على منزلة أبي الخير في العلم والدين وفهم أسرار النفس البشرية.

هذا رجل يشكو من قساوة قلبه فما هو العلاج ؟.. قال أبو

الخير إن القساوة لا تعالج إلا بعاطفة مضادة لها، وهي الحب، وهل تبقى قساوة في قلب ممتلئ بالحب؟. وأي حب يا ترى هذا الذي تعالج به قساوة القلوب؟

إنه الحب الذي يتسع للناس: الحب الذي يغمر المسلمين، الحب الذي يركز على الخير والفضيلة.

وشكا إليه عقلا لا يفهم، فماذا قال أبو الخير؟.. لقد قال: إنه لا يفتح مغاليق الفهم ويبعث كوامن الذكاء مثل قراءة القرآن الكريم، والتدبر في معانيه، ورياضة الذهن في مجاله الفساح، والعقل الذي تصقله الآيات من كتاب الله سوف يشع لهم ما في الكون من الآيات والعبر، وما يجري في الحياة من أعمال البشر: أما اللسان الذي لا يسأل، اللسان الخجول أو الكسول الذي ينعقد في فم صاحبه، فلا ينطلق لبحث المشاكل والحديث عما تكنه القلوب، هذا اللسان وصف له أبو الخير علاجاً ناجحاً، لا للسان فقط، لكنه لجميع أمراض القلوب قال أبو الخير: إن علاج هذا اللسان هو التضرع إلى الله عند السحر، في هذا الوقت الساجي الساكن الذي يهمد فيه الطبيعة، وتموت الحركة، يتجه لسان المؤمن إلى عالم الخفايا، والأسرار فيبثه من حاله، ويشكو إليه سوء الحالة، ويطلبه المغفرة عما ارتكب، فإذا تعود الكشف عن حاله لربه سهل عليه حينئذ أن ينطلق متحدثاً مع الناس لا سيما عندما يجد أقوالاً أو أعمالاً لا يعرف حكمها عند الله، ولا يعرف ماذا يقول عنها لربه وهو يناجيه في السحر منفرداً.

إنه لا يلبث أن يقبل إلى أولئك الذين رزقهم الله علماً وفهماً

يستوضحهم المشاكل ويستفهمهم عن التوازن.

وسأله الرجل عن علاج بدن لا يغمره الخشوع؟ فوصف له الدواء قال أبو الخير إن علاج البدن الذي لا يخشع إنما هو قيام الليل، ينهض المؤمن في وسط الليل وقد همدت الحياة في الكون وكف كل شيء عن الحركة، فيتوضأ المؤمن ويحسن وضوءه، ثم يستقبل القبلة ويقف للصلاة، إنه لا شيء أبعد على خشوع البدن من هذا الموقف الذي يقف فيه الإنسان بين يدي ربه منفرداً لا يستشعر حركة، ولا يقف إلى جانبه حي فيصلي ما شاء الله، وقبله معلق بالسما، ونظرة لا تمتد إلى ذراع، فتسري في هذا البدن الواقف في الظلمة قشعريرة الخوف، وقشعريرة الاطمئنان، الخوف من عذاب الله، والاطمئنان إلى رحمة الله، فإذا تعود الإنسان على هذا الإحساس المنفرد الذي يجرده من علائق الحياة بقيام الليل أصبح بدنه مركزاً لهذه القشعريرة كلما وقف بين يدي ربه للعبادة، وقد علم تبارك وتعالى أثر قيام الليل

على نفوس وأبدان بني الإنسان، فأوجبه على خير خلقه عليهم السلام، وقد فرضه الله سبحانه وتعالى أول ما فرضه على رسوله عليه السلام، وعلى أصحابه الكرام واستمر ذلك القرض سنة كاملة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون حراساً على القيام بهذا الفرض، حتى تورمت أقدامهم، وأصبح خشوع أبدانهم طبيعية ثابتة فيهم عند ما يقفون أمام جلال الله، ثم خفف الله عنهم، وجعله تطوعاً.

وإنه لما يناسب هذا المقام ما قاله الأخ المسلم سيد قطب

في كتابه القيم "في ظلال القرآن" الجزء التاسع والعشرون
صفحة 179 :

"إن مغالبة هتاف النوم، وجاذبية الفراش بعد كد النهار، أشد وطناً وأجهد للبدن، ولكنها إعلان لسيطرة الروح، استجابة لدعوة الله، وإيثاراً للإنس به، ومن ثم فإنها أقوم قبلاً، لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وأنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخلة وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه، وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤ، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه."

لقد شرح الأستاذ قطب هذه النقطة التي أشار إليها أبو الخير بما فيه الكفاية، فإن قيام الليل أجهد للبدن، ولكنه إعلان لسيطرة الروح عليه، وهل الخشوع إلا سيطرة الروح على الجوارح وتحكمها في زمام الإرادة ؟ ...

أما اليد البخيلة التي تستمسك بالمال وتشح ولا تسخو به على من يستحق المال، فإن علاجها نوع آخر من العبادة، قال أبو الخير: إن علاج اليد التي لا تسخو بالمال، ولا تنفق في الخير إنما هو الصيام ...

الصيام: هذه الرياضة الروحية التي ترتفع بالإنسان عن أدران المادة، وتخلق به في سماء الملائكة، جاعلة منه مخلوقاً لا ينظر إلى المال إلا على أساس أنه نعمة من النعم الكثيرة التي أودعها

الخالق الحكيم على الأرض، لتستفيد منها الإنسانية جمعاء، ولا يستأثر بها شخص عن شخص، ولا ينفرد بها إنسان دون إنسان، لأنها من حق الجميع، فإذا وضعت الأقدار بعض هذه النعمة بين يدي إنسان، فليس من حقه أن يحبسها عن عباد الله إلا بمقدار ما عنده من حاجة إليها، الحاجة الحقيقية الحاضرة، لا الحاجة البعيدة التي يقدرها ضعاف الإيمان لما استتر في الغيب، وعندما يسمو الإنسان بتفكيره عن أوضار الحياة، ويرتفع عن قيود المادة، يصبح عنده امتلاك المال والشح به رذيلة من الرذائل التي تتطهر منها النفوس الزكية.

وإذا كان الإنسان إنما خلق ليقطع مرحلة الحياة بما خف من زاد، لا يثقل على الظهر أو الفكر، ثم جرب من نفسه فوجد أنه يستطيع أن يقطع نصف هذه المرحلة دون زاد أو مال عندما يلتجئ إلى الصوم، هذه الطهارة الروحية التي تستغني عن النفقات نصف اليوم، إذا جرب من نفسه ذلك، ووجد عنده الإرادة، والقوة فلماذا يستمسك بالمال ويحرص عليه ؟ ...

ثم إن هذا المال الذي يجده الإنسان بين يديه يتكاثر وينمو، حيناً بالكسب، وحيناً بدون كسب، إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة يحتاجها الغير، فلماذا لا يدع له هذا المال أو بعضه، إنه ليس من حقه أيها المؤمن أن تبيت شعبان وبيت جارك جوعان، فإذا كان هذا المال لا يمكن أن يكفي اثنين فلماذا لا تصوم أنت وتدع جارك يأكل مما عندك من مال الله ؟ إنك لو فعلت فتقربت إلى ربك بالصوم وتقربت إليه بالصدقة وأنت في نفس الوقت لا تستكثر التضحية ولا تستكثر ما قدمت من عمل كنت جديراً

بأن تعالج شح نفسك. وتعود يديك على الانطلاق والبذل ...

هذه بعض المعاني التي يوحى بها الصيام إلى أولئك الذين يلتجئون إليه، ليرتفعوا بأنفسهم في مدارج الكمال والرقى ...

ويخمدوا في أنفسهم همسة الغريزة : غريزة الجمع التي تحرس عليها اليد، أو غريزة الشهوة التي تنطلق إليها الأعضاء ...

بقى لنا السؤال السادس من الأسئلة التي وجهت إلى أبي الخير، فأجاب عنها إجابة المؤمن العليم بأسرار الإسلام، وأسرار النفوس البشرية ...

قال أبو الخير: أما الرجل التي لا تزور: فعلاجها من نفس الدواء، ويتوقف على قوة الإرادة وصحة العزيمة والارتفاع عن الصغائر. فقد يكون امتناع الرجل من الزيارة، زيارة الأهل أو زيارة الأقارب، أو زيارة المرضى، أو زيارة المسلمين، أو زيارة من لهم عليها حقوق. قد يكون ذلك الامتناع ناشئاً عن حادثة نافهة، أو كلمة نابية، أو استئفال ظل، وعلاج هذا المرض إنما هو في حمل هذه الرجل على زيارة المسلمين، وعندما تزور أخاً في الله، فتجد منه ترحيباً وإيناساً ومحبة، يشجعها ذلك، وتعاود الزيارة، فإذا عادت ووجدت كما وجدت من قبل إقبالا وتفهما ومشاركة، كان ذلك باعثاً لها على مواصلة الزيارة على أن الزيارة التي تحسب في هذا المقام إنما هي الزيارة في الله لله.

فإذا دخلتها مقاصد المصلحة العاجلة فإنها حينئذ لا تفيد في علاج النفوس.

إن الأمراض النفسية لا تعالج إلا بالمعاني الروحية، فإذا

دخلتها فكرة المادة فسدت وأفسدت ...

هذا تعليق بسيط على أجوبة أبي الخير للرجل الذي سألته عن بعض أمراضه النفسية، وشكا إليه ما يحسه من آلام الروح ... لم أزدها إيضاحاً، ولكنني حاولت أن أجعلها في قالب تفصيلي يتمشى مع أسلوب هذا الكتاب.

وإنني لأعتذر للقارئ الكريم إذا أضعت شيئاً من وقته ولم أساعده في فهم ما يرمى إليه الفيلسوف العظيم ... وأعتذر إلى أبي الخير إذا حملت كلامه على غير ما يريد بسبب قصوري وضعفي ...

ثم أستغفر الله من الخطأ والزلل ومجانبة الصواب ...

زورة والتيجاني

أرى أنه يجب على أن أعود مرة ثانية إلى الحديث عن زورة والتيجاني، ذلك أن كلام الرحالة التيجاني في حاجة إلى مناقشة من بعض الجهات.

وأنا حين أناقش التيجاني أعلم تمام العلم أن هذا الرحالة قام برحلته وهو في ركاب أمير يقوم بخدمته، ويسعى إلى مرضاته، ويتلقى منه الإحسان والعطايا، وأعلم كذلك أن لهذا الرحالة ظروفه وبيئته وجيله، وأعلم مدى تأثير هؤلاء الكتاب الذين يقومون مقام الصحافة الموجهة اليوم، فيبسطون الدعاية، ويسبقون الرغبة، ويلتمسون وسائل الرضا.

إنني أعلم كل ذلك، ولست أطلب من الرحالة الكبير أن يكتب

في ذلك العصر بروح هذا العصر، ولكنني مع ذلك أستطيع أن أجد كثيراً من الحقائق التي تنكشف عند التأمل النزيه، والنظرة المنصفة.. ولقد نقلت كلام التيجاني في الفصل السابق عن أهل "زواره" الكرام، والنقاش الذي دار بين الرحالة الكبير وبعض علماء هذه المدينة التي سماها "زواره الصغرى"، وقد أطل التيجاني في مناقشة مسألة واحدة ما دار فيه الجدل بينه وبين عبدالرحيم الزواري: هذه المسألة هي المسح على الخفين.. وذكر في بحثه الطويل: أن عدم جواز المسح على الخفين قول مروي عن الإمام علي بن أبي طالب، وأنه مذهب الشيعة، وأنه قول الإمام مالك في رواية عنه، ثم عقب على هذا البحث بأنه لم يصح عن الإمام علي. وقال في الرواية الواردة عن الإمام مالك: أنه يجب أن لا تحمل على ظاهرها، وذكر أنه من صحح الرواية عن مالك تأولها، ويختم هذا البحث الطويل بقوله:

"وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول، وقد نصوا على تفسيق من قال به، وقول هذا الزواري: أن هذا من أخبار الأحاد، ليس كذلك، فقد نص الأئمة على أن هذا الحكم ما ارتفع عن خبر رتبة الأحاد، ووصل إلى رتبة التواتر."

إنني أدع التعليق على مسألة المسح على الخفين، فإنها مسألة فقهية فرعية يختلف فيها علماء المذهب الواحد فضلاً عن علماء الأمة جمعاء، ودعوى التيجاني الإجماع فيها قد نقضه هو نفسه بنقله لخلاف الشيعة والإمام علي والإمام مالك والخوارج، ومن ذهب مذهبهم.

فلندع هذه المسألة لعلماء الفقه والحديث، فقد اشبعوها بحثاً ومناقشة، على أنه ما يستلقت النظر في هذه القضية: أن التيجاني هو الذي التمس الاجتماع بالشيخ الزواري، وعمل من أجل ذلك، وكان مفهوماً بطبيعة الحال أنه لم يبحث عنه ويعمل للاجتماع به إلا ليجري معه في حلبة الجدل، وجاء عبدالرحيم الزواري وكان شيخاً وقوراً، حسن السمعة، مجتهداً في العبادة، مشاركاً في طرف من العلم - بشهادة التيجاني نفسه - وبدأ النضال بين الرجلين، فجرى أولاً في أصول المعتقد، ثم انتقل إلى بعض الفروع، حتى جرهما الحديث إلى المسح على الخفين.

لماذا يا ترى حرص الرحالة العظيم أن ينقل محضر النقاش الذي دار بينه وبين عبدالرحيم الزواري في مسألة فرعية هي المسح على الخفين - وقد جرى فيها الحديث عرضاً - وسكت عن أصل النقاش وموضوع الجدل في أصول المعتقد التي قال: إن الحديث جرى أول ما جرى فيها؟ لماذا لم يذكر لنا التيجاني حججه وحجج خصمه، وما سأل وأجاب به كل واحد منهما، كما فعل في مسألة المسح على الخفين؟..

فهل وصل الرجلان إلى اتفاق؟ أم أن هذا الزواري الوقور الحسنة السمعة المجتهد في العبادة، استطاع أن يلزم صاحبه الحجة، وأن يفوز عليه في ميدان المناظرة، فسكت العلامة الرحالة عن نقل هذا الحقائق المؤلمة، واكتفى عن كل ذلك بكلمات من السباب وجهها إلى زواره، وعلماء زواره، ثم عوض عن هذه السكينة بالانطلاقة الطويلة في قضية المسح على الخفين: هذه المسألة التي وجد فيها مجال القول أوسع، وميدان الحديث والتعليق أفسح.

بعد هذا أريد أن أرجع من جديد إلى ما نقلته لك في الفصل السابق من حديث التيجاني، وأرجو من القاريء الكريم أن يقرأه معي بإمعان وتدبر، ثم يشطب من ذلك الحديث كلمات السبب التي لا تعنى شيئاً من حقائق الحياة والتاريخ. ويقرأ بعد ذلك ما كتبه التيجاني عن أهل زوارة، فإنه سوف يجد الحق الصراح في ذلك، وها أنا أنقل ذلك الكلام، واضعاً خطأ تحت كلمة السباب التي يجب حذفها ...

قال التيجاني: "وأهلها قوم من الخوارج الغلاة في مذهبهم، موصوفون بتصميم في دينهم، وأمانة فيما يودع عندهم، مكفرون بمواقعة الذنوب، ورأيت منهم أقواماً قد نزلت من العبادة أبدانهم، واصفرت ألوانهم، بانين في ذلك على هذا الأصل الفاسد، من تكفير العصاة على ما تقدم بيانه عند ذكر جربة. وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف بعبد الرحيم الزواري، وجميعهم يعظمه ويقدمه، رئاسة وسنا وصلاً، بزعمهم، اجتمعت به فرأيت شيخاً مجتهداً في العبادة، وحسن السميت، إلا أنه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله، وخسر حاله وماله، وتوسمت في أحد من وصل معه الطلب فتكلمت معه، فوجدته قد شارك في طرف من العلم."

إنك لو نزعيت الكلمات التي تحتها خط والتي هي سباب لا مبرر له، لوجدت التيجاني يقول في سلاسة ووضوح هكذا: "وأهلها قوم ... موصوفون بتصميم في دينهم، وأمانة فيما يودع عندهم ... ورأيت منهم أقواماً قد نزلت من العبادة أبدانهم، واصفرت ألوانهم، وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف

بعد الرحيم الزواري، وجميعهم يعظمه ويقدمه رئاسة وسنا وصلاً ... اجتمعت به فرأيت شيخاً مجتهداً في العبادة، حسن السميت، فتكلمت معه، فوجدته شارك في طرف من العلم."

إن شهادة التيجاني على زوارة وأهل زوارة هي هذه، فهذا ما رأى وهذا ما سمع، وهذا ما يحق لنا أن نأخذ منه، أما رأيه في القوم ومعتقدهم فذلك موضوع ليس من اليسير أن يتحدث عنه التيجاني في ذلك العصر المشحون بالتعصب ...

على أننا نعود إلى مناقشة آراء التيجاني - حتى في هذه المواضيع - لنرى مقدار ما عند التيجاني من الحق ...

ويصف التيجاني أهل زوارة وجربة وغمراسن وكثيراً من الجنوب التونسي بأنهم خوارج يستحلون أموال المسلمين ودماءهم، وأنهم يحكمون بتكفير العصاة، وأنا حين أناقش التيجاني في هذا الصدد احترز بعض الاحتراز، فقد يكون التيجاني اجتمع ببعض الخوارج أو ببعض الناس الذين ينتسبون إلى الإباضية ولكنهم ليسوا كذلك، في رحلته الطويلة بالجنوب التونسي، ومع ذلك فيمن المعروف في التاريخ أن الجنوب التونسي، وجربة، والقطر الليبي، كان عامراً بالإباضية، وتاريخ الإباضية في هذه البلاد معروف، قواعد مذهبهم معروفة أيضاً، ولن يجد التيجاني أو غير التيجاني دليلاً واحداً عليها هذه الدعوى، فالإباضية أبعد الناس عن الخوارج، وأشدهم عليهم، ولعل من أعظم ما يؤخذ به الإباضية فرق الخوارج المختلفة: هو استحلالهم لأموال المسلمين ودمائهم، فزعمه أن الإباضية خوارج غلاة في مذهبهم

زعم باطل من أساسه، ولقد يكون التيجاني نفسه أقرب إلى الخوارج من الإباضية، فهو حين يجلس على موائد مخدمه : تلك الموائد التي حفلت بأنواع الطعام المغصوب، إنما يعمل عمل الخوارج، وإن لم يقل قولهم، وجريمة العمل أعظم من جريمة القول ... وإلا فبأي حق استحل تلك الأموال التي تغتصب من قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن ما جاء به حق من عند الله ...

أما النقطة الثانية التي شنع بها التيجاني على أهل زوارة فهي تكفير العصاة، ولو أتيح للتيجاني أن يزداد دراسة، ويطلع على كتب الشريعة الإسلامية وأبحاث علمائها الأعلام، بل لو رجع إلى دراسة كتاب الله وتفهمه تفهما عميقاً لما حمل نفسه هذا العناء، ولوجد أن كلمة الكفر تطلق على العصية، وأن الإباضية حين يطلقونها في هذا الباب فهم يعنون ما عناه المشرع الحكيم في كثير من آيات الكتاب، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يحكمون مطلقاً بالشرك عليهن أمن بالله، ولو لم يتبع إيمانه عملاً صالحاً ... وأن هناك فرقاً كبيراً وبونا شاسعاً بينهم وبين الخوارج.

ومن هذا يتضح أن عنف التيجاني وحنقه الشديد على الإباضية، وحكمه على الشيخ عبدالرحيم بخسران الحال والمال، إنما ينتج عن عدم فهم وقصور علم.

وقد مضى التاريخ بالرجلين وطواهما فيما طوى، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستخلص من حديث التيجاني عن زوارة حقائق

هامية تتلخص فيما يلي :

1 - كان أهل زوارة في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن قوماً مستمسكين بدينهم حراساً عليه محافظين، على الأمانة، جادين في طاعة الله.

2 - كانت الحركة العلمية عندهم في ذلك الحين لا بأس بها، إذ يوجد عندهم مثقفون يشاركون في فنون الثقافة المعروفة في ذلك الحين.

3 - يكونون مجتمعاً ضيقاً، ولكنه متماسك متآزر، بأنف من الذلة ويكره الاستعباد.

4 - تعتمد حياتهم الاقتصادية على الزراعة.

5 - كان لهم علماء عظام، يصمدون للجدال، ويقارعون الرجال، ويدافعون عما يعتقدونه حقاً ببلاغة وبرهان.

هذه حقائق ثابتة نستخلصها من التيجاني الرحالة الذي خدم ابن اللحياني بكل ما لديه من علم وحذق وذكاء، ومهد له إلى الملك، ثم عصفت به عواصف الحياة، وقلبت له ظهر الحن، فطوحت بآل التيجاني جميعاً في مطاوي النسيان، قرابة قرن من الزمان 58.

الشيخ سعيد بن صالح بن زيد

في زوارة الجميلة الضاحكة، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، نشأ العلامة سعيد بن صالح بن زيد، وإنه ليسرني أن أدع المجال في هذا المقام للشيخ عريبي العزابي، يحدثنا عن هذا

الرجل العظيم، الذي استطاع أن يربط صلة الأخوة والمحبة بين المتنافرين، ويوصل حلقات التزاور بين المتباعدين.

قال الشيخ عربي: "إن حياة الولي سيدي سعيد بن صالح - نفعنا الله ببركاته - حسب التحقيق، والأخذ من المصادر الموثوق بها، كانت في أوائل القرن العاشر الهجري، أي منذ أربعمئة وثلاث وخمسين عاماً تقريباً ...

أما سيرته في حياته كان رحمه الله رجلاً صالحاً وعظيماً عند عموم الإباضية، مسموع الكلمة، يرجع إليه العامة في جميع الأمور، وعندما تقع المنازعات، تفصل أمامه حسب إشارته ورأيه، كما هو معهود فيه من القيام بالمصالح، والسيرة الحسنة، حتى اشتهر بالصلاح وحب الخير، في عموم أقطار الإباضية كجربه والجبل الغربي، وزوارة، وبني ميزاب، وغير ذلك، فاتخذته العامة قدوة يقتدون به في أمور دينهم، ومرجعاً لهم لمصالح دنياهم، وتوجهت إليه الأنظار، ومالت إليه القلوب من جميع الأطراف.

وكان رحمه الله قدوة في حياته، أفنى وقته في إصلاح ذات البين، وجعل مرامه السعي في رضا الله، وراحة عباده.

كانت زوارة في حياته مقسمة إلى بلدين عظيمين: أحدهما "زَوَاوَة وَلُؤْلُ" وهي هذه العامرة، والثانية: هي "زَوَاوَة وَزْدَر" وهي في وجهة سيدي علي، وطالما تصدر بين البلدين مناقشات تؤدي إلى القتال بينهما، ابتدأت هذه المناوشات قبل حياة الشيخ، ثم امتدت إلى زمانه، فلما رأى الحالة سيئة بين إخوانه بادر رحمه الله بهمته العالية إلى إخماد نار الفتنة بين إخوانه، وإصلاح

ذات البين بينهم، فجمعهم مراراً، وصار يعظهم، ويرشدهم إلى الاتفاق والاتحاد، حتى وفقه الله بسبب إرشاداته ونصائحه، فأمر رحمه الله جميع بلدان زوارة من هنا ومن سيدي علي بالاجتماع كل عام، في الموضع الذي فيه ضريحه الآن. بنية الزيارة، وعند إجتماعهم هناك يقوم بإلقاء النصائح، بنهاهم، ويحبب الاتحاد والتضامن، إلى أن صارت زوارة سيدي علي، وزوارة ولؤل على قلب واحد بسبب هذه الزيارة التي يجتمع فيها العموم، وقيامه بينهم بالإرشادات النافعة في دينهم ودينهم، وحيث أن هذه الزيارة أسست على خير البلاد، وراحة العباد، استحسنتها الأوائل، وتركها لعقبهم خلفاً عن سلف، سيما وأن الشيخ سيدي سعيد من عظماء الإباضية المشهورين بالصلاح، فجميع الإباضية أينما كانوا يعتقدون فيه الصلاح، فعملوا له مزارات في جل البلدان، أعظمها مزار ضريحه الذي يحق لنا احترامه بجميع ما يليق بمقامه العظيم، وله مزار في جربه، ومزار في وادي ميزاب، وفي جهة الجبل الغربي، وكان هذا المزار موسماً في كل عام لدى جميع الإباضية، إحياء لذلك الشعار الموسمي لما فيه من المواعظ الوثيقة، واتحاد الكلمة، حتى كان البلدان بلداً واحداً، على قلب واحد. لا شئ يحط من كرامتها أمام الأمم المخالفة لهما.

وصارا أخوين على سرر متقابلين، يدور بينهما كأس سلسبيل ... وصارا عصبة واحدة ضد من يضر لهما شراً ...

وإذن يجب على زوارة ولؤل اليوم الزيارة كل عام إلى هذا الولي الصالح، إحياء لذكراه، وما كان عليه من إصلاح ذات البين .

هذا ما كتبه الشيخ عريبي العزابي عن المصلح العظيم، وليس لي ما أضيفه غير ملاحظة عابرة، تتعلق بجانب من جوانب الموضوع.

لقد بذل المصلح الكبير العلامة سعيد بن صالح بن زيد جهوداً جبارة، حتى استطاع أن يجمع بين المتخاصمين اللذين أوصلهما سوء التفاهم إلى القتال، وتمكن من جمع القلوب على الصفاء والمحبة، اتخذ هذا الاجتماع مؤمراً سنوياً يعالج فيه الناس مشاكلهم الدينية والدنيوية، وهذا عمل عظيم، وإذا استمر على هذا المنوال يجتمع فيه أبناء الأمة لهذا الغرض العظيم، يستعرضون مشاكلهم، ويحاسبون أنفسهم، ويقومون أعمالهم، ويرسمون خطوط السير للسنة المقبلة، إذا استمر هذا الاجتماع على هذا المنوال، فإنه يكون عملاً عظيماً، يحقق أحسن النتائج ... ولكنه إذا انحرف عن هذا المغزى الكبير، وأصبح مظهراً للفخر والظهور والإسراف والتبرك بقبور الأولياء الميتين، يتسابق إليه الناس بالتبجح وإظهار الغنى ووسائل الترف، من خيول مذهبة السروج، وسيارات فخمة من أحدث ما أنتجت مصانع أوروبا وأمريكا، إذا انحرف هذا الاجتماع إلى المنحى البعيد عن روح الإسلام وسُموّه، فإنه يكون حينئذ مرضاً اجتماعياً من الأمراض الخطيرة، التي يجب معالجتها، والقضاء عليها.

إنني لم أحضر هذه الزيارات التي يقوم بها أهل زوارة الكرام إلى سيدي سعيد، ولكنني أعرف عدداً من المزارات ترتكب فيها أعمال يبرأ منها الإسلام، بل إنها تكون موسماً من مواسم الرذيلة، تستباح فيها الحرمات، ويختلط فيها الحابل بالنابل.

ويقصدها الفجار من الأماكن البعيدة، ظاهراً بقصد التبرك وباطناً لما فيها من متعة العين والنفس وما يتبعهما.

وإن الصالحين من المسلمين الأحياء منهم والأموات، يبرعون من أولئك الذين يتخذون قبورهم أو مصلياتهم وسيلة لارتكاب المنكر، والبعد عن دين الله.

إن ذكرى الصالحين والأولياء، هي أن نقوم بالأعمال التي يدعو إليها الإسلام، ونقف عند حدوده، فإذا استطعنا أن نسير في هذا المنهاج فقد أحيينا ذكراهم، ومجدنا بطولتهم، إن الإسلام دين تذبذب فيه الفردية وتقديس الرجال، ولقد جعلت لنا الأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما من شخص مهما بلغ من التقوى والصلاح يحول بينها وبين الاتجاه إلى هذا الرجل العظيم والأقتداء به، وعلى هديه نلتقي، ومن صفاته نستقي، ومن نوره نقتبس. لقد ترك محمد صلى الله عليه وسلم كتاب الله وسنة نبيه بين أيدينا، ترك كتاب الله غصاً طرياً كما نزل من السماء، وعلينا أن نعرض عليه مشاكلنا وعقائدنا وأعمالنا، وبذلك نرضي الله ونرضي رسول الله، ونرضي الصالحين من المؤمنين ...

وادي لالوت

هو وادٍ عميق، كثير الأشجار، غزير المياه عند حملاته، يسقى أرضاً فسيحة خصبة، يتجه في مبدأ أمره إلى الجنوب، ثم ينعطف في نصف دائرة إلى الشمال فيحتضن المدينة العظيمة لالوت، ويكاد يحيط بها إحاطة كاملة.

ولالوت مدينة لها تاريخ مجيد في الإسلام، ربضت على قمة منبسطة من جبل شامخ، يقطعها عن بقية القسم والجبال واد عميق الغور من ثلاث جهات، ويجعل منها شبه جزيرة صخرية، حصينة المداخل، آمنة من العدوان المفاجئ. وفي هذا الوادي الذي يلتف بها كما تلتف يد الولهان بخصر الحبيب تنبع كثير من العيون والآبار، وتنتشر على جميع جهات البلد، وهي تتفاوت في غزارة الماء، ولكنها تتقارب في عذوبته، وفي منابع هذه العيون والآبار تزدهر بساتين وأجنة جميلة، يتخذها الناس مصائف، ويقضي فيها الشباب أوقاتاً من البهجة والأنس والمتعة، ومن هذه المنتزهات الغزيرة المياه :

تُونَيْن، وإِبْجَرَبْن، والحِسيان، وسَرَّ كَوَكَم، وأدْبِير، وتَغْلِس وتعتبر العين الأخيرة أعذب العيون ماء، وكانت تسقى غابة ظليلة من شجر الزيتون والنخيل والكرم والكمثرى وغيره، وتوجد غير هذه عشرات من العيون التي تنبع من بين الصخر تتفاوت قوة وضعفاً.

في هذه المدينة التي وصفها أبو العباس الشماخي بأنها مدينة الأشياخ والعلم، نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام، ومن العالمات الفاضلات، كان من بينهم العلامة أحمد بن بصير، ومحمد بن بصير، وأبو زكرياء يحيى بن جرناز أحد أعضاء الجمعية التي الفت الديوان، ويكفي أنها أخرجت أبا الربيع سلمان بن هارون وأبا سهل.

أما من نوابغ النساء فقد نشأت بها المؤمنة الصالحة العالمة

" زينب اللالوتية " التي كانت تعيش في " لالوت " متمسكة بأشد ما يمكن من حجاب المرأة، ولم يمنعها ذلك أن تعيش في عصرها، وتعرف مجتمعتها، وتتبع الحركات التي تقع في كامل الجيل، فتشترك بالرأي والكلمة الحسنة، والدعوة إلى الخير، بلغها أن أمة الواحد زوجة أبى عامر التصراري أعلنت شيئاً مما خُرس النساء على إخفائه، فبعثت إليها تقول في توبيخ عنيف ونهي عن المنكر شديد :

لو أمكن لنا أن نستريح قبورنا بين القبور لفعلنا، واستجابت لها أمة الواحد وتابت من عملها ذلك وبعثت إليها تعتذر، وهكذا، فقد كانت المرأة في ذلك العصر حية شاعرة متصلة بالأحداث التي تقع في وطنها، ولم تكن قابضة في زاوية من البيت يقيد الجهل لسانها، وبملاً الفراغ عليها يومها، وتشحن الخرافات عقلها، وتشغل الصغائر ذهنها كما هو الحال عند المرأة اليوم.

أما أم سحنون : فقد كانت مزاراً للمشايخ، ومعقداً لإجتماعاتهم ومشاوراتهم، وكثيراً ما اجتمعوا عندها في مهمات الأمور، فجاءوا من يفرن، وجادو، وشروس، ليجتمعوا عند أم سحنون في لالوت⁵⁹.

وعلى ضفة الوادي من المشرق مقابل لالوت تقع مدينة تَغْيَت التي غير اليوم اسمها، فأطلق : عليها أولاد محمود، وقد أصبحت قرية صغيرة جداً، وبجانب هذه المدينة إلى الشمال مصلى ينسب إلى عاصم السدراتي، كثيراً ما يجتمع فيه الناس لصلاة الاستسقاء.

وإلى الشمال من لالوت بمسافة تقارب عشرين كيلو متراً في السهل الواقع غربي هذا الوادي الذي ينحدر وهو يتلوى كالأفعى تقع مدينة "تاغرويت" أو على الأصح أطلال مدينة "تاغرويت" تلك المدينة التي تنتشر حولها عيون وآبار كثيرة، غزيرة المياه، وتنتشر حولها مزارع خضر، وبساتين غناء، قال فيها أبو العباس في كتابه السير صفحة 296: "وتاغرويت مدينة قريبة من لالوت، ختها، وجلا أهلها زناته، واجتمع فيها في أيام أبي ويسجمن سبعون شيخاً، وأكثر أهلها ذهبوا إلى وارجلان". وإلى الجنوب من هذه المدينة الكبيرة بمسافة قصيرة تقع القرية الجميلة "تُكُوت" على رأس ربوة مستديرة مرتفعة خيط بها من جميع الجهات غابات من النخيل تكون واحة صغيرة خضراء جميلة، وتسقي هذه الواحة من مياه الآبار، كانت من قبل تستخرج بطريقة الدلاء المعروفة، أما اليوم فقد زود أكثر بمحركات، وتعتمد لالوت كثيراً على هذه القرية فيما يتعلق بالخضار والغلل.

وإلى الشرق من "تيغيت" تقع مجموعة من القرى يطلق عليها اليوم "الحوامد" وأشهر هذه القرى في التاريخ الإسلامي "تالات" التي وقعت فيها عدة وقائع حربية، وهاجر أكثر أهلها إلى جربة ومنهم العلامة "الثلاثي" العالم المتواضع الذي جُد آثار قلمه في كل كتاب تطالعه من كتب نفوسة، يعلق عليها باستحياء ولكن بإفادة وإمتاع.

وغير بعيد منها تقع "تيركت" وفيها مسجد تهدم جانب منه، ولا يزال الجانب الثاني يروى للتاريخ العلم والخلق والدين ...

وتمتد مزارع لالوت الخضراء، وبساتين التين والزيتون على مسافة أربعين ميلاً نحو الغرب حتى تتصل بوازن، يقول العلامة الكبير الباشا الباروني في تعاليقه على "سلم العامة والمبتدئين" ص 33:

"ويليها - أي لالوت - غرباً على مسافة مرحلة: قرية "وازن" وهي الحد الفاصل بين ولاية طرابلس وإيالة تونس، وأهلها إباضية كلهم، كلالوت، وفيهما رجال محترمون لهم غيرة وحمية على الدين".

وادي كَرَائين

هو وادٍ عميق شديد العمق، ينحدر من الجنوب إلى الشمال متخذاً أخدوداً بعيد الغور في الجبل، وهو ضيق في أعلاه متسع في منحدره، ويصب المياه التي يحملها في مواسم الأمطار في الحقول الفسيحة التي تنتج أجود الحبوب، من قمح وشعير، ويتفرع من أعلاه إلى فرعين عند العين الثارة التي تسقى منها "كباو" الحالية بالوسائل الحديثة لتصريف المياه.

يتجه أحد الفرعين إلى الشرق الشمالي حيث ينتهي في الشلال الجميل الذي تنبع منه عين "رُقُو" العذبة بالماء، الغنية بالغلل.

أما الفرع الثاني: فيتجه إلى الجنوب الغربي، وعلى الضفة الشرقية لهذا الوادي تقع مدينة "كباو" الجميلة دائرة حول ربوة مرتفعة يلمع فوق قممها قصر الخزين كأنه عمامة عملاق عظيم، وقد أنبتت هذه المدينة من عظماء الرجال عدداً يتشرف

به التاريخ، ويكفي أن تربتها الزكية، ومناظرها الساحرة، وقممها الضاحكة للشمس تعاونت على تكوين أعظم رجل أُنْجِبت له ليبيا في العصر الحاضر: سليمان باشا الباروني : الذي كان من أفذاذ العالم، لم يعرف التاريخ المعاصر من حارب الباطل بإخلاص كإخلاصه، الباطل في جميع صوره وأشكاله، سواء ما ورد منه مع الجيوش الاستعمارية الغازية، أو في أبواق الدعوة المشتتة، أو ما دس في الفكر والعلم المنحرف وقد وقف في الميدان كما يقف المارد الجبار يدافع عن الحمى ضربات المدافع، ويرد جيوش العدو المتعاقبة، ويقود الجنود البواسل من أبناء الوطن.

ولقد استطاع أن ينير الطريق بفكره النير لعصبة الأمم، فأعجبت بأرائه، ولكن غلبتها شهوة الإستعمار فلم تنفذها. وجاءت اليوم هيئة الأمم المتحدة فوصلت إلى ما دعا إليه الباروني من قبل، وأصبحت قضية تصفية الاستعمار من أمجد الأعمال التي قامت بها هيئة الأمم، ولو استمع العالم من قبل إلى الباروني لانتهى اليوم من هذه المشاكل، واجتهدت جهوده إلى معالجة مشاكل أخرى لا تزال في حاجة إلى علاج.

لقد شغل الباروني فكر العالم مدة من الزمن، كانت الدول تنظر إليه بإعجاب فاغرة الأفواه، وقد مرت فترة من التاريخ لا تخرج منه جريدة في أنحاء العالم ليس فيها خبر عن الباروني أو من الباروني، وليست هذه الشهرة قاصرة على الميدان السياسي أو الميدان العسكري، وإنما تشمل جميع ميادين الإصلاح.

ومن العين الثَّراة التي تروى " كباو " الحالية، يتجه هذا الوادي

العميق أو الخندق الكبير نحو الشرق حتى يصل إلى المدينة العظيمة " إِبْنَانِ " تلك المدينة التي كانت مركز الحكم لأبي هارون موسى الملوثائي وابنه أبي الربيع، ومأوى لعدد غير قليل من أعلام الفكر والقلم والحكم، ومن حولها تقع عدد من القرى التي تشبه أن تكون ضواحي لهذه المدينة العظيمة.

وتقابل " إِبْنَانِ " من الجنوب " جُلَيْمَتْ " التي أُجِبت فيمن أُجِبت أبا هارون الجلالى صاحب المدرسة العظيمة التي أُجِبت أعلاماً يتشرف بهم التاريخ، وعند ما يصل وادي كراين إلى مدينة بنابن يتجه فرع منه إلى الجنوب الغربي حتى ينتهي إلى شلال " فَئْدَه " وعلى الضفة الغربية لهذا الفرع تتناثر بقايا أطلال مدينة " مَّاسِيْن " يرتفع من بينها مسجد العجوز الصالحة، جدة المشايخ أم الزين اللالوتية.

أما الوادي الأصلي فينعطف مستديراً حول " بنابن " إلى الشمال، يشق تلك الجبال الشواهد في اعتداد وقوة، وعلى ضفته الغربية تقع " نَصْرَار " بلد أبي عامر التصرياري.

وينحدر الوادي في اتساع واطمئنان حتى يصل إلى المنفسج الذي أقيمت عليه مدينة " أبي رغووة " محتلة جانبي الوادي وما فيه من أجنة وبساتين وعيون دافقة، وعلى قمة الجبل الشرقية لهذه المدينة يجثم قصر " العَنَقَر " في يقظة وانتباه، يقابله على القمة الغربية من الوادي قصر " عَطْرُثُو " كأنها حارسان أمينان.

وهذا الوادي من أعلاه إلى أسفله من أكثر البلاد شجراً وثمراً

وماء. وقد كانت الشمس في يوم من الأيام أذل من أن تجوس خلاله. لما التف فيه من الأشجار.

ويوازي هذا الوادي من الغرب وادٍ آخر لا يقل عنه خصوبة وعمراناً. وهو وادي "الشيخ"، وعلى الضفة الغربية لهذا الوادي تقع "القلعة" و"تلات" المدينة التي عاش فيها أسلاف العلامة الكبير أبي سليمان داود بن إبراهيم: هذا الرجل الذي لا يكاد يخلو كتاب من كتب الأصحاب من تعاليقه وحواشيه.

وإلى غربي هذه المدينة تنتثر أطلال "تنومات"، تلك الأطلال التي يختبئ بها مسجد أبي محمد. كأنما يخشى على الفن المعماري الذي نحت به، والنقوش الجميلة الرائعة على جدرانه وسواريه، والآيات الكرمة، والأحاديث الشريفة، والحكم البليغة التي حلى بها محرابه وسقفه أن تعبت بها أيدي المتوحشين من الناس الذين لا يحترمون قداسة المساجد، ولا يراعون حرمة التاريخ، ولا يعجبون بجمال الفن.

وعلى الضفة الشرقية لهذا الوادي تقع قرية "بودير" ومثل "تقابلهما من الغرب أطلال "كمزين" يربط بينها مسجد أبي سليمان الكمزيني، ويضيق الوادي متصاعداً بين الجبلين في التواءات كثيرة حتى ينتهي في موضع المدينة التاريخية الكبيرة "وريوري" وقد حرف اسمها اليوم قليلاً فأصبح يطلق عليها "وَرُورِي" وإلى الجنوب من أطلال هذه المدينة تمتد بساتين أشجار الفاكهة المختلفة، وحقول الحبوب، وتنتشر بينها الصهاريج والمنازل المنحوتة في الجبل. وتعتبر هذه الناحية من أجمل مصائف "كباو".

وإلى الشرق من كباو تقع مدينة فرسطاء العظيمة التي أصبحت اليوم قرية صغيرة، وقد كانت في عهد ازدهارها لا تقل عظمة عن "تملوشايت" و"شروس"، وتتصل بهذه المدينة مجموعة من القرى تكون لها ضواحي جميلة، وفي هذه المدينة نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام، والمصلحين الأفذاذ منهم أبو عبد الله محمد بكر الفيلسوف الاجتماعي، والمصلح الكبير، الذي لا يعرف السأم أو التعب، ولا يكف عن الكفاح في سبيل الله في لحظة من اللحظات، ولعله أول من فكر في وضع الدساتير المستمدة من الإسلام، فقد وضع دستوره المعروف بنظام العزابة، واستمد أحكامه من الإسلام، وأعتقد أنه لا يزال هذا الدستور من أقيم الدساتير التي جعلت للمحافظة على المجتمعات، ومراعاة مصلحة الشعوب، ولم يكن الرجل نظرياً يكتفي بوضع الفكرة، ولكنه حرص أن ينفذ هذا الدستور، وتطبيق أحكامه.

سافر من جبل نفوسة إلى جربة، ومن جربة إلى وادي أريغ، ومن وادي أريغ إلى وادي ميزاب، وكان أهله معتزلة، فلم يكثر بينهم إلا قليلاً حتى صاروا إباضية، ومن غيرهم على الحق واتباعه: وطبق هذا النظام في تلك الواحات الخصبة الجميلة، ولا يزال يطبق إلى اليوم: فلقد حفظ هذا الدستور أبناء تلك الواحة الكرام من جميع الشرور التي دخلت البلاد الإسلامية، ولقد تمكن الإستعمار في أكثر بلاد الإسلام أن ينشر الفساد الخلقي مقدمة لإضعاف الروح الدينية.

أما في وادي ميزاب، فقد وقفت فرنسا عاجزة عن التسرب إلى المجتمع، ورجع شياطينها - شياطين الأانس وشياطين الجن

- الذين جندتهم فرنسا مدحورين أمام ذلك الدستور.

وليسست القوة قوة الدستور في نفسه، ولكنها قوة الإسلام عندما التجأ إليه بنوه، وعرفوا كيف يطبقون أحكامه، ويتقون به حيل الشياطين، وخدع المفسدين.

وإلى الغرب من "كباو" تقع مدينة "تلات" وقريباً منها أطلال "نوموات" التي لم يبق فيها إلا مسجد عليه كتابات بالخط الكوفي، ونقوش زخرفة إسلامية تشبه النقوش التي توجد في مسجد أبي معروف في شروس، والتي توجد في مسجد أبي هارون في "بناين".

وقد قال بطل الإسلام وأسد الكفاح سليمان الباروني عندما تحدث عن أبي هارون بن موسى في بعض تعليقاته على "سلم العامة والمبتدئين":

"وبالنظر إلى ما بقي من صدر المسجد، كالحراب وما يليه، المبنى بالحجارة المنحوتة نحتاً عجباً، المنقوش فيها بعض حكم بالخط الكوفي، يتضح جلياً بأن لنفوسة في ذلك الوقت علماً نافعاً في الصنعة".

وإلى شمال "كباو" وبحوالى خمسة عشر ميلاً وحت السفح، تقع "قنطرة" التي أصبحت اليوم تسمى "تيجي" ولقد كانت قنطرة عبارة عن جنة من جنات الله في الأرض، غزيرة المياه، تنبع منها العيون الثرارة سائلة فوق الأرض، تسقي الحدائق الغناء التي كانت تنبسط على مسافات طويلة، وتنتج أجود الغلال والفواكه والتمور، وقد كانت تستقل بحاكمها عن الجبل

أيام الدولة الرستمية وبعد وقعة "مانو" هجم عليها الوحش البشري إبراهيم بن الأغلب، وقتل أغلب أهلها، وخرب حدائقها، وأحرق أشجارها. لقد ارتكب من الجرائم ما لم يرتكبه قائد حربي فيما أعرف، وهذا إحدى جرائمه التي يسجلها عليه التاريخ، ومنذ ذلك اليوم بدأت تنحصر وتنكمش، حتى بقيت اليوم عبارة عن عيون من الماء، تسقي عدداً ضئيلاً من النخيل، جعلت فيه الدولة أجهزة للحكم، ومدرسة، وفتح فيها منذ قريب سوق، ويرجع إليها سكان السهل الفسيح الذي ينبسط شمالاً في ارتباطهم بالمصالح الحكومية.

وفي هذه المدينة العظيمة قامت مدرسة العلامة سعيد بن أبي يونس الطمزي، وفيها تخرج عدد من العلماء الأعلام، أمثال أبي مسعود الجناوني، ولما ضرب الأغالب بنيانها، وأحرقوا أجنحتها، وقتلوا أغلب علمائها، انتقلت حركتها العلمية إلى "تمصص" جنوب "طمزين".

وادي شروس

هو واد شديد العمق، يتكون أعلاه من عدد من الفروع تلتقي حول مدينة "شروس" في منطقة متسعة، ثم ينحدر إلى الشمال محصوراً بين الجبال، فيكون ما يشبه عنق قارورة كبيرة تنبع في أنحاء منه عيون وآبار، وقد كان دائم الخضرة، كثير الشجر، تزدان بحور الجبال الدائرة به وأعجازها بشجر البطوم الدائم الخضرة، أما قممها فتكفلها غابات الزيتون الكثيفة، وفي مجاري الوادي وروافده يرتفع النخيل متمائلاً كأنه يصارع الزمن

ليخرج من هذا الحبس العميق. غير أن يد الإنسان العابثة لعبت أسوأ الأدوار في طبيعة هذا الوادي الجميلة، فاقتلعت أكثر تلك الأشجار التي تصبغ الجبال بالخضرة، وقدمتها طعاماً للنيران، لتستخلص منه فحماً يتخذه بعض الناس مكسباً وجارة، وهي جريمة لعمرى أقدم عليها ناس لا يفكرون في زمن غلبت الفوضى في الفترة المظلمة من تاريخ الوطن. هذه الفترة التي مرت بين الحكم الإيطالي الباغي، وحصول البلاد على الإستقلال وقيام دولة من بنيتها تحكمها وترعاها تلك الفترة التي أطلق عليها التاريخ فترة الاحتلال البريطاني، فحكمت ليبيا حكماً عسكرياً تجرد عن النظام والقانون ...

كان لهذا الوادي تاريخ حافل في الكفاح، وكم من مرة جاءت الجيوش الباغية تحاول أن تدخل إلى العرين من عنق هذه الزجاجة فضافت عليها، وبقيت محصورة حتى فشلت وذهب ربحها ورجعت منهزمة : على أن لهذا الوادي قصة أروع من كل ذلك في تاريخ الإسلام والفتح الإسلامي : فعندما كان عمرو بن العاص يقود جيشاً من ليف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مهمة هذا الجيش إبلاغ دعوة الإسلام الصافية كما أراد الله، وكما بلغها محمد صلى الله عليه وسلم، لم يضق عنق الزجاجة عن هذا الجيش المؤمن الذي كان يقوده ابن العاص، وفتحت شروس أبوابها للإسلام دون أن تراق قطرة من الدماء، ودخل الفاتح البطل دون أن يكبد الإسلام خسارة في المال أو في الرجال، وتقبل أهل المدينة - مدينة شروس - التي كانت تتبعها في ذلك الحين أكثر من ثلاثمائة قرية، دعوة الإسلام.

وفتحوا قلوبهم للإيمان، وصافحوا بإيمانهم أيدي الصحابة التي لمست يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقي الجيش ما بقي في شروس بين أهل وأخوة، وعندما رجع الفاتحون، كان الإسلام قد استقر نهائياً، وكانت مبادئ الإسلام التي تحرر المؤمن من رقة العبودية لغير الله قد رسخت في أنفسهم، فلم يستطع منذ ذلك اليوم أن يستعبدتهم بشر حتى أنقرضت شروس، وكانت هجمات الباغيين تختنق في عنق الزجاجة، أو تتحطم على صخور الجبل.

ومدينة شروس هذه أكبر مدن جبل نفوسة في ذلك الحين، بل إنها إحدى العواصم الكبرى المنتشرة في بلاد المغرب، وهي بموقعها في بطن الوادي تحيط بها من جميع الجهات جبال تناطح السحب، وترتفع في كبد السماء، كأنها أسوار من صنع الله وضعتها إرادته لتحصين هذه المدينة، لا يفتح منها إلا باب ضيق إلى جهة الشمال، وصفناه فيما سبق بعنق القارورة ...

لقد كانت شروس مركز إشعاع منذ الفتح الإسلامي، وقد امتد منها نور الإيمان والعلم لا في جهات من ليبيا فقط، وإنما امتدت أنوارها منتشرة تتسع وتضيق إلى أقاصي المغرب ...

وقد أخرجت أعلاماً تركوا أثراً قيمة لا تزال مقبسة للنور إلى اليوم، وحسبها أنها كونت في الزمن المبكر للإسلام في ليبيا مدرستها الكبيرة العامرة بأقسامها الداخلية، وأنها كانت مقصداً لطلاب العلم من جميع الجهات حتى ضاقت مباني المدرسة ومنازل المدينة، عن السكان، فلم يجد الطلبة فيها

محلات الإقامة. واضطروا إلى الانتقال إلى مدارس ومدن أخرى كانت أقل شهرة منها. وإنه لمن أعاجيب الزمن أن تصبح شروس في ذلك التاريخ في زمن قصير جداً مقصداً لتصحيح العلوم. فيدرس الدارسون في تونس أو في الجزائر أو في أي جهة من الجهات النائية، ولكنهم لا يطمئنون إلى علمهم إلا بعد أن يردوا إلى شروس ويعرضوا ما عرفوا على ابن ماطوس فيجيزهم إن اجتازوا الامتحان. ويعودوا إلى الدراسة إن لم يوفقوا.

ولقد لعب الزمن بهذه المدينة العظيمة، فذهب عنها سكانها، وانزاح عنها عمرانها. ولم يبق إلا أطلال دوارس. وإلا مسجد أبي معروف يغالب الزمن. ويصارع التاريخ، حتى أن الأجيال الأخيرة أصبحوا يطلقون اسم أبي معروف على المدينة كلها. فيقولون خربة أبي معروف وأبو معروف هذا هو وبار ابن جواد أحد الأعلام الذين حكموا شروس وما يتبعها من قرى. فأقاموا فيها منار الحق، ورفعوا ألوية العدل، وساروا بسيرة الصالحين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. كان إماماً من أئمة العلم، لا يخلو كتاب من أقواله وآرائه وفتاواه. وقد كان سريع البديهة ذكياً عبقرياً يحل أعوص المشاكل وأعقد القضايا دون إجهاد فكر. والكتب مشحونة بأخباره، أما المسجد الذي يعرف به فلا يزال قائماً بين الأنقاض، منسق البناء، منحوت السواري من الصخر الأصم؛ وقد زين جدرانها بآيات كريمات وحكم بالغات، حفرت على أحجار منحوتة، أو نقشت بألوان لا تزال زاهية، وكل ذلك بالخط الكوفي الجميل.

على الضفة الشرقية لهذا الوادي، وفوق قمة عالية تقع

القرية الصغيرة الجميلة التي تسمى الجزيرة. لأنها واقعة فوق جبل منفصل عن بقية الجبال من ثلاث جهات انفصلاً كاملاً. أما من الجهة الرابعة فقد انفصلت عن بقية الجبال بخندق ضيق عميق، شديد العمق، والخندق من صنع الطبيعة لا من صنع الإنسان. ولا يستطيع الإنسان أن يدخل إلى هذه القرية الجميلة إلا فوق معبر على هذا الخندق، وفي الليل عندما تنام القرية تنتزع المعابر عن الخندق فتأمن من الدخلاء.

كانت هذه القرية معقلاً من معازل الجبل، وحصناً منيعاً من حصونه التي يتركز فيها الدفاع وتسان فيه الغوالي. وقد وقعت فيها عدة أحداث تشبه أن تكون قصصاً لعدد من المهاجمين الذين يحاولون أن يدخلوا إلى شروس. كما يدخل الفأر من عنق القارورة فلا يخرج إلا أشلاء، وأحسب أنني ذكرت بعض الحوادث التاريخية المتعلقة بها في بعض الفصول السابقة. وكما كانت مركزاً حصيناً للدفاع كانت أيضاً ملجأً للأخيار والصالحين. فكان الناس يقصدونها للتحصن من عدوان المعتدين، أو للخلاوة والإنابة إليه تعالى، ومناجاته في خشوع وابتهاال.

وإلى شمال هذه القرية تقع قرية أخرى تسمى "أم صفار" لا تزال إلى اليوم عامرة بالسكان. وإلى غرب هاتين القريتين تقع "تَنْزَغْتُ وَجَرِيْنٌ وَدَرْكَلٌ وَبَغْطُورُهُ وَغَفٌ سُوْفٌ وَدَجَّى وَزَعْرَارُهُ وَمِنْكَرْتُ وَبَقَالَةُ وَمَرْجَسٌ وَوَيْغُو" وكثير غيرها من القرى التي كانت تنبض فيها الحياة. وبعض هذه القرى أو الخرائب المنتشرة على مسافات متقاربة كانت في يوم ليس ببعيد مدناً عظيمة عامرة بالعلم مزدهرة بال عمران. تعيش فيها أمة ضربت المثل

الأعلى في الاستقامة والنزاهة والمحافظة على الخلق الكريم، والاستمسك بالعروة الوثقى، التي هي دين الله..

وفيه عاش طبقات من العلماء الأعلام الذين تركوا للأمة الإسلامية ثروة من العلم والفهم والسيرة العطرة ...

إنها منطقة كانت من أغنى المناطق بالمجد والعظمة، المجد الحقيقي الذي ترتفع فيه نفسه المؤمنين عن أدان الدنيا، وتحرص على الكفاح في سبيل الله، الكفاح بأوسع معانيه ...

وعندما تنعقد الاجتماعات في دركل أو تونين أو دركل أو في بغطورة أو في ويغو أو في الجزيرة أو تمنكرت أو في شروس أو في غير ذلك من المدن أو القرى، عندما تنعقد تلك الاجتماعات كانت تزدان بأمثال : محمد بن يانس، وأبي خليل، وأبي القاسم البغطوري، وأبي ذر أبان، وأبي معروف وبار، وماطوس بن هارون، وماطوس بن ماطوس، وخيار التمنكرتي، وجندوز التمنكرتي، ووالى العهد المرجسي وأبي بكر الغفسوفي، وعشرات غيرهم من الأبطال في قرون متتابعة، أبطال الكفاح_ كفاح الباطل الوافد في عدوان المعتدين، أو في سلوك الجاهلين، أو في انحراف المبتدعين، ومن أبرز أولئك العمالقة في الميدان العسكري شعبة الدجى الذي حمل العلم في جميع المعارك منذ ولى على الجبل البطل أبو الحسن أيوب بن العباس، إلى أن انتهى الحكم إلى أفلح بن العباس، فلم ينتكس مرة واحدة، ولم يذق هذا البطل طعم الهزيمة ...

وفي الوقعة الأخيرة وقعة مانوا كان القائد العام للجيش

هو البطل أفلح ابن العباس، ولما رأى أن القتل كثير في جيشه، وخاف أن يفكر جنده في التفهقر، أمر " شعبة " حامل العلم أن يركزه في الأرض ليثبت، ولكن حامله الشجاع حاول أن يمتنع، فأكد القائد أمره مرة أخرى، فنظر شعبة إلى أفلح غاضباً وقال له : لقد حملت العلم لأبيك وجدك فلم يأمرانى بالحفر له وإثباته، وسأحفر له حفر الله لك، وحفر له، فركزه، فكان الأبطال يستاقطون من حوله وهو ثابت في الأرض، ولما شاهد بعض من يملكون أنفسهم عند الروح حالة الأبطال ورؤسهم تتناثر، وعلم أن بقاء العلم ثابتاً كفيل بالقضاء الجماعي على الناس، ضرب العلم فسقط وتفرقت البقية الباقية : وهكذا حتى في هذه الوقعة التي كتبت فيها الهزيمة على جيش نفوسة لم يسقط العلم من يده، بل إن العلم لم يسقط قط وشعبة في الحياة، لقد انتقل إلى رحمة الله قبل أن يهان العلم الذي رفعته يده، فلم ينتكس مرة واحدة ...

أما مدينة ويغو : هذه المدينة التي لا تزال أطلالها مرتفعة، يشاهدها الداخل إلى ما يسمى اليوم بالحراية، أما هذه المدينة التي لا تزال أطلالها تشهد للتاريخ بما كانت عليه من مجد وحضارة، فقد كانت مدينة علمية وينطبق عليها هذا الوصف أصدق ما ينطبق عليها أي وصف آخر، ويكفى للدلالة على ذلك ما اشتهرت به من أنها إحدى المدن الثلاثة التي لا يحتاج فيها بيت إلى بيت في مشكلة علمية، وقد قصدها الإمام عبدالوهاب الرستمي لما جاء من تاهرت لزيارة جبل نفوسة، وقصد بيت العلامة مهدي النفوسي الويغوي الذي سبق له

أن ذهب إلى تاهرت في الوفد الرباعي وتعرف بالإمام، وتعرف به الإمام، وكان بيت مهدي النفوسي شديد الشبه ببيوت أسلافه أبي ذر الغفاري، وعبد الله ابن مسعود، وأمثالهم، قد أقفر من وسائل الدنيا.

وسمع الشيخ فرج النفوسي ابن خالة مهدي بالضيوف الكرام، فجاء إليه يستأذنه في نقلهم إلى منزله فإنه أصلح لهم، وأرفق بهم، وأستر للشيخ، وانتقل الإمام وصحبه إلى منزل فرج فوجدوا داراً فسيحة متعددة الحجرات، تامة المرافق، متوفرة وسائل الراحة، فاستبدلوا ثيابهم وكان الوقت شتاء، وقد أصابتهم في الطريق مطر، ووضع لكل واحد منهم موقد للاصطلاء : وجهز لهم عشاء يناسب المقام.

وقد تحدث المؤرخون عن هذه الحادثة، وعن سر الحال الذي يتمتع به الليبيون في ذلك الحين، وعجبوا كيف أمكن لهذا السيد أن يحضر عدداً وفيراً، من المواقد حتى يستطيع أن يضع أمام كل ضيف موقداً، وتعرض العلامة الكبير الشيخ سليمان باشا الباروني لهذه الحادثة ففسرها بأن فرج الويغوي كان رجلاً ثرياً يشتغل بالتجارة والزراعة وغيرها، وبذلك توفرت عنده الثياب، لأنه كان يجمعها للبيع والمتاجرة، أما المواقد : فهي أصص معدة للمشائل، فلما جاء الضيوف استعملها مواقد.

ودخل أحد الناس فوجد أمام كل ضيف موقداً فقال متعجباً " كل شيخ وكانونه " فذهبت مثلاً.

أما الضفة الغربية لهذا الوادي فتقع عليها المدينة الكبيرة "

تندميرة " رابضة تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ.

" وتندميرة " إحدى المدن التي اشتهرت بأنها مدن علمية، فهي إحدى المدن الثلاثة التي لا يحتاج فيها بيت إلى بيت في مشكلة من مشاكل العلم.

وتندميرة التي أصبحت اليوم قرية صغيرة، قابضة على القمة الشامخة في في هدوء واستقرار، كانت مركزاً من مراكز الإشعاع العلمي والديني والخلقي، ولقد انبتت تربتها الزكية عمالقة وأعلاماً، كان لهم أطيب الأثر في حياة الأمة الإسلامية، ففي مرابعها العامرة نشأ أبو منصور إلياس، هذا البطل الذي لم تنتكس له راية مدة ولايته على ليبيا، ولم يعرف جيشة هزمت قط منذ تولى قيادته، والذي يشهد له التاريخ بأعظم مجد خلقي اكتسبه قائد حربي.

فما عرف التاريخ في أحداثه الطويلة قائداً حربياً ينتصر في معركة وينهزم عدوه تاركاً وراءه ثمانمائة حمل من الذهب تنتثر في الميدان فيعف القائد المنتصر، وجيشه المظفر، ولا يمس منها ديناراً واحداً يحتفظ به للذكرى، حتى يأتي أولئك الذين لا يفرقون بين الحلال والحرام ليلتقطوا ما بقى في الميدان كما تأتي الذئاب لتلغ في دماء الجيف التي عفت عنها الأسود.

إن أصحاب المبادئ من المحاربين يجب أن يقفوا لتحية هذا البطل العظيم كلما ذكر اسمه، وإنه لقليل عليه أن يخلد اسمه في كل عاصمة من العواصم الإسلامية، وليس ذلك للرفع من مقامه، فإن مقامه أسمى من أن يحتاج إلى رفعه، ولكنه ليكون

ذكرى وعبرة لهؤلاء الذين يحملون السيوف ويحاربون من أجل المبادئ فيما يزعمون.

وفي " تدميرة " نشأ أبو زكرياء الذي حكم الجانب الأكبر من ليبيا، مستقلة على أية دولة أخرى مدة ستين سنة، فلم يكسب منها مالا، ولم يدخر ثروة، وإنما كسب منها عظمة يعز نظيرها عند غيره من الحكام، تطالبه زوجه بشئ من الزيت للاستصباح فيعتذر، ويرجوها أن تستصبح بالخطب، ويعرض عليه أحد الأغنياء عدداً من الكباش بدلا من الغذاء فيقول له : لو سئلت يوم القيامة حمل قرونها لأتعبني، فما بالك بها كلها.

وفي " تدميرة " نشأ أبو حفص عمرو بن عيسى : هذا المؤمن العالم البطل الذي كان يطارد الجهل والبدعة من ميدان إلى ميدان، كما يطارد المحارب المقدام جيوش الأعداء، فلم يستقر به المقام، ولم يسترح من الكفاح حتى لحق بربه ...

وفي تدميرة هذه نشأ عدد غير قليل من العلماء الذين دونت أقوالهم وسيرهم في كتب الشريعة وفي كتب التاريخ والسير. وإلى الغرب من تدميرة بمسافة غير طويلة، تقع مدينة " تملوشايت " هذه المدينة التي كانت تنازع " شرورس " وتنافسها، والتي بلغت من العظمة في يوم من الأيام أن كانت تخاطب تونس الخضراء فتصفها بأنها قرية، والقصة في ذلك مشهورة لا يزال الناس يتناقلوها مع شئ من التعليقات والأخيلة التي لا تخلو منها قصة طريفة، فقد قيل : إن مزارعا تونسياً يملك مخزناً كبيراً ملاءه بمحصوله من الحبوب، وكان إلى جواره معمر

مسيحي يملك عدداً من الخنازير السمان، وغفل التونسي فترك مخزنه مفتوحاً فدخلت إليه خنزيرة قذرة، وفي وسط الحبوب ولدت عدداً من الجراء، وسال منها على تلك الحبوب ما يسيل من الخنزيرة عند الولادة.

وذهب الفلاح التونسي إلى المشهورين من علماء تونس يستفتيهم فيقبلون له أكفهم ويرجعون العلم إلى الله ورسوله إن هذه الحالة تقع لأول مرة، ولم تدون في الكتب. وهكذا طاف الرجل على أصحاب العلم في تونس الخضراء فلم يجد من يتشجع ويقول مثلاً : إن الأجناس تزال بالغسل، لأن الناس جميعاً يستقذرون الخنازير.

ولو أفتى أحد الناس بهذا لاتهم في دينه من العوام، وسمع به أحد الناس، فنصح المزارع أن يبعث بسؤاله إلى مدينة " تملوشايت " من جبل نفوسة.

وبعث الرجل، وبعد أسابيع جاءه الجواب، فقد كان في تملوشايت العالم الأديب الشاعر أبو نصر حاضراً، فكتب إليه يقول : من مدينة تملوشايت إلى قرية تونس، وبعد الديباجة قال : ازرعوا الحبوب النجسة تنبت زرعاً طيباً طاهراً ... وهكذا عملت العبقريّة على حفظ مال الرجل، والاستفادة منه ... قد يحق لأبي نصر أو غيره من العلماء أن يفتوا بطهارة هذه الحبوب إذا غسلت وأزيل منها الأذى، ولكنهم يعرفون أن النفوس تستقذر الخنزير وما لمسسه، وأنه لا يمكن أن تؤكل هذه الحبوب ولو كانت طاهرة وحلالاً، ولكن زرعها شئ معقول وغير مستقذر، وبهذه المدارك الدقيقة،

وفهم أسرار النفوس وأسرار الشريعة يتفاوت العلماء. فما كل من عرف شيئاً يقوى على حل المشاكل والفتوى للناس..

وإلى الغرب من "تملوشتايت" بمسافة ليست طويلة تقع قرية "طمزين" على ضفة الوادي المقابلة لتملوشتايت تلك القرية التي كانت من قبل مدينة عظيمة تتصل بتمصمص. وفي هذه المدينة نشأ الرجلان العظيمان أبو يونس وسليم. وسعد ابن أبي يونس. اللذان تعاقبا على حكم "قنطرة" "تيجي" مدة ليست بالقصيرة. وفي هذه المدينة نشأ أبو محمد خصب بن إبراهيم. أحد أولئك الأعلام الذين كونوا أجيالا. فقل أن جدل عالماً نشأ في زمانه لم يتلق العلم عن أبي محمد؛ وفيها نشأ أبو نصر الذي دار جبل نفوسة أربعين دورة ليقوم برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويلقى في المجتمعات دروس الوعظ والإرشاد.

وفي أواخر أيامه فقد بصره. فلم يمنعه ذلك من الكفاح. حتى الكفاح بالسيف. فكان يدخل المعارك يجالد العدو. دون أن تقضى عيناه برؤية ذلك العدو.

إن هذه المنطقة منطقة "تندميرة" و"تملوشتايت"، و"طمزين" منطقة غنية بالأمجاد، غنية بالعلم، غنية بالدين. وقد أنتجت تربتها الخصبة من رجال التاريخ من يحق للأمة الإسلامية أن تضعهم في مصاف العظماء...

وادي أمسين

"وادي أمسين" أو "وادي جلازن" واد عميق بين جبال شاهقة. ينحدر من الجنوب إلى الشمال. ويتكون أعلاه من عدد من الفروع

تنبع فيها كثير من العيون والآبار ويزدان بكثير من الأشجار. وتجتمع في أمكنة منه غابات كثيفة من النخيل ترتفع متعائلات كأنها تشترك في حفلة رقص. وعلى منطقة هذا الوادي التي تنحدر غرباً إلى "تاله"، وشرقاً إلى حدود "فساطو" تنتشر اليوم مجموعة من القرى كانت قبل زمن ليس بطويل مدناً عامرة بالإيمان والعلم والبطولة.

وإذا كانت "أفاطمان" تلك المدينة التي تقع على الحد الغربي لهذه المنطقة. هي أول مدينة ليبية فكرت في تكوين مدرسة لتعليم دين الله. فإن بقية المدن قد أمدت الحياة العلمية بعلماء أجلاء. وعالمات صالحات. حافظوا على هذه الرسالة المقدسة قروناً طويلة.

وإذا كانت "قُطرس" أُنْجبت عمروسا وأمثاله. "وأبدلان" أُنْجبت أبا الحسن وأمثاله "وأفاطمان" أُنْجبت أبا مهاصر وأمثاله "ووزنيرف" أُنْجبت أبا محمد بن الخير وأمثاله. وأُنْجبت "مَرْساوُن" نوحا بن حازم وأمثاله. وأُنْجبت "تيميجار" أبا الربيع سليمان بن خلف وأمثاله. وأُنْجبت "إينر" أبا سليمان وأمثاله. وأُنْجبت "أرجاجن" زورغ وأمثالها. وأُنْجبت "أمسين" أم يحيى: أول أرملة ليبية فكرت في تخصيص مدرسة للبنات مجهزة بالأقسام الداخلية.

إذا كانت هذه المدن أُنْجبت هؤلاء وعشرات من أمثالهم. فإنه لا يوجد في هذه الأرض المنبسطة الفسيحة بها فيها من شعاب وأودية. والتي يطلق عليها اليوم اسم الرحيبات مكان إلا وفيه

بقايا مدينة أو قرية كانت عامرة بأهل العلم والفضل والخلق والدين.

ولا يوجد مكان من هذه الأرض الطيبة لا يحمل ذكرى عطرة للكفاح في سبيل الله. وإذا كان العمران قد انحسر اليوم إلى قليل من القرى المتناثرة، وأصبحت المسافة بينها بعيدة، فإنها كانت من قبل متصلة. تكاد تكون مدينة واحدة ...

ويكفي أن تعرف أن الفتاة قد تذهب من " جيطال " أو من " أبديلان " إلى " أرجاجن " لتستمع إلى الدروس الأسبوعية التي تلقىها العجوز الصالحة زورغ على بنات الجبل لتغرس في نفوسهن الدين الصحيح. والخلق القويم.

وإن الفتاة كانت تذهب من " إنثير وجيطال ومن مرساون وونزيرف إلى أمسين. فتحضر الدروس في مدرسة أم يحيى للبنات ثم تعود فلا تخاف من وحش أو بشر، وذلك لأنها كانت تقطع هذه المسافات التي يخيّل إلينا اليوم أنها طويلة، كما تقطعها اليوم في مدينة كبيرة أهلة بالسكان. إنها تكاد أن تكون شوارع طويلة المدينة واحدة. أهلة بالعمران مزدحمة بالسكان

وادي الزرقاء

هو وادٍ عميق، يتجه من الجنوب إلى الشمال في انحدار متدرج، يكون شلالين عظيمين.

أولهما شلال الزرقاء، ولا يقل ارتفاعه عن ثمانين متراً حسب تقدير العين المجردة أما الثاني فأسفل منه، ويسمى ما صر وهو أكثر ارتفاعاً من الأول.

ويستمر الوادي في الانحدار بعد هذا الشلال حتى ينسل من الجبال، ويذهب زاحفاً بين السهول الخضراء يحمل إليها الماء والغرين التي تكون أهم أسباب الخصب في أراضي الزراعة ...

في مصب الشلال الأول تتجمع مياه الأمطار والينابيع، فيتكون من مجموعها البحيرة الجميلة الساحرة التي تسمى الزرقاء، وسميت الزرقاء لأن الزرقعة هي اللون الغالب على مائها، ويبلغ عمقها في بعض الجهات ما يزيد عن عشرة أمتار حسبما يقال، وهي مستديرة الشكل كالمرآة، يبلغ قطرها مرمى الحجر للرجل القوي. عذبة الماء، صافية الأديم، دائمة الزرقعة يحيط بها من جميع الجهات إطار من الأشجار يمنحها الخضرة والجمال والظل الظليل، ينبع الماء من حواشيتها، وينحدر إليها من الطبقات الصخرية صافياً، بارداً، منعشاً، وتعد الزرقاء أجمل مصيف لأهل المنطقة، ويأتيها السواح من جميع الجهات لمنظرها الخلاب، ومائها العذب، وهوائها المنعش العليل.

أما الشلال الثاني ماصر: فهو أقل جمالا من الزرقاء، وأكثر ارتفاعا، وهو لا يكون بحيرة كما فعل الشلال الأول، فإن مياهه لا تجتمع، وإنما تذهب منحدره مع الوادي: والينابيع التي تخرج من طبقات الصخور في مصب هذا الشلال تعتبر عيوناً عادية، عذبة الماء، تسقى ما تحتها من أجنة وبساتين.

أما المسافة الواقعة بين الشلالين فهو أرض مزدانة بالأشجار المتشابكة، منها المثمر ومنها غير المثمر، ومنها ما تعهده يد الإنسان، ومنها ما غرسه عوامل الطبيعة، ويسقى جميع هذه

المنطقة المياه المنحدرة مع الوادي من بحيرة الزرقاء، مكونة نهراً صغيراً لا يكف عن الجريان، حتى ينحدر مع شلال ماصر، أو تمتصه التربة الخصبة قبل ذلك.

والصورة في جملتها تمثل منظراً من أبدع المناظر، يخيل للمتنزه فيه أنه في بعض مناطق لبنان، وإن لكل بلد سحره وجماله.

ولو ظفر ببعض العناية فوُصّلت طرق السيارات على البحيرة، وأقيمت فيه بعض المحال التي تقدم للمتنزه ما يحتاج إليه، وظفر فيها الزائر بوسائل الراحة، لأصبح من المناظر السياحية التي يقصدها السواح من كل مكان، واشتهرت به ليبيا كما اشتهرت لبنان بزحلته.

على ضفة هذا الوادي من الغرب تقع قرية " الجماري " الجميلة هذه القرية التي كانت تسكنها " نانا مارن " جدة المشايخ، تلك العالمة الذكية التي استطاعت بما أوتيت من علم وعقل أن تقنع أصلب رجل في جبل نفوسة بوجهة نظرها، حين استعصى إقناعه على فطاحل العلم والسياسة ما بين " تاهرت وجادو "، وقد تقدمت هذه الحادثة مفصلة في حياة أبي عبيدة عبد الحميد.

والى الشمال من هذه القرية بمسافة قصيرة، وعلى الضفة نفسها تقع قرية أخرى جميلة هي قرية " ندباس " وفي هذه القرية يروي التاريخ قصة من أروع قصص المرأة في ميدان العلم والعبقرية، واتباع الحق.

ذهب معبد الجناوني إلى " قنطرة " يدرس على العالم الكبير سعد بن أبي يونس ولما بلغ من العلم درجة، وحسب أنه نال منه الكفاية رجع إلى جناون، وممر في طريق رجوعه على " ندباس " وقبل أنه يدخل القرية. - وقد أنهكه التعب والإعياء والعطش - وجد أمة تسقي الماء من صهريج فطلب منها أن تسقيه، وبدلاً من أن تسارع الأمة إليارواء هذا العطشان أجابته في حزم: أنستخدم أموال الناس يا جاهل؟.

ورجع إلى نفسه يسألها بأي حق يستخدم أموال الغير، وعرف أنه ما أوتى من العلم إلا قليلاً.

ولقنته الأمة درساً، فرجع من مكانه إلى مدرسته، وواصل دراسته حتى أصبح فيما بعد موسوعة علمية متنقلة وكان مرجعاً من المراجع الهامة التي يقصدها الناس للاستفادة والعلم.

وإن بلداً تبلغ فيه الإمامة هذه الدرجة من العلم حقيق أن يشغل التاريخ وتستخلص منه العبرة.

والى شمال هذه القرية على منبسط فسيح فوق قمة شامخة تقع مدينة " مزغورة " ترتفع فيها مئذنة مسجد أبي زيد ضاربة في الهواء، تناطح السحب، وتبعث بتحاياها وتهمس بنجواها، إلى مئذنة أخرى ترتفع ضاربة في الهواء من مسجد أبي يحيى في " تَارْدِيَه ".

وفي هذه المدينة الفسيحة التي كانت تنافس جادو في العظمة والمجد نشأ العلامة أبو زيد، وعاش مشغولاً برسالاته

المقدسة، في جو علمي، بين طلاب أذكفاء وزملاء علماء صلحاء، فلما توفي، بقيت مدرسته الفسحة بما فيها من مخازن وأقسام داخلية - مثابة لأهل العلم والفضل، وقد كان يرد إليها فطاحل العلماء من جميع الجهات، ليؤدوا فيها هذا الواجب المقدس طيلة قرون متتابعة، وتعاقب عليها عدد غير قليل من كبار العلماء والمربين، مثل أبي موسى الطرميسي، وأبي عزيز، وأبي ساكن، ونوح بن حازم، وغيرهم.

وتعد مزغورة في التاريخ الليبي من المدن العلمية التي كانت مركز إشعاع زمنًا طويلاً، وفي كل واحد من هذه المدن الثلاثة قصة لامرأة، وقد عرفت قصة مارن وقصة أمة ندباس، أما المرأة التي أريد أن أحدثك عنها في مزغورة فهي من نوع آخر: إنها زوجة أبي زيد، هذا العالم المؤمن، لقد ابتلى بزوجة سوء لا يسمع منها إلا الكلمة البذيئة، ولا يرى منها إلا العمل القبيح، إذا دعاها إلى الخير أعرضت عنه، وإذا أسمعها الكلمة الطيبة أسمعته الكلمة النابية واللفظة الجارحة، إذا أيقظها لصلاة الصبح دعت عليه بالسوء واستمرت في النوم، ورغم كل ذلك لم يطلقها، حرص على الاحتفاظ بها خوفاً من أن يبتلى بها مؤمن آخر فلا يصبر على إذاها ...

وإلى الغرب من مزغورة بنحو ميلين تقع " ويفات " عليعناق جبل وعمر متجهة إلى الشمال الغربي، وقد كانت مدينة كبيرة عامرة المساجد متراكبة المباني، تكاد تكون مع مزغورة صاحبة، أو امتداد شارع، وإلى الجنوب منها بنحو ثلاثة أميال تقع القرية الصغيرة " رقرق " وهي قرية صغيرة تابعة على ضفة وادي

سحيق العمق ضيق، يكاد يكون عبارة عن خندق عظيم يفصل بينها وبين " توكيت " ...

و " توكيت " مدينة عظيمة تستلقي على هضاب وشعاب تقابل رقرق من جهة الغرب، وقد كان لهذه المدينة في الماضي تاريخ مجيد، وإذا كان للمدن حق الافتخار بمن تعجب من الرجال، فإنه يحق حينئذ لهذه المدينة أن تفخر بأبي زكرياء، هذا العالم المؤمن الذي قيل فيه : أبو زكرياء هو الجبل والجبل هو أبو زكرياء، والذي جعله الإمام عبدالوهاب حجة وبرهاناً، وحسبه أعظم مرجع علمي في زمن كثر فيه العلم والعلماء فقال لأبي عبيدة : وإن كنت ضعيفاً في العلم فعليك بأبي زكرياء التوكيتي، وبين هذه المدن الست المتقابلة وهي : الجماري، ندباس، مزغورة، ويفات، رقرق، توكيت " أو تمزدة " غابة خضراء من شجر الزيتون، ولا تخلو ربوة من ربا هذه المنطقة أو شعب من شعابها من أثر قرية قد اندثرت، أو مسجد قد بقيت أطلاله أو رسومه، تشهد للتاريخ بما كانت عليه من عمران، أما مسجد أبي زيد : فقد بقي بطلول الزمن بمئذنته الشامخة، والحجرات الدائرة به، تلك الحجرات التي كانت مساكن لطلبة العلوم، ودواميسه الكبيرة التي كانت مخازن تحفظ فيها مؤن طلاب العلم الوافدين من كل مكان، وما يسر : أن هذا المسجد بقي إلى اليوم كما كان العهد به مسجد الصلاة للمدينة الكبيرة، ومن عبر التاريخ : أن المدرسة الحديثة بنيت ملتصقة به، فهو لا يزال يقوم برسائلته الخالدة التي قام بها مؤسسها العظيم منذ القرن الثالث،

أما على الضفة الشرقية لوادي الزرقاء، فتقع مدينة " أرجان

"العظيمة وتنيسط هذه المدينة العظيمة على عدد من الربا والشعاب بين "أندماد" وضة الوادي وقد اندثر جانبها الشرقي فلم يبق منه إلا مسجد أبي زكرياء الأرجاني على رأس ربوة عالية، كانت في القديم قلب المدينة وقد انحاز العدد الباقي من السكان وتكتلوا على قمة الجبل من حاشية الوادي الشرقية فكونوا قرية صغيرة سميت اليوم "مزو" وهذه القرية تقابل قرية "الجماري" كأنها صورتان باهتان لجذ باهر غير، وتاريخ مشرق مضى: ولعل أحفاد أولئك الجدود يذكرون ما قدم أسلافهم من خدمة لله والوطن، فيعملون على تجديد ذلك البنين، وإحياء ذلك التاريخ العطر الذي خلد أبطالاً من الرجال والنساء، وفي نانا مارن وأبي زكرياء الأرجاني أسوة حسنة وقدوة صالحة ...

وإلى الشمال من أرجان تقع مدينة "جادو" مدينة نفوسة ومركز الحكم في الجبل عامرة الأسواق، فسيحة الميادين، طويلة الشوارع، عالية المباني، تنبسط على مجموعة من الربى والوهاد في عزة الأمن واستقرار المطنن، تحيط بها مجموعة من القرى تكون لها ضواحي جميلة، وقد جرى الزمن على جادو بمثل ما جرى به على أرجان، فانتقلت من مكانها الفسيح المنبسط، والتجأت إلى حافة الجبل، فتجمعت في قمة منه، دائرة حول مصلى أبي عبيدة كأنها تعتصم به من أحداث الزمان، وتضائل عدد السكان، ووسائل العمران، حتى صارت جادو بالنسبة إلى ما كانت عليه من علم وحضارة وازدهار كأنها ملخص صغير لموسوعة علمية ضخمة، لم تستطع إفهام الطلاب المهازيل استيعابها، فعملت الأيدي على اختصارها وتلخيصها.

ولقد أجب جادو من الأبطال والعلماء الأعلام ما امتلأت به بطون الكتب، وحسبها أنها كانت دار الندوة ومجتمع المشائخ للتشاور، وعقد المؤتمرات العلمية أو الاجتماعية أو السياسية، وقد وقع عليها الإختيار لأن تحمل هذه الرسالة فحملتها في شرف وإخلاص.

أففق علماء نفوسة فاختراروا جادو ليبينوا فيها مسجدهم "إمستراتن" ولعلها أول مدينة يجتمع شعب كامل على بناء مسجد فيها ليكون مسجد الشعب كله لا مسجد المدينة وحدها، وقد اشترك الجبل في البناء من أقصاه إلى أقصاه، وادي هذا المسجد إلى الوطن ما لم يؤد أي مسجد آخر، فقد كان العلماء بقصدونه زرافات ووحداناً من كل جهة، ويتذكرون أمور الناس، ويتشاورون في وجوه الإصلاح التي يجب أن يقوم بها كل واحد منهم في ناحيته، ثم كان ملتقى للثقافات، فقد كان أولئك العلماء الذين يردون إليه يقومون بإلقاء دروس متعددة، وقد يستعرضون في تلك الدروس أحوال المجتمع وما يجب أن يكون عليه، وليس ذلك فقط وإنما كان يؤمه الطلاب الذين انتهوا من دراساتهم أو كادوا في المدارس المنتشرة، ويلازمونها أوقاتاً تختلف، وذلك ليستمعوا إلى عدد من العلماء، ويأخذون عنهم، ويناقشونهم، حتى يطمئنوا إلى علمهم وكفاءتهم فقد كانت رسالة هذا المسجد الإصلاح والتعليم بالإضافة إلى العبادة، وانحسر السكان عن موقع مسجد إمستراتن واندثر العمران من حوله، وبقي شامخاً يروى للأجيال ما كان عليه من مجد وحضارة، ومنذ سنوات فكر بعض أهالي جادو في ترميم المسجد وتنادى

الناس إلى إعادة بنائه، وبذلوا ما لديهم من جهد ومال، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا ذلك الجذ الشامخ واختصروا المسجد الفسح منه أقل من النصف، وهدم الباقي، فكان عملهم هذا اختصاراً هزلاً لعمل عظيم.

وقد أراد المولى سبحانه وتعالى أن يبقى حي امسراتن حي العلم حتى بعد أن هدم بناؤه، وانحسرت المدينة عنه، فبنيت المدرسة إلى جنبه من الغرب ومعهد المعلمين إلى جنبه من الشرق.

وإلى شمال جادو الحديثة، تتابع ثلاث قرى جميلة، هي: القصير، وأشبارة، وبوجلين.

وقصة هذه القرى الثلاثة هي قصة " جادو ومزو " فقد كانت تكون جانباً من مدينة عظيمة تقابل جادو من الشمال الشرقي، فأنحسر عنها العمران، وتوالى عليها العدوان، فالتجأت إلى قمة الجبل، وتحصن فلولها بالوعر، وبقيت آثارها هنالك تروى أخبار التاريخ للقرن المتعاقبة.

وتحت قرية القصير وفوق منتصف الجبل بقليل تنتصب قرية " تموقط " باسمه ضاحكة كأنها الوليد الذي تهدده الأم على المصدر الحنون، أما في السفح فتضطع جَنَّاوَن في استرخاء على أقدام هذا العملاق العظيم بينه وبين مجرى وادي الزرقاء.

وإلى الشمال الشرقي من هذه القرى بنحو أربعة أميال تقع " طرميسة " وهي اليوم تشبه أن تكون برجاً عظيماً أو ناطحة سحاب، اختار لها مؤسسوها أنف جبل شامخ يشبه أن يكون

زاوية مثلث، فوضعوها على رأس الزاوية ثم اقتطعوها عن بقية الجبل بخندق حفرته أيدي الناس، فكان الدخول إليها والخروج منها لا يمكن إلا على معابر يضعونها في النهار ويزيحونها في الليل فتنام آمنة مطمئنة، إنها شديدة الشبه بالجزيرة، غير أن خندق الجزيرة حفرتة عوامل الطبيعة، أما خندق " طرميسة " فقد حفرتة أيدي البشر لتتحصن به من عدوان البشر.

وتقع ما بين طرميسة وجادو وأرجان وأدرف منطقة كانت أهلة بالسكان، متصلة العمران، متواصلة البنيان، يقوم في كل مرتفع منها مسجد أو مصلى، وفي كل شعب من شعابها آثار قرية أو بقايا ضاحية، يصل بين ذلك غابة خضراء متشابكة بالزيتون، متمايلة بالنخيل، ينتثر بين ذلك شجر التين والكرم، أما تلك المدن والقرى التي بقيت إلى اليوم تدب فيها الحياة ديباً ضعيفاً أو قوياً، فقد كانت في يوم ليس ببعيد في التاريخ مثابة للعلم، ومركزاً للإشعاع، ومأوى للأخبار ومحطاً للرجال، رجال الكرام، يأوون إلى الكرام.

وهذه " جَنَّاوَن " التي لا تجد اليوم فيها سبعين رجلاً ذكراً، كانت يجتمع بها في مسجد أبي عبيدة سبعون عالماً، لا يرد أحدهم السؤال إلى الثاني إلا من طريق الأدب، وكان أبو عبيدة على ما عنده من علم وحكمة يجلس إلى بعضهم كما يجلس التلميذ إلى الأستاذ، وكان هؤلاء العلماء يعيشون في عصرهم بما تعنيه هذه الكلمة، فهم مطلقون على سير الحوادث وحالات المجتمع، يدرسونها ويتشاورن فيها، ويتخذون في جميع ذلك القرارات اللازمة ...

وفي قرية " القصير " التي كانت محل استراحة واستحمام بين " جادو وجناون " كان يجلس أبو الليث في صعوده إلى جادو أو في منحدره إلى جناون. فيصلي لله ما شاء، ثم يعقد مجلس العلم في ذلك المكان الجميل الذي تظللله أشجار البطوم العظيمة، فيحضر إليه الناس ويقبلون عليه إقبال العطاش. ولا يزال الناس إلى اليوم يذكرون تلك المجالس العلمية العامة بالإيمان ؛ ولكنهم بدلا من أن يشغلوها بالدراسة، وإحياء السيرة، وبث المعرفة، ونشر الفضيلة، أصبحوا يشغلونها بالصدقة والإطعام مرة أو مرتين في السنة، وهكذا عندما أقفرت الرؤوس من العلم جادت الجيوب بالمال، وفي هذا دليل على أن القلوب مفعمة بالإيمان وحب الخير ولكنها في حاجة إلى تعليم وتنوير.

أما " يوجلين " التي أُنْجِبت " أبا يوسف وجدليش بن في " وأضرابه، فقد كانت ملاذ المشائخ ومزار الصالحين، ومقصد العلماء العاملين، حتى قال بعض المؤرخين إن العلامة أبا محمد عبدة بن أفلح اليُوجَلَانِي إنما تعلم العلم في بيته، لكثرة من يغشاه من العلماء الأعلام، ولطول ما يقيمون عنده، وكان من أكثر العلماء إقامة في يوجلين وأخصهم بأبي محمد العلامة أبو عبدالله بن جلداسن، وعليه أخذ أبو محمد عبدة وغيره من علماء يوجلين، وقد أسندت إمارة الجبل إلى أبي عبيدالله بن جلداسن، فكان يقسم وقته بين لالوت وجادو، وفي الفترة التي يقيمها في جادو كان يمكن يوجلين، ومنها يحضر إلى جادو ليقوم بمهام الحكم، أما الدروس فكان يلقيها أحيانا في يوجلين وأحيانا في امسرانن مسجد نفوسه.

لقد كان عبدة بن أفلح غنياً كريماً، ولذلك فقد كان يطعم هؤلاء المشائخ الذين يقيمون في يوجلين، فيطيلون الإقامة من خالص ماله، ولا يقبل مساعدة من أحد، ولم يكن يشابهه في ذلك إلا العالم الثري أبو علي الفساطوي الذي كان ينفق من غير حساب وكان من أخص الناس به وأقربهم إليه أبو الخير الزواغي حتى ارتفعت الكلفة بينهما، وكانا يتحدثان في كل جليل وحقير من أمرهما.

زاره عدد كبير من المشائخ، فأقاموا عنده وأطالوا الإقامة، فاختص بضيافتهم، ولم يسمح لأحد أن يساعده ويشاركة، وكان يذبح كل يوم شاة لعشائهم وشاة لغذائهم، فخجل المشائخ وخافوا أن يكونوا أثقلوا عليه، فكلّموا أبا الخير الزواغي راجين منه أن يترك اللحم على الأقل في إحدى الوجبتين، وفي اليوم الثاني من حديثهم مع أبي الخير زاد أبو علي، فجعل على كل وجبة شاتين، وعاتب المشائخ أبا الخير فقال لهم : لقد أبلغته رجاءكم ولكنه استشارني واستنصحتني فنصحتني بالزيادة في الخير...

أما طرميسه التي أُنْجِبت عدداً من فحول العلماء مثل أبي محمد التَّنْكِينَسي ومحمد بن بَرَكِين وأضرابهم فيكفي أنه نشأ فيها من يستحق أن يلقب بأستاذ الجبل في القرن السابع الهجري، ذلك العلامة أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي.

لقد كانت جادو بما تشتمل عليه من ضواح وقرى هي الحصن

المنيع طيلة عدد غير قليل من القرون، وقد بقيت مركزاً للحكم، وعاصمة سياسية للجبل، يتوالى عليها الأمراء، أميراً بعد أمير، لم تخضعها القوى التي كانت تتكالب على احتلال الجبل من الشرق والغرب، وصمدت في بطولية للضربات العنيفة التي وجهت إليها، ولم تؤثر عليها حتى الجريمة النكراء التي ارتكبها الميورقي يوم أحرق غابة الزيتون التي كانت تظلل مدخل الوادي في "جناون" فكان عمله ذلك أفضع من عمل "داهيا" الكاهنة الوثنية، لأنها كانت تحسب ذلك حيلة من حيل الدفاع، أما هو فقد أخذ ذلك وسيلة من وسائل الهجوم ضارباً بعرض الحائط تعاليم الإسلام، ووصايا أمراء المؤمنين بعدم حرق الشجر، حتى أيام الفتوح في البلاد التي لم ترتفع فيها كلمة الإسلام.

وادي الآخرة

وادي عميق، كثير الأشجار، غزير المياه، تنبع من أماكن مختلفة منه عدد من العيون والآبار، وهو ينحدر من الجنوب إلى الشمال كما تنجيه جميع الأودية التي تشق جبل نفوسة في أماكن كثيرة.

وعلى جانبي هذا الوادي من الشرق والغرب تنتثر مجموعة من القرى والمدن كان لها الأثر القيم في التاريخ العلمي لهذه البلاد، والأراضي المنبسطة من شرق هذا الوادي وغربه تكون غابات جميلة من الزيتون، كثيفة الأشجار، دائمة الخضرة، خصبة التربة، والقسم الواقع منه إلى الغرب كان يسمى أرض بني زموور وهو ما يطلق عليه اليوم اسم الرجبان، وفي أرض بني زموور هذه

تقع عدد من المدن والقرى، كانت منشأ فطاحل من العلماء، قدموا للأمة ما هي في حاجة إلى مثله اليوم.

وفي الجهة الغربية من هذه المنطقة تقع مدينة "أشفي" على منبسط فسيح فوق الجبل الشامخ، قريباً من حافته.

وإلى هذه المدينة لجأ العلامة طاهر بن يوسف، وقصة هذا الشيخ في الواقع إحدى المآسي التي تنتج عن عهود البغي والظلم والعدوان، واستحلال ولاية الأمور لما صانه الإسلام من أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم.

نشأ طاهر بن يوسف في وطنه "ساحل المهدية"، في أسرة مؤمنة أنعم الله عليها بالكفاف من الرزق، وكان يلي أمر البلاد التونسية حينئذ الطاغية المعز بن باديس، وزار المهدية، وجمع الناس، وصار يفرض عليهم الضرائب الباهظة دون رجوع إلى حكم الإسلام، ولا تقدير لما يملك الناس من أموال، فكان يدعو الرجل فيفرض عليه مبلغاً من المال فإذا بادر الرجل إلى شكر السلطان سكنت عنه وأخذ منه ما فرض عليه، وإذا لم يبادر إلى شكره ضاعف عليه وهكذا، ودعا أعوان السلطان الشيخ فيمن دعوا من الناس فقراً الكاتب ما يلي :

على طاهر بن يوسف سبعون قفيزاً من الزيت، فسكت الشيخ، وأمر السلطان الكاتب أن يعيد القراءة، فبقى الشيخ ساكناً، فغضب المعز وأخذ الكشف من الكاتب وقرأ : على طاهر بن يوسف سبعمائة قفيزاً من الزيت، ولكن الشيخ بقي مطرقاً ساكناً لا ينبس بكلمة، فكاد السلطان ينفجر من الغضب، وقام

يفكر في وسيلة للانتقام تذل هذا الرجل الصموت الوقور.

أما الشيخ فقد حسب جميع ثروته الصغيرة فوجدها لا تفي بهذا المبلغ. وكان قد سئم من هذا الجور الذي لا يقف عند حد. فجمع ما خف لديه من مال وركب البحر هو وزوجه الخلسة، وكان ذلك المال القليل مع ما عندها من الحلى قد جعلتها في صرة واحتفظت بها.

ولما كان المركب ببعض الطريق أرادت أن تغسل يديها فسقطت الصرة في البحر واستراح ابن يوسف من المال. وهكذا هاجرت هذه الاسرة الكريمة من ساحل المهدية إلى طرابلس، ثم إلى جبل نفوسة، وليس لديها من حطام الدنيا إلا ثياب مهلهلة على ظهور أفرادها، وقصد الشيخ جبل نفوسة معقل الأحرار حينئذ. ونزل أول ما نزل في "تاغمة" إحدى ضواحي "يفرن" المدينة البيضاء كما كانت تسمى في التاريخ القديم وتسابق الناس إليه يجمعون له الأموال ويقدمونه له المساعدات، ولكن الشيخ طلب إلى الناس أن يمسكوا أموالهم. ويحتفظوا بها لأنفسهم حتى يزور بقية الجبل. ويرى بقية إخوانه من العلماء الأعلام، ثم يختار لنفسه بلداً يسكنه.

وهكذا بدأ رحلته في الجبل، واجتمع بأقطاب العلم والدين، يأخذ منهم ويأخذون منه وأخيراً، اختار مدينة أشفى، فاتخذها وطناً، وقرر الإقامة بها، وحينما استقر بأشفى ذهب العلامة عيسى بن محرز، وكان في تاردية إلى مسجد أمسراتن الذي يشبه أن يكون دار ندوة يحضرها كل علماء نفوسة فصلى

صلاة الصبح، ثم أخبر الناس باستقرار الشيخ طاهر بن يوسف في أشفى، وجمع الناس له في ذلك المقام ستة وخمسين ديناراً وبعث إليه علماء جنانون أربعين قفيزاً من الزيت، وبعث إليه إخوانه في شروس أربعين ديناراً؛ وبهذه الثروة المتواضعة استطاع ذلك العلامة الكبير أن يعيش في أشفى عيشة المؤمنين وهو آمن على حريته ...

إلى الشرق من أشفى تقع مدينة كبيرة أخرى هي "تاردية" وقد جثمت على منبسط من الأرض فوق جبل شامخ ترنو منه إلى "قصرالحاج" القرية الصغيرة عند السفح، كما يرنو العملاق الطويل إلى قزم يلعب بين قدميه. وفي هذه المدينة يقوم مسجد أبي يحيى، بمئذنته الضاربة في الهواء، كالمنارة الحدياء، مائلة قليلاً إلى الغرب كأنها تنحني لتهمس في أذن صومعة أبي زيد تشكو إليها أحداث الزمان وتغير التاريخ، وإعراض الناس عن دين الله وعمارة المساجد والقيام بأمر الله ...

وإلى المشرق من هذه المدينة لمسافة ليست طويلة تقع مدينة "سنتوت" متكئة على صدر هضبة ترنو إلى الشمال في غير مبالاة.

وفي هذه المدينة المسترخية اليوم، نشأ أبو الشعثاء السنتوتي : قمة شامخة من قمم العلم، وعلماء من أعلام الفضل، دأب على التدريس. وهذا خلق طبع عليه جميع رجال العلم في ذلك الحين، على أن الذي أمتاز به أبو الشعثاء إنما هو عنايته بتعليم الفتاة. فقد كان يخصص لهن دروساً فكن يتلقين عنه العلم

ويستمع منه إلى النصيحة، ولم يكن مجلسه يقتصر على الفتيات من "سنتوت" بلده، أو القرى والمدن القريبة منه فقط. وإنما كان يحضر إليه الفتيات الذكيات الراغبات في العلم من الأمكنة البعيدة التي يقطعن فيها المسافات الطويلة حبا في الثقافة، ورغبة في توسيع المدارك، حتى لقد حُضر إليه الفتيات من "تدينْت". وإذا كان هذا إقبال المرأة عليه، واهتمامه بأمرها، فإن إقبال الرجال عليه أعظم. ورسالته فيهم أوسع. وعمله بينهم أكثر إثماراً، وأوسع إنتاجاً، وأعود بالفائدة...

وحياة أبي الشعثاء حافلة بالعلم والتعليم، والقيام لله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والفهم الصحيح لدين الله.

كانت أم الخطاب امرأة صالحة، رغب فيها أخو زوجها السابق، فجاء يخطبها فرفضته، فألح، فأقسمت بعنق رقيقها أن لا تتزوجه، وأكثر عليها الناس فيه القول واللوم، وألحوا في النصيحة حتى لانت واستجابت، وراجعت نفسها وفكرت في قسمها، فقال لها أولئك الذين يحتالون على الدين، ويلتمسون الفتوى من الطرق الملتوية، ولا يهتمهم أن يحللوا ما حرم الله، قالو لها: لو وهبت مالكك لأحد الناس ثم تزوجت فردهم عليك أو رد بعضهم لجاز لك ذلك، ولكنها لم تطمئن، فذهبت إلى أبي الشعثاء تسأله عن موضوعها وتخبره عن فتوى الناس، فقال لها في استنكار وتأنيب: أتخادعين من خلق الخداع - يا أم الخطاب ؟ ...

فرجعت مسرعة إلى دارها، فوجدت الإمام ينسجن فقالت لهن: إنكن معتقات، فقمي ولم تزد واحدة منهن خيطاً فرحاً

بالحرية، وكن ثلاث عشر جارية وعلى مسافة قريبة من سنتوت إلى الشرق تقع مدينة "إشارن" بلد أبي اسحاق العالم الزاهد الذي كان لا يفتأ يقول لأهل بلده: اضمنوا لي أربعاً أضمن لكم أربعاً.

الأذان، والصلاة، وتعليم الخط، وحفظ القرآن الكريم. يسلم مسافركم، وَيَنْمُو رزقكم، وتطفأ نار الحرب عنكم، ويرتفع القحط: فإذا جاء إلى المسجد ولم يجد أحداً غضب لله وشدد الإنكار، واسمعهم قوارع التأنيب وربما قال لهم يا أهل: إشارن صرتم إشارن "60.

كانت أرض بني زمور المنبسطة المعتدة ما بين وادي الآخر والأراضي التابعة لجادو متصلة العمران، كثيرة القرى، يعمرها العلم والعمل الصالح، وكانت ترتفع في وسط هذه الأراضي العامرة مدينة "ميرى" على عدد من الهضاب المشرفة على المنطقة، وعلى قمة عالية من إحدى هذه الهضاب لا يزال يجثم مسجد الإمام العظيم عبد الوهاب بن عبد الرحمن كما يجثم الصقر على صخرة ضاربة في الهواء، ينظر إلى ما تحته من حشرات وخفافيش في احتقار وازدراء.

مكث عبد الوهاب بن رستم سبع سنوات كاملة في هذه المدينة، فكانت بذلك عاصمة للإمامة فيما بين سرت والمغرب الأقصى وكان يرجع إليها الولاة من سرت وودان وزويلة وفزان، كما يرجعون إليها من تونس والجزائر.

واتسعت المدينة العظيمة للإمام العظيم فكانت حلقة

اتصال بين الشرق والغرب والجنوب. واليوم وقد غدا الزمان على المدينة وأصبحت خرائب وأطلالا لم يبق منها إلا ذلك المسجد. يروي للتاريخ عبر الماضين ولا يزال إلى اليوم حرما آمنا يضع فيه أبناء الرجبان اليوم زرعهم وزيتونهم فلا تمسه يد، ولا يعتدى عليه معتد. كأنما لا يزال أمير المؤمنين عبد الوهاب يقيم فيه حدود الله. فيقطع أيدي السارقين. وينزل حكم الله على الخائنين...

وإلى الجنوب من مبرى بنحو ميلين تنبسط "أذرف" التي تقع على مشارف غابة الزيتون.. فإلى شمالها الشجرة المباركة، وإلى جنوبها تمتد سهول مزارع القمح والشعير...

وقد أختب هذه المدينة أعلاماً قل أن يجود بهم الزمان. وفيها نشأ عدد من العظام الذين اختبروا حكم جبل نفوسة. ومن بينهم أبو داود الذي أستقل بحكمها فقبل عنه: إن نفوسة لم ترمثل أيام أبي داود.

أقيمت حدود الله. وصد عدوان المعتدين. فانتشر الأمن وعم الرخاء. واستقرت الحياة بالناس. فكان عصره عصر خير وبركة.

على الضفة الشرقية لوادي الآخرة تمتد أراضى "تاغرمين" الفسيحة الخصبة. وقد كانت تلك الأراضى الفسيحة عامرة بالمدن والقرى. أهلة بالسكان ما بين حافة الجبل ومطكوداسن. على حوافي الجبل يظلك شجر الزيتون الضخم. وعندما تبتعد عنها إلى الجنوب تمتد أمامك مغارس شجر التين. فإذا تجاوزتها انبسطت أمامك مزارع القمح والشعير تلك المزارع التي لا يصل إلى مداها البصر. ولا تحدها رؤية العين. تبدأ ضيقة في رؤوس

الهضاب. ثم تنفسح تدريجياً. فإذا نزلت الأمطار انسكب عليها الماء من المرتفعات فأرواها وانعشها.

و "تاغرمين" هذه التي أصبحت اليوم تسمى "الزنتان" كانت مقر علم وفضل ودين. ومنبت رجولة وبطولة وأخلاق.

وفيها نشأ عدد غير قليل من فطاحل العلماء. مثل أبي يعقوب. الذي حكم جبل نفوسة. فكان من خيرة الحكام اتباعاً للحق، ورجوعاً إلى دين الله في كل صغير وكبير. وتواضعاً للمؤمنين. قال فيه أبو العباس: "أناه رجل بنميمة فقال: فلان لا يقول هذا: بل هو منك. فقطع عن نفسه النائم 61".

أما أبو محمد عبدة بن زارور فقد كان في المرتبة السامقة من العلم والورع والاستقامة.

جلس يوماً إلى المشائخ يتحدث عن نفسه ويراجع حسابه مع ربه فقال: عملت ثلاثاً يشبهن الفضول: أعطيت حمارة فارها أركب عليه من مكان إلى مكان فأعجبني سيره فقلت: ما أحسن سير هذا الحمار فقال الرفاق إنه لليتيم الفلاني.

وحين عرف أبو محمد أن الحمار لیتيم نزل وأتم الرحلة على رجليه. ولو لا الفضول لبقى راكباً دون أن يجد في نفسه شيئاً.

ومر على بستان تين فدعاه صاحبه إلى الأكل ودخل العالم الورع فأعجب بنضارة التين وطيبه فقال: ما أحسن هذا التين. فقال له صاحب البستان عندما سالت الأمطار انكسرت إليه تلك الساقية. وأشار إلى ساقية جلب الماء إلى بستان ثان. فقال أبو محمد: ولئن الساقية؟ فقال صاحب البستان: إنها لليتيم

الفلاني. وكان هذا كافياً في حرمان أبي محمد من هذا التين الطيب. ولو لا الفضول والسؤال لأكل أبو محمد دون أن يعلق به إثم.

ومرت به أمة نشيطة خفيفة جميلة فسلمت عليه فرد السلام وقال لها: ما أحسنك إن عرفت توحيدك، فتعلقت به وطلبت إليه أن يعلمها توحيدها. واضطر أبو محمد أن يلقي درساً طويلاً مسهباً في التوحيد لهذه الأمة المسلمة ليعلمها أمور دينها. ولو لا الفضول لما اضطر إلى هذا العناء.

قال أبو محمد : وعملت ثلاثاً يشبهن الكذب :

كان يسير مع رفاق له فأبصر ذئباً فقال للرفاق : ألا ترون ذلك الذئب. وهو لا يعرف إن كان ذكراً أو أنثى. وخرجت سيدة البيت لشأن من الشؤون تاركة طفلها الصغير. فأخذ الطفل يبكي فكان أبو محمد يقول للطفل هذه أمك مقبلة ولم تكن كذلك. فكان أبو محمد يرى من نفسه أنه كذب على الطفل البريء..

ونفرت بغلته فأخذ مخلدة فارغة يدفعها أمام البغلة النافرة حتى رجعت إليه. أليس هذا خداعاً للحيوان الغافل ...

لقد ارتكب أبو محمد هذه الجرائم : وكان لا يفتأ يذكرها ويستغفر الله منها. ويحاسب نفسه عليها. فما رأى القراء الكرام في رجل هذه أعظم ذنوبه وأكبر أخطائه ...

ولعل الكاتب الذي ينقل عبرة التاريخ وجمال الذكر لا يستطيع أن يمر على " تاغرمين " دون أن يذكر قصة المراتين الصالحتين : أم جلددين وأم زعرور أما أم زعرور ففتاة درست على

أم يحيى. وتزوجت أبا محمد التغميني. ورحلت معه إلى بلده. فكانت له نعم الزوجة. والقارئ الكريم يقع على أخبارها في أثناء هذا الكتاب : إما أم جلددين : فامرأة صالحة نشأت " بيفرن " وتزوجت هناك إلا أنها لم ترزق أولاداً. وفي آخر أيامها كانت تدعو الله أن لا يرفعها إليه حتى ترى زيتون " تاغرين " وتلتقى بأم زعرور ثم تتوفي ويصلى عليها أبو محمد. وفي إحدى السنوات نزل المطر الباكر على أراضي تاغرمين. وتأخر عن يفرن. فرأى أهالي تلك المنطقة أن ينتجعوا الكلاً في منازل الغيث. وارحل زوج أم جلددين فيمن ارحل إلى أراضي تاغرمين. وذهبت فتاتان من الحي إلى الزنتان لشأن من الشؤون. فسأقتهما الصدفة إلى بيت أم زعرور. فكن يلاحظنها وتهمس إحداهن للأخرى قائلة : هذه العجوز تشبه جدتنا. ويقصدن " بجدتنا " أم جلددين. فهذا هو اللقب الذي يطلقه عليها الناس. وسمعت أم زعرور ما تنهاس به الفتاتان. فسألتها عن جدتها : فأخبرتها. فذهبت معهما لزيارتها والتقت المرأة الصالحة بالمرأة الصالحة. وتواصتا بما فيه الخير. ثم قالت أم زعرور لأم جلددين : ادعي لنا فقالت أم جلددين : لقد سألت ربي كثيراً وإنني استحي أن أزيد. فدعت أم زعرور ورجعت إلى منزلها فأخبرت أبا محمد. فذهب هو الآخر ليزور العجوز الصالحة. ولكنه وجدها قد توفيت فصلى عليها. ورجع ينقل الخبر إلى صديقتها الوفية. وهكذا تحققت مطالب أم جلددين : فرأت زيتون تاغرمين. واجتمعت بأم زعرور وصلى عليها أبو محمد

وفي تاغرمين مصلى أم الخطاب الذي كان محل اجتماع

لأعظم الأمة، وحسبك أن يكون مقصداً لأبي مرداس وأضرابه.
أما مصلى أم جليدين، فلا يزال معروفاً إلى اليوم في يفرن.
لقد كانت تاغرمين في المرتبة التي لا تداني من كثرة العمران،
ووفرة السكان، وخصب الأرض، وانتشار العلم والصلاح، وتزايد
الأبطال، أبطال العلم وأبطال الكفاح.

وادي الرومية

وادي يتجه من الجنوب إلى الشمال كما يتجه جميع أودية
الجبل، وينحدر انحداراً تدريجياً خفيفاً حتى يصل إلى قطاع من
الجبل، فيكون شلالاً عظيماً ربما كان أعلى شلال في جبل نفوسة،
والمنطقة التي فوق الشلال تكون روضة مستطيلة قليلة
النظائر، تشترك فيها الأشجار المختلفة من مثمرة وغير مثمرة
وتسيل خلالها المياه الدائمة، وتنبع في كل جهة من جهاتها
عيون وآبار تجعل منها منطقة خصبة دائمة الخضرة، وأعظم
هذه العيون وأعذبها ماء هي عيون الرومية.

وقد سحب قسم من مائها في أنابيب إلى مدينة يفرن على
مسافة ستة أميال تقريباً، ومنها تروى هذه المدينة العظيمة.

أما المنطقة التي تحت الشلال فتكون غابة جميلة من
الزيتون والنخيل تختبئ في أحضان الجبل العظيم، وبين تلك
الأشجار الباسقة في حضن الجبل الدافئ وحول مصب الشلال
العالي تنام قرية أولاد عطية في هدوء واطمئنان.

إلى غرب هذا الوادي الخصيب الجميل تمتد أراضي خصبة تكون

مزارع للقمح والشعير تارة، وتكون أجنة وبساتين شجر التين تارة
أخرى، فإذا اقتربت من حافة الجبل كونت غابة فسيحة خضراء
من شجر الزيتون، حتى تصل إلى جبل "شماخ" الذي يرتفع في
شموخ بين الربي والمرتفعات.

وتاريخ هذا الجبل كان يمر كتاريخ بقية الجبال والمرتفعات
في حياة الطبيعة لو لم ينشأ عليه آل شماخ الأماجد، ورغم
أن هؤلاء الرجال العظام انتقلوا في سكناتهم من شماخ إلى
يفرن إلى أنهم بتاريخهم الحافل، وأعمالهم الحيدة، رفعوا من
شماخ ويفرن على السواء، ويندرجاً أن تجد بلداً أمد الإسلام
برجال تسلسلوا في أزمنة طويلة من التاريخ وهم يحملون أعباء
الرسالة المقدسة في حرص وأمانة، كما فعل آل شماخ، وآل
الباروني، وآل أبي منصور إلياس.

ولو كان للبقاع أن تفتخر، لحق لشماخ وتندميرة وتملوشايت
أن ترتفع بين الربي والهوهاد.

وليس معنى هذا أن بقية البقاع لم تقدم من الرجال مثل
هؤلاء: إني لو قلت مثل هذا لوقفت كثير من البقاع محتجة،
ولصرخت في وجهي أدرف، وجادو، وتوكيت، وأرجان، وجناون، وونزيرف،
وويغو، وكباو، وفرسطاء، وتمصمص، ولالوت، وعشترات غيرها، ترد
على هذا القول وتبطل هذا الزعم، ولكن الفرق بين تلك القرى
الثلاثة التي أجببت عمالقة عظاماً وغيرها من القرى، أنها لم
تحتفظ بهم لنفسها، وإنما أثرت بهم غيرها من المدن والقرى.

إن جد الأسرة البارونية أبا هارون موسى ما أسند إليه حكم

الجيل حتى هجر تملوشايت التي أجنبته، وجعل مركز حكمه في " أيبانين " ثم أنتقل أبناؤه من أيبانين بعده إلى كل مكان، وعلموا كل بلد إلا تملوشايت مدينتهم الأولى.

وكما فعل آل الباروني فعل أبناء أبي منصور، فما أسند الحكم إلى أبي منصور حتى انتقل إلى جادو، وقد عمر أبناؤه من بعد كل القرى والمدن إلا تدميرة مدينتهم التي أنشأت أبا منصور.

وعلى هذا المنوال سار آل شماخ، فقد انتقلوا إلى يفرن، واستفاد من علمهم وخلقهم ودينهم كل مكان في الجبل، ولكن جبل شماخ لم يعد مأوى لهم.

إن هذه المدن الثلاثة تملوشايت وتدميرة وشماخ أجنبت أبر الأولاد، ولكنها أثرت بهم غيرها، وتسلسلوا في بلدانهم الجديدة، ولكن أعمالهم كانت للأمة جمعاء، إن المدن الأخرى التي أجنبت عظماء مثل هؤلاء أو أكثر أو أقل احتفظت بأبنائها، وإن كانت أعمالهم للجميع.

وكأن أسرة شماخي لم تتكون في هذا الجيل إلا لتدخله في حساب التاريخ دون آلاف من الربا والوهاد في مختلف البلاد.

وعلى الجهة الشرقية لهذا الوادي تقع مدن كثيرة متناثرة بين هضاب قليلة الارتفاع، ووهاد قليلة الانخفاض، ذات تربة خصبة، تزدان بحدائق غناء من أشجار الفواكه المختلفة.

تلك المدن المتناثرة تتقارب في بعض الجهات حتى تصبح مدينة واحدة، وتتباع في جهات أخرى حتى تصبح ضواحي لتلك المدينة، ويطلق عليها اليوم اسم يفرن، وهو اسم القبيلة

البربرية التي سكنتها في بعض أدوار التاريخ، أما الأسم التاريخي لهذه المدينة قبل الإسلام، فهو البيضاء، واستعمل الاسم الأخير حتى في بعض الصور الإسلامية، وذكرها به بعض الكتاب، ومن المفارقات: أن هذا الاسم كان يطلق على طرابلس أيضاً، فيسميها بعض الرحالين بالمدينة البيضاء، قال التيجاني: " ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء ".

وتاريخ يفرن الإسلامي حافل بالمجد والعظمة، وقد بقيت مدة غير قليلة مركز إشعاع، ومنذ القرن الثامن تقريبا حملت رسالة العلم والتعليم في الجنوب الليبي، وكان لها فضل عظيم في نشر الثقافة الإسلامية ورعايتها، والدعوة إليها إلى زمن الاحتلال الإيطالي وحتى في عصور الانحطاط أيام حكم الدولة العثمانية على البلاد بقيت يفرن في مقدمة البلاد التي حافظت على التراث الإسلامي الصافي محافظة لا تساهل فيها ولا تفريط.

وقد كانت زاوية البخاخة مقصداً لطلاب العلم، ومأوى لعشاق الثقافة يقصدها نجباء الطلاب من كل مكان تقوم برسالة التعليم المقدسة باستمرار، مرة بقوة ونشاط ومرة بضعف وفتور، حتى جاءها في أواخر العصر التركي الإمام العلامة عبدالله ابن يحيى الباروني، فجدد بناءها، وجدد أسلوب التدريس فيها، فاقبست طريقة التعليم والإصلاح الاجتماعي، ومكافحة الأمراض التي بدت تسري في كيان الأمة من دين الله، ومن

سيرة السلف الصالحين الذين سبقوه في هذا الميدان، فكان لمجهوده العظيم أعظم الأثر لا يقل عما تركه أبو موسى عيسى الطرميسي وأبو ساكن عامر بن علي الشماخي.

أما المدرسة التي أسسها أبو ساكن عامر الشماخي فقد بقيت هي الأخرى تؤدي رسالتها، تارة في التعليم المنهجي والإصلاح الاجتماعي، وتارة تقتصر على الإصلاح الاجتماعي، وكان في أغلب الأحيان يعمر هذه المدرسة بعض أبناء هذه الأسرة الكريمة التي لم ينقطع منها الفضل والشرف والعلم..

وقد نشأ في يفرن عدد غير قليل من العلماء أمثال عبدالسلام بن صالح، وعمروس اليفرنى، وأبي يحيى زكرياء بن عبدالرحمن؛ وكان من العمالقة الذين أجبته يفرن في أواخر العصر التركي، العلامة فاسم بن سعيد الشماخي، نزيل مصر. وقد كون هذا العلامة إلى جنبه الأديب الصحفي المصري مصطفى بن إسماعيل، وكان الرجلان يكونان ثنائيا مندفعاً في كفاح الأباطيل والخرافات والبدع بقوة وعزم، وحينما ثار الجامدون في وجه الإمام محمد عبده، كان هذا الثنائي من أعظم الأنصار الذين وقفوا في وجه الجمود يردون كيد الخصوم، ويحاربون منطق التخلف الذي يمل به في أغلب الأحيان حسد، مبعثه القصور والعجز، فكانت لهما مقالات رنانة متأزرة في الصحف، وكتب متأخية في نصرة الحق، أما المحاضرات والمناقشات التي كانا يقومان بها في النوادي والمجتمعات، فقد سمعنا عنها، ولم يصلنا منها شيء، أما والده سعيد الشماخي الذي كان يحتل مكاناً مرموقاً في الأوساط العلمية فيكفي للدلالة على

مكانته أن الحكومة التونسية قد اختارته وكيلاً لها على شؤونها في مصر، على ما لتونس من الرجال في ذلك الحين

تآزر جهود

الفرد والجماعة والدولة

في الفصول السابقة عرضت إلى الحديث عن عدد من العلماء الليبيين الذين نشأوا في أجزاء من ليبيا، ودرسوا في أجزاء من ليبيا، وقاموا بالتدريس والإصلاح في أجزاء من ليبيا، ولو كنت من دعاة القوميات لحسبت ذلك شرفاً لهذا الوطن الكريم، أو لهذا الشعب النبيل، ولكني لا أؤمن إلا بالأمّة الإسلامية الكبرى، التي تذوب فيها الشعوب والقوميات والأجناس.

ولا أحب إلا الوطن الإسلامي الكبير دون حدود أو تقسيم، ذلك الوطن الذي يجمع أولئك الناس الذين يؤمنون بالله رباً ومحمد رسولاً وبالقرآن كتاباً، وبالإسلام ديناً [ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه] وأن أي عمل مجيد يقوم به فرد أو طائفة في أنحاء هذه المملكة الإسلامية الواسعة إن هو إلا من أمجاد الأمّة جمعاء ومن مآثر الإسلام على البشرية.

وأن أي انتكاسة تصيب جزءاً من أطراف هذه المملكة الواسعة، إن هو إلا انحراف عن سبيل الله أو بسبب الانحراف عن سبيل الله.

حدثت عن هؤلاء العلماء كمثال للكفاح الإسلامي في

واجهه دقيقة وميدان شديد الخطر، لأنه يتصل بالفكر والعقل، ولست أقصد بالأسماء التي ذكرتها سواء كانت أسماء رجال، أو أسماء أمكنة أن أحصر الكفاح في أولئك الأشخاص أو في تلك الأمكنة، فإن هذا لا يجري في خاطري، وإنما ذكرت هؤلاء كمثال لعشرات مثلهم أو خير منهم، نشأوا وعاشوا في هذا الجانب من الوطن، وقاموا بمثل هذا الكفاح الطويل المقدس في سبيل الله.

وكمثال لآلاف من العلماء المخلصين الذين ينبثون في كل ركن، وكل زاوية وكل جهة من الوطن الإسلامي الكبير، يكافحون هذا الكفاح الدائب المخلص، إيماناً برسالة الله، واحتساباً لله، وحفاظاً على التراث المجيد الذي خلفه المهتدون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الأمّة الإسلامية، ورجال الأمّة الإسلامية، لم يعتمدوا قط على الدول في بناء المشاريع العظيمة منذ انحرفت تلك الدول عن النظام الإسلامي في الحكم، سواء كان هذا الانحراف بعيداً وقريباً، والأعمال الخالدة، والمشاريع الضخمة، والكفاح الدائب المستمر، إنما كان يقوم كل ذلك على كواهل أفراد أو جماعات من الأمّة، لا يسندهم الحكم، ولا يقدم لهم يد المساعدة إلا حينما يجد في ذلك دعاية له، أو تأييداً لحكمه، أو جلباً لأنصار جدد يتأيد بهم سلطانه، ويقوى نفوذه.

وحينما كان العاملون في الأمم الأخرى تغدق عليهم الأموال، وتفتح لهم الأبواب، وتحشر أمامهم الإمكانيات، كان رجال الإسلام يقومون وسط الدول المنحرفة بأعمالهم إما منفردين

أو مؤيدين بأهل الفضل والإحسان من أبناء الأمة. ومع ذلك فقد استطاع أولئك الأبطال أن يقدموا للبشرية ما لم يقدمه غيرهم. وذلك لأنهم بنور الله يبصرون، وبروحه يعملون. إنهم يعملون في ضوء الإسلام الذي أنار آفاق الحياة للإنسان.

ارجع إلى معاهد العلم في الوطن الإسلامي الفسيح، وإلى الدراسات التي قام بها جبابرة العقل وإلى الرحلات الطويلة التي اكتشف فيها المسلمون كثيراً من مجاهيل الأرض ارجع إلى ذلك وإلى أكثر من ذلك فإنك سوف تجده قد قام على كواهل أفراد أو جماعات. وكثيراً ما تجيء الدول فتحتضن مشرعاً من تلك المشاريع بعد أن يثبت ويستقر. وأكثر المعاهد العلمية إنما كانت على هذا النمط بناها أصحاب الخير والفضل أفراداً أو جماعات. وأوقفوا عليها أوقافاً تدر عليها ما يكفيها من النفقات. وبعد أن يقوم هذا العمل ويؤدي رسالته كأحسن ما تؤدي الرسالات تأتي الدول فتدخل العهد تحت نفوذها ثم تسحب أوقافه إلى ميزانيتها وتنفق عليه من بعد في حرص وتفتير. وتزعم للعالم وللناس أنها تشجع العلم وترعى معاهده.

إن الذي أريد أن أقوله في هذا الصدد أن حركة الإصلاح بأوسع ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى لم تتوقف يوماً واحداً في الأمة الإسلامية. وعندما كانت الدول تنحرف عن صراط الله، أو تعجز عن القيام بمهامها، أو تشتغل بأمور أخرى بعيدة عن واجباتها، أو تستخذي لسلطان دولة أخرى فإن ديب الحياة في الأمة يستمر. ورسالة الإصلاح لا تتوقف، والمؤمنون المخلصون يدأبون على معاهاذوا الله عليه من جهاد في سبيله وذود عن

رسالته وقيام بأمره.

ولست أعني بهذا الحديث أن الدول المتعاقبة في تاريخ الإسلام لم تقدم للبشرية مثل ما قدمت الدول الأخرى أو أكثر أو أقل فإن كثيراً من المشاريع الضخمة قامت بها دول يدين القائمون عليها بالإسلام ولكنني أعني أن الجهود الشعبية للمسلمين كان أكثر أثراً وأعظم إنتاجاً وأدوم حركة.

وهذا الكفاح الفردي أو الكفاح الشعبي لا يعفي الدولة من المسؤولية ولا يجعلها في معزل عن الإصلاح في شتى ميادينها ولا يبعد بينها وبين الأمة. لأن الدولة في الإسلام هي التعبير العملي عن فكرة الأمة. بشرط أن تكون هذه الفكرة متمشية على هدى من الدين القويم.

وعندما تكن الدولة ملتزمة لنظم الاسلام، عاملة بشرائعه، مستوحية منه الهداية. فإن الغايات من الكفاح الفردي والشعبي والدولي أو الحكومي تكون واحدة. ويكون الوصول إليها سهلاً ميسوراً. لأن الإسلام كما لم يثغف الدولة من الإصلاح، كذلك لم يعف الفرد ولم يعف الجماعة.

فإذا تآزرت هذه القوى - قوة الفرد وقوة الجماعة، وقوة الدولة - التي هي العناصر المكونة للأمة، إذا تآزرت هذه القوى كان ذلك اندفاعاً محموداً في تحقيق الرسالة التي تسعى إليها الإنسانية في نور الشرائع السماوية.

ولن تفترق هذه الجهود في دولة إسلامية عاملة بكتاب الله محافظة على دينه. فإذا وجدت أن أعمالاً عظيمة ومشاريع

ضخمة تقوم على مجهود فردي أو مجهود شعبي دون أن تعني بذلك الدولة فإنها حينئذ تكون منحرفة عن سبيل الله.

أما الفرد أو الجماعة من الأمة فإنها لا تستطيع الانحراف في دولة إسلامية وهذا يعني أنه إذا وجد انحراف سواء كان هذا الانحراف عن دين الله من فرد أو جماعة. فإن الدولة أيضا لم تقم بأمر الله ولم تسر على الإسلام.

وإذا كان لا يحل للفرد العادي المسلم أن يسكت عن المنكر يقوى على تغييره فكيف يقع المنكر من فرد أو جماعة ترعاهم دولة مسلمة، وتتولى تنفيذ أحكام الله فيهم.

إن الدولة لا تكون إسلامية إلا إذا كانت جميع الطاقات والقوى فيها - سواء كانت هذه الطاقات فردية أو جماعية - موجهة إلى خير الإنسانية، سائرة في النهج القويم الذي دعا إليه كتاب الله، وأوضحته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار فيه المهتدون من سلف هذه الأمة ...

المرأة الإباضية في ليبيا

كان موقف المرأة الإباضية في ليبيا هو موقف المرأة المسلمة المؤمنة من الأسرة والمجتمع والأمة، لا يقعد بها ظلام الجهل عن مكانها، ولا يطفئ بها الغرور العلمي عن مكانها. فهي عماد الأسرة في التربية والتوجيه، وهي عماد الأمة في النصيحة لله ولرسوله، وهي ظهيرة الرجل في كفاحه من أجل دينه ومن أجل وطنه، تثبت في الصف الثاني دائما لتكون رداءً للرجل ومرجعاً له، إن استشارها نصحته، وإن رجع إليها من عنت العمل ومشاق الكفاح، غمرته بالحب والحنان، ووطأت له كنف المنزل فوجد الراحة لنفسه، ووجد الراحة لبدنه، ووجد الراحة لقلبه، تقوم على شؤون البيت قيام العارفة، وتتصرف في مال الزوج تصرف المخلصة الأمينة.

وتتلقى عن الأب والأم أسس السلوك الذي يحمدها عليه عشراؤها طول الحياة، هذه الصورة هي الإطار العام لحياة المرأة الإباضية على العموم، أما الصورة التفصيلية لأحاديثها فهي أروع وأجمل.

فَهَمَّت قواعد المذهب الإباضي الذي لا يجيز التقليد في الدين، وفهمت قواعد المذهب الإباضي الذي يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفهمت قواعد المذهب الإباضي في

وجوب الولاية والبراءة الشخصيتين.

وحملتها القاعدة الأولى على أن تدرس، وتحضر مجالس العلم، وتشترك في النقاش الحاد لتأخذ دينها عن فهم واقتناع لا عن محاكاة وتقليد.

وحملتها القاعدة الثانية أن تعرف كل شيء في مجتمعها، وتطلع عما يجري حولها، وتزن أعمال الناس وأخلاقهم حتى تستطيع أن تصرخ في قوة لتستنكر المنكر، وتدعو في حرارة إلى المعروف.

وحملتها القاعدة الثالثة أن تنظر إلى سلوك الأفراد فتعلق محبتها ورضاها لمن يستحقون الولاء، وتعلن غضبها وبراءتها من أولئك الذين يتمردون عن الحق، ويجابهون الله بالمعصية، أو يخالفون عن سيرة المسلمين، فيطلق صوته من وراء الحجاب المسلم المصون يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويدعون إلى الإيمان بالله، ويندد بالعصاة والمنحرفين.

1 - فكم كان رائعاً حين انطلق صوت المرأة المسلمة 63 من قسم النساء في مسجد غاص بالمصلين يأمر الإمام بالتأخر لأنه ليس أهلاً لأن يصلى بالمسلمين، ويستجيب ذلك الإمام لصوت الحق الذي انطلق من فم امرأة في مسجد غاص بالرجال، فيتأخر ويتقدم من هو أولى.

وتقضي ظروف الحياة أن تلتقي هذه المرأة المؤمنة في مضيق من الطريق بهذا الرجل الذي أدته في الله، فتوجس في نفسها خيفة، وتخشى أن تلقى منه بعض ما تكره، ويحس الرجل بما

يعتمل في نفسها فيقول لها : امضى راشدة، لولاك لهلكنا. يسر الله لك سبل الجنة 64.

لقد خفت صوت المرأة بعد أمهات المؤمنين ومن تأدب بأدبهن في المساجد ومجامع الصلاح، وإن ارتفع في مجالس الغناء والشراب، وفي المراقص والملاعب، وفي الشوارع والمكاتب، ولكن هذا المجتمع الذي يعمل بقاعدة الولاية والبراءة ويرتفع فيه صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تزال فيه المرأة تحتفظ بأداب الإسلام، لا تغرها المظاهر الخادعة من الحياة الزائفة، ولا تزال المرأة تعمّر المسجد، وتشترك في مجالس العلم من وراء حجاب وتصدع بالحق ...

2 - رجع أبو يوسف حجاج بن فوتين إلى بيته بعد نقاش طويل حاد في المؤامرة التي يدبرها خلف بن السمع لقلب نظام الحكم، وتكوين دولة جديدة تحت حكمه، وكان أبو يوسف يميل إلى مؤازرة هذا الزعيم الجديد، فلما أراد الدخول إلى داره ووضع رجله داخل العتبة، صاحبت به زوجة المرأة المؤمنة التي تتمسك بالحق وتتبعه قائلة : إليك يا بائع دينه 65 وصدمت كلمة الحق سمع الرجل فوقف في مكانه لا يتقدم ولا يتأخر يوازن بين الموقفين، ويقارن بين المصيرين، وأطال الوقوف حتى تبين له الحق، وأدرك فداحة الجرم الذي كان مقدماً عليه، وعرف صدق النصيحة في هذه الزوجة الوفية التي تحبه وتحب له الخير ولنفسها ولأولادها : وللأمة من ورائهم، فأعلن إذعانه للحق، وتوبته إلى الله، ورجوعه إلى صفوف المسلمين، وحينئذ انفتح له القلب الكبير الذي أحبه وغمره بالعطف والحنان وهدهد بالنصيحة السديدة الخالصة.

إن المرأة في ذلك العصر لم تكن أقل من الرجل علما وفقها في الدين، ومعرفة بأسرار الشريعة واستمساكا بالحق.

3 - ارخل أبو معبد الجناوني إلى قنطرة " تيجي " والتحق بمدرسة سعيد بن أبي يونس الطمزي، ودرس حتى ظن أنه بلغ الغاية عن العالم الكبير، وقفل راجعا إلى مدينته جنان فمر في طريقه بقريّة " ندّباس " هذه القرية التي تقع على الضفة الغربية لوادي الزرقاء الجميل، والتي تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ كل صباح.

وتبعث بتحاياها الرقيقة إلى زميلتها " مزو " المراقبة لها على الضفة الشرقية من الوادي فوجد أمة تسقى الماء من صهريج خارج القرية، وكان قد بلغ منه الجهد والعطش، فاجّه إليها وطلب منها أن تسقيه، فنظرت إليه في استنكار، وقالت له: أستخدم أموال الناس يا جاهل؟⁶⁶

وصدمه الجواب العنيف ! أبعد كفاحه الطويل في طلب العلم تعيره أمة بالجهل ؟ ورجع إلى نفسه، وتاب إلى رشده، وأذعن للحق، وعرف أن دراسته نظرية بحتة، وأنه في حاجة إلى المزيد، ورجع من مكانه ذلك إلى المعهد الذي كان يدرس به، فأقام فيه وأطال الإقامة حتى أصبح علما بين العلماء، ومرجعاً للنباغ.

إنه فضل المرأة التي تعرف حدود الدين ومنتهاى الحقوق.

وشبيه بهذا الموقف موقف بهلوله مع أبان :

كانت بهلوله 67 امرأة عالمة صالحة وكان أبو ذر أبان بن وسيم

مثلها علما وصالحا، فكان يزورها يقتبس من علمها وخلقها، وتقتبس من علمه وخلقه، وأعجب بها فخطبها إلى وليها.

وجاءها يوما فرحا مستبشرا فاستأذن فأذنت له، وفتحت الباب وبادرها يخبرها أن خطبها من وليها، وأن الولي وافق وعقد العقد، فاغلقت في وجهه الباب ثم قالت له : كنت تدخل إلينا بأمانتك ففتحنا لك، والآن صرت مدعيا، فإن أتيت بينة رضينا بك زوجا، وإلا فانصرف، ثم قالت له إنك أمين ولكنك احتجت إلى الأمناء، ولو كنت أبانا.

واضطر العالم الشيخ الورع، أن يثبت دعواه بشهادة الشهود، وإقرار الولي حتى رضيت به بهلوله زوجا، وكانت له نعم الزوجة وكان لها نعم الزوج، فما عرف أن زوجين تشابها خلقا وعلما ودينا كما تشابه هذان الزوجان.

وقد دلت الحادثة السابقة أنها أملك منه لزام نفسها واكبح لعاطفتها، وأرسخ قدما في الوقوف عند حدود الشرع وتطبيقه، فلما استخفه الفرح بموافقة الولي على خطبته لها لم يجعل لشئ آخر حسابا، أما هي فقد طبقت عليه أحكام الشريعة السمحة تطبيق العالمة المؤمنة، التي تراعي الدقة والحق في الأحكام، فلم تعتمد على معرفتها الشخصية لأبان، ولم تستجب منه، وإنما رجعت في تلك القضية إلى حكم الله، ذلك لأنها كانت عالمة بحكم الله.

وإذا اجتمع العلم والإيمان في قلب إنسان - ذكراً كان أم أنثى - أكسبناه مناعة خلقية تسمو به عن العواطف والخطوط

الصغيرة للنفس البشرية، والتفكير المحدود المغلق المحصور في ذات مشبعة بالأنانية.

كان أبو عامر التصراوي رجل علم وعبادة، وكانت زوجته أمة الواحد 68 امرأة مؤمنة صالحة، يجمعها إلى زوجها حب وعطف وحنان، ويقارب بينهما اشتراك في الميول والعواطف والأعمال. وجاءت عجوز من "تندميرة" إلى "تصرار" تشكو إلى أبي عامر بنتها الشابة، قالت العجوز: لقد توفي زوجي منذ أمد طويل، وترك لي بنتا صغيرة سمينها "توزين" وحبست نفسي على هذه البنت فعلمتها وربيتها أحسن تربية، ولما بلغت سن الزواج تهافت عليها الشباب الأكفء يطلبون يدها، ولكنها رفضتهم جميعا دون سبب، وكلما راجعتها في ذلك أجابني بأنها لا تريد الزواج، لأنها تخشى حقوق الزوج، وتخاف مسؤولية الأسرة، وهذا الزمن يتقدم بي، وإنني لأخشى أن أتركها في يوم من الأيام دون رعاية أحد.

استمع الشيخ إلى شكاية العجوز وعطف على قضيتها ووعداها بأن يزورها مع جمع من المشائخ لعلهم يستطيعون اقناع البنت بما ترجوه أمها.

واجتمع الشيخ بعدد من العلماء وذهبوا إلى "تندميرة"، وقصدوا بيت العجوز ودعوا إليهم الصبية التي تمنعت عن الزواج، ولم يزالوا بها حتى لانت واقتنعت، ولكنها اشترطت عليهم شرطا واحداً معقولا، وهو أن تختار زوجها بنفسها.

فوافق المشائخ بالإجماع على هذا الشرط، لأنه حقها

الطبيعي الذي منحها إياه الشريعة السمحة، وكانوا ينتظرون أن تعلن إليهم اسم أحد أولئك الشباب الذين تقدموا لخطبتها، ولكن الفتاة أعلنت إليهم أنها اختارت أبا عامر التصراوي. هذا الشيخ العالم الزاهد المسن.

إنها لا تفكر بالشباب ولا بالقوة ولا بالمال، واستجاب المشائخ لها، كما استجاب لهم من قبل، ورجع أبو عامر إلى زوجته الحبيبة أمة الواحد بأسوأ خبر يمكن أن ينقله زوج إلى زوجته، ورجاها أن تستعد للقاء الزوجة الثانية، فتلقت الخبر بصبر المؤمنة وأعدت في منزل الشيخ ما يعد للعروس في أول زفاف، واستقبلتها استقبال أخت محبة، ولما أوى الشيخ إلى الزوجة الثانية ذكرت أمة الواحد أن العروسين ينقصهما شيء سهت عنه عندما أعدت لهما الغرفة، فناولتهما إياه من تحت الباب ورجعت إلى فراشها لتبيت فيه منفردة.

إن لهذه المرأة قلبا كما لسائر النساء، ولها عاطفة قوية جياشة، وهي تحب زوجها، ولكن لها مع ذلك دين يعصمها من النزق ويوقفها دون أن تتعدى حدود شرع الله وحقوق الناس وعاشت الزوجتان تحت كنف أبي عامر يرعاها بلطفه، ويغمرها بحبه، ويساوي بينهما بعدله، وذات يوم خرجت أمة الواحد إلى بعض البساتين تجمع حطباً، عندما همت بأخذ الحطب وسوس لها الشيطان فخطر لها أن الشيخ قد تغذى مع الزوجة الشابة وتركها لها لقمة باردة في ناحية من البيت، وعرفت أن هذا الخاطر من الشيطان فاستعاذت بالله ورمت حزمته إلى الأرض، ثم زادت فيها حطباً لترغم أنف الشيطان.

ورجعت إلى البيت، ودخلت الدار، فوجدت الزوجين قد تغديا وتركها لها نصيبها في إناء. فرجع إليها الخاطر من جديد وأحسست بالغيرة تدب في نفسها واصفر لونها.

وكان أبو عامر ينظر إليها في شوق وحنان، فلما رأى وجهها متغيراً عرف حديث النفس وقام إليها فامسك بطرف كمها وقال كمن يخاطب الشيطان : اخرج يا عدو الله من جسد طاهر.

وكان لهذه الكلمات الأثر المطلوب على نفس المرأة المؤمنة.

فقد خرج الشيطان من جسدها الطاهر، وزالت الغيرة من نفسها، ورجعت إليها الثقة في زوجها، وعاشت الأسرة المتكونة من إمرأتين ورجل في منزل يغمره الحب والتفاهم والتعاون.

ومع هذا الخلق السامي الذي تتحلى به أمة الواحد لم تسلم من نقد الزميلات، فقد أعلنت شيئاً مما حرص النساء على أخفائه، فبعثت إليها زينب اللالوتية تقول لها في استنكار وتأنيب : " لو أمكن لنا أن نستقر قبورنا بين القبور لفعلنا " فتأبّت أمة الواحد، واستمعت إلى النصيحة التي وردت إليها من أخت مؤمنة حُب لها الخير وحرص على سلامة دينها وسعادتها في آخرتها.

لقد كانت المرأة المسلمة في تلك العصور تقف إلى جانب الحق لا تتعدها وما دام الشارع الحكيم يوجب عليها أمراً من الأمور فهي تسمع له وتطيع غير ناظرة إلى إساءات الناس أو احسانهم.

أبو عثمان المزاني : عالم من كبار العلماء، ومؤمن من أصدق المؤمنين، كان يسكن قرية " دَجَّى " هذه القرية التي جثم على

صدر جبل شامخ إلى الشمال من " تنزغت " و " غفسوف " وكان لأبي عثمان بنتان أحسن تربيتهما وتعليمهما : الكبرى منهما تسمى " منزو " 68، وكانت قبيلته تسكن إلى الجنوب عند بئرها المعروف اليوم " بئر مزاته " فجاءه بعض أقربائه يخطب إليه منزو ولم يظن أبو عثمان بهذه الفتاة اللطيفة الأدبية الصالحة عن أجلاف البادية فاستجاب له، وماتم العقد حتى نهض الرجل ومربجانب البيت الذي فيه العروس. وقد كثر فيه لفظ النساء فصاح بصوته الغليظ الجافي قائلاً : إن كانت منزو بينكن فلا أذن لها أن تبقى.

وقامت الفتاة المؤمنة الصالحة اللطيفة قبل أن تستكمل زينتها وسارت وراء هذا الزوج الجافي الغليظ الطبع، وكان راكباً جملاً...

وسارت الفتاة، وطال بها المسير، حتى حفيت قدمها، وسالت منها الدماء، ولكنها مع ذلك لم تشك ولم تتبرم، فإذا نزل زوجها في مكان للمبيت أو للمقيل، بادرت فوسدت له رداءها، ووطأت له مجلسه، ثم عاجلت له طعاماً، فإذا قامت له بجمع شؤونه وقدمت له ما يحتاجه رجعت إلى نفسها وأدت حقوق ربه، ولم يزل هذا دأبه ودأبها حتى وصلا إلى وطنهما، فبنى لها بيتاً بعيداً على الناس، فكانت تشبه أن تكون سجيناً لا تزور ولا تزار ...

إنها لا ترى أحداً من خلق الله غير هذه الطلعة الكريهة الخافية، وكانت مع ذلك تبالغ في الإحسان وببالغ في الإساءة، وذكرها المشائخ بعد طول غياب، ذكرها العلامة أبو زكرياء يحي

بن يونس السدراتي، فدعا أباه وجماعة من المشايخ إلى زيارتها. وسار المشايخ يقطعون ألوية الرمال ليزوروا أختا في الله وشاءت المصادفة أن يصلوا إليها وهي تصلح بيتها من الخارج منفصلة⁶⁹. فكانت أول كلمة وجهها إليها أبو زكرياء هذه التحية: "إني لأختار أن أجد جنازتك خارجة، ولا أراك خارج بيتك متفضلة". واستتابها فسارعت إلى التوبة والاستغفار ولم تعتذر بأنها منفردة، وأنه لا يوجد في المنطقة غريب، وأنها تمر عليها الشهور ذوات العدد لا تسمع حساً ولا ترى شخصاً؛ لم تقل شيئاً عن ذلك ولم تشك ولم تتبرم. لقد كتب عليها أن تتزوج هذا الرجل وله عليها حقوق، فعليها أن تصبر وأن يؤدي ما عليها من حق غير ناظرة إلى صاحبها أبستحق هذا التكرم أم لا يستحقه، ومكث القوم ثلاثاً ثم قفلوا راجعين.

ولقد أثرت حالة منزو هذه على أبي عثمان، فكان يحس لها من الألم شيئاً كثيراً، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لها، واستفادت بنته الصغيرة "تكفا" من نفسية أبيها بعد قصة منزو. فكانت تلقى منه من العطف والتدليل فوق ما كانت تجده قبل ذلك، حتى كانت تفضي إليه بأسرارها العاطفية وتحدثه عن زينتها، وما تخشاه من فسادهما وهي تزف إلى زوجها الحبيب في ليلة العرس..

فكان يرفق بها ويساعدها ويستمتع إليها في حنو بالغ...إ

إن الذي يقرأ الحوادث السابقة قد يحسب أن مجهود المرأة الإباضية في ليبيا قد يقف بها عنصر الصبر والاحتمال،

والخضوع المطلق للزوج، أو الأب، أو الولي، وهو حسابان ليس له ظل من الصواب، فإن المرأة في تلك العصور، رغم أنها لم تزل حجابها - ولم تمتن نفسها، ولم تستعرض مفاتها على العيون، ولم تنحدر بكرامتها إلى سوق المساومة، إنها رغم ذلك كانت تشترك اشتراكاً فعلياً في أحداث الحياة، وكثيراً ما وجهت سياسة الأمة من جهة إلى جهة، ولم ينقص كفاحها عن كفاح الرجال في جميع الميادين.

7 - كانت أم يحيى 70 العالمة الفاضلة، والمربية القديرة، تسكن مدينة "أمسين" بين جيطال "و" "مَجَار". وكانت ترى أن الفتاة لا تتم دراستها في المدارس التي يدرس بها الطلبة الذكور، ورأت أنها لو فتحت مدرسة خاصة بالفتاة لأتحت للمرأة المسلمة فرصة الدراسة إلى آخر المراحل التعليمية، وما أفتنعت بهذه الفكرة حتى شرعت في تنفيذها، وتأسست المدرسة الخاصة بالبنات، وفتح بها شبه ما يسمى اليوم، بالأقسام الداخلية، فكانت الفتيات يقبلن عليها للتعليم، وكانت البعيدات منهن يقمن في المدرسة، وهي تقدم لهن الأكل وتشرف على تربيتهن، ولم تكتف بهذا، فقد كانت توجه الفتيات حسب استعدادهن وميولهن، فكانت تربي الجميع تربية إسلامية صالحة، وتوجههن في الحياة، فممنهن من تفتح لها أبواب العمل، وممنهن من تسهل لها طريق تكوين أسرة، وممنهن من حرص أن تستمر في دراستها حتى تصل إلى درجة النبوغ...

ولست أدري والله ما الذي صنعه علم النفس الحديث فوق ما صنعت هذه المرأة، ولا المآثر التي بلغتها المرأة، اليوم فوق ما فعلته

امرأة الأمس دون أن تعلن عنها الجرائد وتحدث عنها الإذاعات وتصفق لها الأكف... إنها كانت تعمل ساكنة صامته وإن كانت نتائج عملها تظهر باهرة في أمثال شاكرة الزعرارية وأم زعرور وأضرابهما ...

ومن المؤسف أن تقف فتاة اليوم تلعن ماضيها المشرق لأنها تنظر إليه بعين مغمضة، وتناقشه برأي مستورد، وتاريخ مزور، ولو أنها ألقت عن نفسها هذا التبجح، وتناولت عن قليل من الغرور المصطنع والتمست طريقها القويم بين الحقائق التي خلفتها لها جدتها، لوجدت في ذلك من الشرف والنبيل والكفاح ما لم تبلغه هي في هذا العصر مع الأسباب الميسرة والوسائل المتاحة ...

8- كانت أم ماطوس 71 فتاة ذكية جرئية يسكن أهلها في المدينة المنبسطة فوق جبل "جَائِضًا" شرق كباو، ودرست على علماء بلدها حتى لم تجد عندهم جديداً، فرغبت في الالتحاق بمدرسة أبي محمد خصيب بن ابراهيم التميمصي جنوب طمزين، وليس بالمدرسة قسم داخلي للبنات وبين المدرستين مسافة طويلة لا تقل عن أربعة أميال، وكان طبيعياً أن تجد معارضة من أهلها لا سيما من أخيها الغيور، فهل يسمح لفتاة في عمر الزهور أن تقطع هذه المسافة الطويلة بين البلدين منفردة في كل يوم، ولكنها صممت على بلوغ الغاية، وتحدث الأهل والأقارب ...

فكانت تأخذ أدوات الدراسة وتتسلح بمزاقها ثم تذهب إلى المدرسة فتحضر مجلس أبي محمد، وتستمتع إلى دروسه،

وتشتبك في المناقشات، وترجع إلى قريتها فتجد الناس قد آووا إلى مضاجعهم واستغرقوا في النوم العميق فتشتغل في دروس الغد، وتخضر ما لديها من واجبات حتى إذا اطمأنت إلى أنها قامت بواجبها أحسن قيام أوت إلى فراشها، فأراجت ذلك الجسم المكدود، ولم تزل كذلك حتى بلغت الغاية، وأصبحت من الأعلام التي لا يستغنى عن حضورها في مجلس من المجالس العلمية، وكتب لها أن تزوجت في "مَرْسَاوُن" قرب تَمِيجَارْ فكان المشائخ لا يعقدون مجلساً إلا بحضورها، فتحضر المناقشات، وتستمتع إلى آراء الأعلام وتنتقدها، وقد تسببت لها هذه الشهرة المناقشات، وتستمتع إلى آراء الأعلام وتنتقدها، وقد تسببت لها هذه الشهرة في مشاق وأتعاب ... وكثيراً ما تكبدت أهوال السفر وهي حامل لتحضر الجامع التي تعقد في جناون أو تندوزيغ أو غيرها من الأماكن التي يختارها المشائخ للإجتماع.

أذكر أنني التقيت في الجامعة الأمريكية في بيروت بسيدة كانت فخورة جداً، لأنها كانت حسبما تقول أول فتاة عربية دخلت الجامعة، وكانت تعيد ذلك في كل مجمع ولكل مناسبة، فكنت أقول في نفسي: هذه فتاة ربيت في بيت مسيحي، وهي تعيش منذ خلقت سافرة، ولا تجد أي عنت في مجالسة الرجال في البيت والمقهى، ولا بد أن يكون أتيح لها - قبل دخول الجامعة - أن تراقص عدداً من الشبان على الطريقة الغربية على الأقل في أعياد الميلاد، ميلادها أو المسيح، هذا إذا كانت أسرتها محافظة في بيروت وفي القرن العشرين، ومع ذلك تحسب أنها كسبت مجداً، لأنها دخلت مدرسة للذكور منفردة.

ضع إلى هذه الصورة - الصورة الأخرى - صورة هذه الفتاة المسلمة التي تعيش بين أفراد أسرة مسلمة، محتفظة بالحجاب. لا تسمح لنفسها أو يسمح لها الناس أن تخالط الرجال غير المحارم، هذه الفتاة المسلمة بخلقها ودينها وحجابها استطاعت أن تفهر كل الظروف، فتحقق لنفسها أمنيته الغالية وهي الالتحاق بجامعة أبي محمد خصب، وتدرس في هذه الجامعة رغم معارضة الأهل وتشددهم في هذه المعارضة، ورغم المسافة الطويلة التي لا تقل بحال عن أربعة أميال، ما مقدار بطولة فتاة العصر إلى أم ماطوس التي كانت تعيش في القرن الثالث الهجري؟ أضف إلى ذلك أين تلك الفتاة كافحت ذلك الكفاح العظيم من أجل العلم فقط، ولم يكن في حسابها شيء مما يزدحم به رأس الفتاة في هذا العصر، إنها لم تكن تدرس لتحصل على شهادة، ولا على زوج، ولا على عمل، ولا لنتيح لنفسها المتعة واللهو.

اذكري تاريخك يا فتاة اليوم، وانظري إلى أعمال جدتك في الماضي، فستجدين فيه من العظمة ما يحق لك أن تفخري به دون أن يمس شرفك أو تمتهن كرامتك، وليس صحيحاً ما يلقيه في روعك دعاة الانحلال والتفسيخ بأن ماضيك كان مظلماً ومظلوماً فمئذ تشرفت خديجة بنت خويلد بالإسلام تغير حال المرأة، ووضعها في التاريخ والمجتمع، وقد أكرمها الإسلام أمّاً وزوجة وبناتاً وأختاً.

وأهانها بغياً وداعراً، وليس هذا الحكم قاصراً على المرأة، ولكنه حكم منطبق على الرجل أيضاً، وكما تسليح الرجل

بالإيمان والعلم، كذلك تسليحت المرأة بالإيمان والعلم، وما بلغنا من دين الله عن الرجال ليس أكثر كثيراً مما بلغنا عن النساء، ولم ينقص من علم عائشة أبداً أنها لم تكن سافرة، ومع الحجاب الشديد الذي كان يلفها كانت فقد من أعلم الناس، وعننا أخذنا نصف ديننا...

وهذه الفتاة أم ماطوس التي تلتفع بثوبها ثم تجاس بجانب المجلس تستمع إلى الشيخ وتسائله وتستجيب لنقاش الطلبة وترد عليهم، لم يمنعها ذلك الحجاب أن تتفوق على أكثر زملائها، ولم يدعها علمها إلى أن تلقى عنها ثوب الحياء وترمى بفتنتها بين الناس.

وليسست أم ماطوس هي الفتاة الوحيدة التي انتهجت هذا المنهج العلمي وبلغت ما أرادت، وإنما سقت قصتها لما فيها من عنت السير وبعد المسافة، وإلا فالعلم كان متاحاً للجميع في ذلك العصر...

9 - كان أبو حفص عمرو السكاكيني من فطاحل العلماء، وكانت أخته 72 النجبية الذكية ترافقه في دراسته، وتستمع إليه، وتأخذ عنه، حتى بلغت مبلغاً قل أن تصل إليه فتاة، وعندما كان يقوم بالدراسة أو التأليف كانت تقدم إليه من المساعدة ما هو في حاجة إليه، فتجمع له مادة التأليف، وتلخص له مواضيع البحث، وتعد له مناهج الدراسة، وتساعد في الكتابة، فتملأ عليه، أو تتلقى عنه الإملاء فنكتب، وهكذا وجد منها "سكرتيرة" ذكية وبارعة.

وعندما ذهب إلى الحرب في وقعة مانو رافقته، وقتل أخوها، وقتل أكثر الجيش، وأخذت أسيرة مع بعض زميلاتها فخافت الفساد، فقالت لزميلاتها: أما وقد وقعنا أسيرات ولا قدرة لنا على الخلاص من أيدي هؤلاء الوحوش فلتستخف كل واحدة منكن من يزوجهما بمن يريد بها سوء.

وهكذا حتى في أسوأ الأحوال ينجدها العلم والدين...

هذا نموذج يمثل جانباً من جوانب الفتاة في ذلك الحين، وفي تاريخ هذه الفتاة نماذج أخرى، لها من الروعة ما يبعث على الإعجاب..

10 - كان أبو ميسور يَصِلَتَيْن يسكن " أدوناط " هذه القرية التي تقع بين " تميجار " وحيطال " في منتصف الجبل، متجهة إلى الغرب. وكان كما قال فيه أبو الربيع : عظيم القدر في الإسلام، علماً وعملاً وورعاً، وكان الإمام في تاهرت يعتبره من المراجع العلمية الحية.

نشأت في كنفه ورعايته بنته 73 الذكية النجيبة، ودرست عنه وعن غيره من العلماء ما أبلغها رتبة سامقة من العلم، وكانت بارعة في النقاش، قوية الحجة، حاضرة البرهان...

جاءت إلى أبيها يوماً تسأله عن مسائل الحيض وتصف له بعض ما أصابها، فقال لها العالم الكبير: ألا تستحين؟ فقالت: أخشى إن استحييت منك اليوم أن يمقتني الله يوم القيامة، فألزمت الشيخ الحجة، ولم يجد لها رداً، وأجابها عن أسئلتها.

وتحدث جمع من المشائخ وكانت حاضرة تستمع إلى

نقاشهم، فقال أبوها: المسلمون أفضل من أقوالهم، فقالت هي: بل أقوالهم أفضل، فإن المسلمين يذهبون، ولكن أقوالهم تبقى إلا أن تريد فضل الأجسام على الأعراض وإلا فليس هناك شيء أفضل من العلم.

وهكذا استطاعت أن تأخذ زمام المجلس وهي في سن المراهقة.

وجلست ذات يوم إلى أبيها بعد أن فرغت من غسل ثيابها ونشرها تتحدث إليه حديث الطفلة المحبوبة إلى والد حنون، ونظر الأب إلى الثياب، فقالت: أتمنى لو جعل الله تطهير قلبي إلى يدي فأغسله مثل الثياب وأبعثه إلى خالقه نظيفاً، فقال الشيخ معجباً ببنته الذكية: إنم أبلغ مني حتى في الأماني...

وتدلت عليه يوماً فغاضته، فقال لها: لأزوجك بمن له عليك سبعون حقاً... ولم تفر هاربة، كما قد تفعل بنات اليوم، ولكنها أجابته في ظرف وكياسة: إذن أردهن إلى ثلاث: إن دعا أجبت، وإن أمر امتثلت، وإن نهى اجتنبت...

هذا نموذج من فتاة الأمس المتحجبة، فهل منعها الحجاب أن تصاول فطاحل العلماء وتقارعهم بالحجة، وتفحهمهم بالبرهان، وتتغلب عليه بالأدب والبر والكياسة.

لقد استعرضت عدداً من النماذج عن حياة الفتاة... فما هي حياة المرأة الكبيرة؟ وما أثرها في المجتمع؟ وما سلوكها في البيت والأسرة؟..

11 - كان أبو يحيى الأدلي رحمه الله من العلماء العاملين

لم يتزوج حتى تقدم به العمر، ودخل ذات يوم إلى بستان من بساتينه يجمع العنب، فمر به رجل نصراني يسكن البلدة، فدعاه ليأكل العنب، وسر النصراني بالدعوة فجاء معه بأهله، وكان له بنات مظهرهن عن الجمال والأدب وكمال العقل، فأعجب بهن أبو يحيى، وحدثه في شأنهن، فقال النصراني: إن جاز في دينكم زواجك إحداهن، واختار أبو يحيى أم الخطاب⁷⁴، وكانت أجملهن وأكملهن عقلاً.

فلما أوى إليها في الليل حدثها عن الإسلام، وشرح لها قواعده وأصوله، ثم خيرها بين الإسلام والرجوع إلى أهلها، وكانت أعجبت بالرجل وبخلفه ودينه، وفهمت من الإسلام ما لم تعرفه من قبل، وتذكرت أنها حتى لو بقيت مسيحية فإن المسيحية لا يجوز لها أن تفارق زوجها.

وهكذا شرح الله صدرها للإسلام، وجاءت أمها تزورها في الصباح فوجدتها مسلمة، فقالت لها: كنت أرغب أن لا تتركي دينك أبداً، أما وقد فعلت فكوني من خيار أهل دينك الجديد...

وبدأت هذه المرأة التي أسلمت حديثاً في حفظ كتاب الله، فلم يمض عليها زمن طويل حتى عرضت على زوجها سورة البقرة وآل عمران في حفظ جيد، أعجب به أبو يحيى، وجدت في دراسة الإسلام ومعرفة أسرارها حتى أصبحت مرجعاً من مراجعه، ومقصداً للعلماء الأعلام، يزورها أمثال أبي مهاصر وأبي زكرياء وأبي ميمون.

وقد كانت تروض نفسها على أنواع من العبادة لا يقوى عليها

إلا أصحاب العزائم من المؤمنين الصادقين... ومعبدتها في تغرمين من أشهر المعابد في التاريخ ولعل للإسم الذي اختارته له دلالة على اتجاهها في عبادة الله، فقد سميت ذلك المعبد "اغرم إيمان" ومعنى هذه الكلمة البربرية، كما فسرهما العلامة الشماخي: قصر النفس في مجلس الذكر.

وقد يناسب هذا المقام أن ننقل قصة أخرى تمثل كفاح المرأة من أجل العلم والحق، صورة واضحة لما تكون عليه المسلمة حين تكون طالبة، وحين تكون زوجة.

12 - كان أبو محمد التغرميني يعيش عيشة العلماء الزاهدين، لا يحفل بالدنيا ولا بما فيها من متاع، فكان يقضي وقته بين مذاكرة العلماء وعبادة الله وزيارة الإخوان والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحل المشاكل التي تنجم بين الناس، فكان لا يجد فراغاً من الوقت لغير هذه الأعمال...

زار ذات يوم أم يحيى في أمسين وحدثها عن نفسه وعن عمله، فلم ترض له حياة العزوبة الطويلة، وذكرت أن الإسلام لا يدعو إلى الرهينة، واقتنع برأي الناصحة الأمينة واستشارها في أمره.

قالت المربية الكبيرة للشيخ: بين طالباتي فتاة 75 نشأت في جيتال بين أسرة فقيرة، وفي سنة من سنوات القحط والجفاف ارتحل أهلها طلباً للمرعى والتحقت الفتاة بالمدرسة وأقامت بين الطالبات المقيمات التي تشرف المدرسة على جميع شؤونهن من التعليم والتربية، إلى النفقة والإقامة والكسوة... وهي إلى

ذكائها وأدبها وجدها في الدراسة وتفوقها عل أكثر الزميلات ذات جمال. فرغب من العالمة أن تتيح له التعرف على هذه الفتاة التي قد يقدر فتكون له زوجة.

ورحبت المربية العارفة بأحكام دين الله وما يعطيه من الحقوق للناس فدخلت وأمرت الطالبة أن تأتي لها بجرة ماء من صهريج بجانب المدرسة.

وذهبت الفتاة إلى الصهريج تحمل جرتين إحداهما لها، والثانية لمدرستها، فما شرعت في الاستسقاء حتى وقف إلى جانبها رجل يرسل إليها تحية الإسلام ويطلب إليها أن تملأ له جرة كانت في يده، فردت عليه السلام ولم تضطرب لهذا الطلب من رجل غريب، واستمرت كأن شيئاً لم يحدث، فملأت جرة استاذتها أولاً، ثم ملأت جرة نفسها، ثم أخذت جرة الغريب.

واعجب أبو محمد بيهذا الخلق، وهذه الرزانة، وهذا الثبات وقال لها : قل لله مزرعة يا جارية ؟ فقالت نعم !! فقال : وهل له من يحرقها ؟ قالت نعم، قال : نعم، وقال : وهل له من يحصد ذلك الحرث ؟ قالت : نعم ! قال : وهل له مخازن ؟ قالت نعم ! ثم شرعت تشرح له جوابها في فصاحة وبيان، قالت : المزرعة الدنيا، والحرثون الناس، والحاصد الموت، والمخازن الجنة والنار.

وعلم أبو محمد أنه عثر على درة نادرة المثال، وأن أم يحيى لم تأله نصحاً، وأن هذه الفتاة قد جمعت بين الجمال وكمال العقل، والأدب والعلم والذكاء والثبات، وهي صفات قلما تجتمع في شخص واحد...

وذهب أبو محمد عم الفتاة يخطبها، ولكن أقارب الفتاة مانعوا في أن تتزوج فتاتهم بعيداً عنهم في تاغرمين ولهم في بني عمها فتیان أكفاء، ولما رجعوا إليها أخبرتهم أنها لن تتزوج إلا من يرضى عنه عمها، وكان عمها عرف ميولها إلى أبي محمد وإعجابها به فوقف إلى جانبها وأصر أن لا يفرضوا عليها زواج من يحبون هم، ولكنها يجب أن تتزوج من خب، وانتصرت على تعنت الأهل والأقارب وتزوجت أبا محمد التغميني، وعاشت مع هذا الزوج الحبيب حياة مليئة بالسعادة والحب والفهم المشترك، وكان من خلقهما أنهما ما نزلا عن فراشهما قط إلا وخاللا، حتى لا يبقى على أحدهما من حقوق الزوجية شيء، إنه أدب سام تجلى به أولئك المؤمنون والمؤمنات الذين يعرفون قداسة الحقوق.

ظفر أبو محمد فيها بزوجة محبة، وزميلة عالمة، ومربية قديرة، وسيدة بيت من الطراز الأول، فوثق بها وألقى بين يديها كل مشاكل البيت والأسرة، فكان لا يعرف منها شيئاً.

فلما خطب أبو زكرياء إلى أبي محمد فتاته الحبيبة وطلب إليه أن يجهزها للعرس احتار في أمره وصار يدخل ويخرج دون أن يعرف ما يصنع، وتولت الزوجة الحازمة إعداد ما يلزم، فكلما أحضرت شيئاً سألها : أهذا لنا ! فتجيبه نعم، فيدعو لها وتطمئن نفسه، حتى أتمت تجهيز العروس وزفت إلى بيت الزوجية وهي راضية مستبشرة.

ومع هذه الشخصية القوية التي كانت لأم زعرور زوجة أبي محمد، ومع ثقته الكاملة فيها كانت لا تعمل شيئاً دون إذنه

واستشارته...

زارتها المؤمنة الصالحة أم زيد فأفاضت عليها من علمها وخلقها ودينها، ولما أرادت الرجوع طلبت إليها أن تشيعها وأن تفيدها مقابل ذلك ثلاث فوائد، وقبل أن تستجيب أم زعرور لمطلب ضيفتها، ذهبت تستأذن زوجها، وأذن للزوج بل حضها على ذلك فقال لها : شيعيها ولو مت في الطريق ودفنت في " أدبيرن " وأدبيرن موضع في طريق وفيه مصلى لأبي محمد.

ولما كانت بالطريق قالت أم زيد لأم زعرور : من شيع أخاه في الله كتبت له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ولا ينبغي للمسلم أن يبقى بغير صديق يفشى له سره ويشركه في همومه، فإن لم يجده الرجل في الرجال اتخذه في النساء، والمرأة بالعكس، وإذا اتفق رجلان على نكاح فتاة ثم رجع الخاطب أو الخطوب إليه من غير سبب بعد ما فشا أمرهما، فلا يلقي خيراً، ولا يجد بركة...

هذه امرأة لم يعقها الفقر عن الدراسة، ولم يعقها استبداد الأهل عن الحصول على الحق الذي خوله لها الدين وهو اختيار الزوج الكفء المثالي، وهذا لعمري كفاح لو قامت ببعضه إحدى بنات اليوم ملأت الصحافة والإذاعة تبجحا ودعوى، ولكن المرأة في ذلك الحين كانت تعمل كما يعمل الرجل، يستهدفان الحق، ويعملان للمصلحة، ويقومان بالواجب المقدس نحو النفس أو نحو الأمة...

ولعل في القصة الآتية دليلاً على إخلاص المرأة لرسالتها

المقدسة، رسالة خدمة المجتمع الإسلامي بنشر العلم والثقافة والخلق القويم...

13 - كانت أم الربيع 76 الوريورية عالمة فاضلة وكان الله قد أنعم عليها بثروة طائلة، ومال وفير، وكانت إلى هذا المال وهذا العلم طيبة القلب، سخية الكف، حية الضمير، تشكر نعمة الله بالإنفاق منها، وتصلح المجتمع بإنشاء المشاريع النافعة، وكان المشائخ يستطيون الإقامة عندها والإجتماع لديها، للمشاورات والناقشات العلمية والدراسات الإجتماعية، وقد يطلبون الإقامة فكانت تنفق عليهم في مدرستها العامرة التي يتولى الإشراف عليها أبو محمد بن سنتين ويقوم بالتدريس، والإرشاد فيها وينقطع إلى عبادة الله مع الأخيار بين عرصاتها وسواربها، وكثيراً ما لجأوا إليها للنصيحة، فأنارت أمامهم السبيل وأرتهم طريق الهدى والخير.

والمتحدث عن المرأة الإباضية في ليبيا لا يستطيع أن يمضي دون أن يذكر تلك العجائز التي يطلق على كل واحدة منهن جدة المشائخ، ولعل من الخير أن أذكر في أواخر هذا الفصل الذي عقده للحديث عن المرأة بعض تلك العجائز...

14 - " نَأْنَا مَارْنُ " 77 - نانا كلمة بربرية معناها الجدة، ومارن هو العلم الذي أطلق على هذه العجوز التي نريد أن نشير إلى حادثة تاريخية كان لهما فيها الموقف الحازم الذي يحق للمرأة أن تفتخر به.

عاشت نَأْنَا مَارْنُ في قرية الجمارى، هذه القرية الجميلة التي

تقع على الضفة الغربية لوادي الزرقاء الجميل، إلى الجنوب من ندباس بمسافة قصيرة. ودرست على العلماء الأعلام هناك وبلغت مرتبة أن تبلغها امرأة، واشتهرت بين الناس بالعلم والصلاح والرأي السديد. ولا يزال مسجدها إلى اليوم مشرفاً فوق ربوة عالية يصارع ويطاول التاريخ.

وفي مدينة جَنَّاوَن التي لا تبعد عن الجمارى بمقدار خمسة أميال كان يعيش أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني.

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن يعرف ليبيا ويعرف رجالها فقد بقى سبع سنوات، وأراد أن يختار والياً على ليبيا فوقع اختياره على أبو عبيدة الجناوني. وعزز هذا الاختيار اتفاق المشائخ عليه.

ولكن أبو عبيدة رفض هذا المنصب الذي يُلقى عليه، وألح عليه الإمام وألح عليه المشائخ ولكن دون جدوى. وطالت المحاولة وشغلت فكر أبي عبيدة، وأخيراً وجد الحل.. قال للمشائخ الذين كانوا مجتمعين عنده يبذلون محاولة أخيرة لا فائدة إنه سيستشير، وغداً يسمعون الكلمة القاطعة. ونظر المشائخ بعضهم إلى بعض عليهم يعرفون هذا الرجل الذي يركن أبو عبيدة إليه أكثر مما استمع إلى هؤلاء الأعلام وإلى رجاء الإمام...

ونظر الشيخ بعد صلاة العصر يصعد جبلاً شامخاً إلى جهة الغرب حتى بلغ القمة، فظهرت له ربوة مرتفعة نتأ عليها مسجد يشرف على مناظر الزرقاء الساحرة. وقصد المسجد وكانت نانا مارن بجوار المحراب تناجى ربها، فسلم أبو عبيدة وجلس

وأفضى إليها بذات نفسه، وحدثها عن مشكلته، واستمعت إليه كما تسمع الأم الحازمة إلى مطالب الولد المدلل، ثم قالت له : إن تقدمت وأنت تعلم أنه يوجد من هو أكفأ منك فأنت في النار وإن تأخرت وأنت تعلم أنه لا يوجد من هو أكفأ منك فأنت في النار ، وفكر الرجل الكبير واستعرض الرجال واحداً واحداً ثم رفع إليها رأسه وقال في احترام عظيم : أما في الرجال فلا، ورجع إلى جناون واجتمع في اليوم بالمشائخ وأعلن لهم قبوله لذلك المنصب فقال أحدهم : هيا بنا نزور وقاية هي خير من عمائمنا. وكان لهذا الموقف الحازم من الجدة أثر في تاريخ بنيتها لا يزال إلى اليوم يذكر بالفخر والاعتزاز، إن المرأة في ذلك الحين كانت واعية، وكانت عارفة بمجرى الأحداث والتيارات السياسية المعارضة، وكانت تعمل على توجيه الأمة الوجهة الصالحة دون أن تملأ المجالس بالثرثرة، وتشغل الأسماع بالخطب الرنانة، وتقارع الأحزاب على المنابر لتظهر براعتها في الحداقة لا في نصر المبدأ..

وجدير بي في هذا الفصل أن أذكر أمثلة من وصايا العجائز لتكون عبرة وموعظة لهذه الأجيال.

15 - " نانا تابركانت السدُرَاتِيَّة 78 " أعظم امرأة عاشت في تلك العصور الطافحة بالإيمان والعلم والخير، وقد اشتهرت بين العلماء، بشهرة لم يبلغ إليها أحد في زمانها، وإذا أطلق لفظ العجوز أو لفظ الجدة أو لفظ جدة المشائخ في كتب الفقه وكتب السيرة، فالمعنى بذلك إنما (العالمة الفاضلة الصالحة) .

زارها جمع من العزابة فقالوا لها أوصلنا يا عجوز ؟

فقالت : وكيف أوصيكم وأنتم الرجال، منكم الرسل والأنبياء، ومنكم الأمراء والوزراء، ومنكم المؤذنون والأئمة، قالوا : لا بد من ذلك فإن الذكرى تنفع المؤمنين :

قالت : إياكم وكثرة الكلام لئلا تكذبوا، وإياكم وكثرة الأيمان لئلا تخنثوا، وإياكم وكثرة الإدلال لئلا تسرقوا، وإياكم والتهمة لئلا تظلموا.

قالت : زيارتكم طلب حوائجكم، ومصافحتكم مقارعة، وإياكم أكل النهماء، ومشيتكم مشي المرضى، ونومكم نوم الموتى.

قالوا : زبدينا...

قالت : شر الصدور صدر لا رافة فيه، وشر الأقدام قدم لا تزور في الله، وشر البيوت بيت لا يدخله المسلمون، وشر المال مال لا ينفق منه.

ثم ترجمت لهم إلى اللغة البربرية قول بعض الحكماء، نقَّ العمل فإن الناقد بصير، جدد السفينة فإن البحر عميق، كثر الزاد فإن السفر بعيد، خفف الحمل فإن العقبة كؤود.

أعتقد أن هذه الأسطر كافية للدلالة على مركز هذه المرأة العظيمة، واتساع علمها، ودراستها، ونعرفتها لأسرار الشريعة، وأسرار النفوس.

وإنه لمن المناسب أن أنقل في هذا المقام تلك الوصية الغالية التي بعثتها نفوسية إلى زميلة لها في تاهرت فقالت لها :

لا يأكل خير ما في بيتك غير زوجك، ولا تكشف في رأسك في بيت غيرك ولو كان صاحبه في العراق، ولا تجعلي مدراك في أندر غيرك أرادت بذلك أن لا تبدأ في إشاعة الأخبار قبل أن يتناقلها الناس.

وفي الوصية الأخيرة عبرة يجب أن تفكر فيها فتاة اليوم، وذلك ما طبعت عليه المرأة من كثرة الحديث ونقل الشائعات من مكان إلى مكان.

هذه لقطات أخذتها حسب الصدفة من حياة المرأة الإباضية في ليبيا، ولم أقصد من التقاط هذه الصور إلى كتابة قصص، أو استهواء القراء الكرام بجمال الخيال، ليستطيع كل مشتغل بالقصة أن يجد مادة خصبة في حياة المرأة وكفاحها الطويل في سبيل الحق، ولو فعل لأمد المكتبة الإسلامية العامرة بثروة رائعة من قصص الواقع.

أما أنا في هذا الكتاب فإنني أحاول أن أصور للقارئ الكريم حياة هذا القسم من الأمة العظيمة، وأن أطلع به بفدر الامكان على سيرة أهل المذهب الذين عاشوا في هذا الجانب من الوطن الكريم، وطبيعي أن حياة الأمة وتاريخها لا يتمثل في مظهر دولة لا تحكم بكتاب الله، ولا يستمد من أعمال قواد جيوش يفرحون بما لديهم من قوة فلا يفرقون بين الحق والباطل، ولا في ترف عدد قليل من أصحاب الثروة والمال الذين لا يزنون القيم الإسلامية إلا بالذهب.

ولكن تاريخ الأمة يتمثل في سلوك الفرد العادي، في عمل

المدرس والفلاح والعامل والتاجر أولئك الذين يقدمون على أعمالهم بوحى من ضمائرهم، وبضرورة مصالحهم ومصالح أسرهم ومصالح أمتهم - لا في أعمال الذين تأتي إليهم الأواكر فينفذونها كأنهم آلات صماء.

إن تاريخ الإباضية يتمثل في الكلمة الحرة، والفكرة الحرة، والحركة الحرة في البيئة الحرة، لم يقلها صاحبها وآلات التسجيل تنظر ما يقول، ولم يعلمها وآلات التصوير تواجهه من كل ناحية، ولم ينمقها ليكسب بها مزيداً من الأصوات، ولم يزينها في المعارض أو في المتاحف.

وارجع معي إليها القارئ الكريم إلى بعض الفصول السابقة فستجد صوراً دون رتوش تمثل لك حقيقة الحياة، وحقيقة التاريخ في بساطته وواقعيته.

هذه فتاة متعلمة تناقش أباه في دلال وبراعة، وهذه بنت في أوائل البلوغ تزف إلى بيت الزوجية في فصل شتوي ممطر فتخشى على زينتها، وتشكو حالها إلى أبيها المحب وترجوه مساعدتها، وهذه امرأة كتب عليه القدر أن تتزوج من أجلاف البادية، فتتبعه حافية القدمين، وتصر على فظاظه الزوج الخشن، وقساوة الصحراء - رغم رقتها ولطفها وثقاقتها، وهذه امرأة مؤمنة ترى رجلاً يتقدم إلى الصلاة بالناس وفيهم من هو أولى منه، فيرتفع صوتها من ركن النساء تنهاه عن التقدم، كما كان يرتفع صوت أم المؤمنين أميرة معروف أو ناهية عن منكر، وهذه عجوز قد درست العلم واختبرت الحياة، وعرفت حلول الزمان وممره.

تلقى بالنصائح الغالية إلى أبنائها، وهذا عالم من العلماء يدعو إليه جماعة من زملائه، وينتقل من بلد إلى بلد ليحل مشكل فتاة أعرضت عن الزواج، وهذا خلاف ينشب بين أخ غيور وأخت حب أن تستكمل دراستها، وهذه امرأة تهمها قضية المرأة في ذلك التاريخ، فتنشئ مدرسة خاصة بالبنات، وتنشئ فيها قسماً لسكنى الغربيات منهن، وهذا جمع من أعلام الفكر يعقدون مجلساً لشأن من شوؤن الدولة، فلا يوفقون حتى تعرض قضيتهم على امرأة فتجد لهم الحل... إلى آلاف من الصور التي تمثل الحياة الطبيعية بما فيها من واقعية...

لقد حاولت أن أضع بين يديك صوراً من التاريخ الحقيقي، كما جرى به الحياة، بعيداً عن ضوضاء السلطان، وطغيان المال، وبما أن الأمة تتكون من العنصرين الأساسيين: الرجل، والمرأة فقد حاولت أن أجلب لك صوراً من حياة كل منهما، ولست أدري هل استطعت أن أقدم إليك المادة الحقيقية لحياة المرأة الإباضية في ليبيا - حياتها وهي تقوم برسالة الأمومة كأحسن ما تقوم بها أم، وتعمل بدين الله كأحسن ما تعمل مؤمنة، وتطلب العلم كأحسن ما يطلب العلم، وتثبت حقها الطبيعي في اختيار الزوج بإصرار، وتشترك في مجالس العلم وندوات الاجتماع بأوفر نصيب، وتقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر كما تقوم مسلمة غيورة على دين الله: أم أن قلبي الضعيف ترنح أن يتم هذه الصورة التي أردت أن أضعها بين عينيك.

مقارنات

في هذا الفصل أريد أن أضع بين يديك أيها القاريء الكريم أحداثاً تاريخية وقعت في عصور مختلفة من تاريخ الإباضية في ليبيا - وكانت حين وقوعها أموراً طبيعية لا تثير الاهتمام ولا تبعث على الإعجاب...

فلما وقعت أشباهها في هذه العصور، اعتبرت بعض تلك المواقف بطولات، واعتبرت تلك الأحداث أوائل تاريخية تكسب المجد العظيم.

الاكتفاء الذاتي :

اعتبر غاندي من أبطال التاريخ في كفاحه السلبي للاستعمار الإنجليزي. وذلك لأنه اقتصر في غذائه على نتاج الهند. ودعا مواطنيه إلى الافتداء به، حتى لا يجد المستعمرون في الهند سوقاً رائجة يشحنون إليها بضائعهم، ويتخذون ذلك ذريعة للسيطرة عليه، وهو موقف عظيم قدره له التاريخ، ولكن التاريخ حين يشهد ببطولة غاندي ينسى بطلاً آخرًا سبق غاندي إلى هذه الفكرة بعشرة قرون. لقد كان العلامة الكبير أبو الليث الجناوني يقتصر في غذائه على حليب بقرة يرعاها أو ترعاها زوجه في أراضي جناون الخصب، وكان يقتصر في كسائه على ما تنتجه أيدي الجناونيات من أنسجة الصوف المتينة، وكان

يدعو إلى الاقتصار على الإنتاج المحلي، حتى لا تتسرب البضائع المسترابة إلى البلاد، وحتى لا يجد الظالمون وسيلة لدخولها. وكان هذا الرجل في مقام من التعظيم والاحترام لم يصل إليه أحد، فإذا تكلم أنصت العلماء، وطأطأ الحكام رؤوسهم، إنه لا يقل عن غاندي في عظمة التفكير، ويزيد عليه بكرامة الإسلام، وكل ما ينقصه إنما هو وسائل النشر والدعاية والإتصال.

الثورة البيضاء :

ثار الضباط الأحرار في مصر، وخلعوا الملك فاروق من العرش، وطوحووا به إلى المنفى، وحرروا الشعب المصري من ظلم طويل، وهذا عمل عظيم والتاريخ اليوم يشيد بهذه البطولة التي تقلب نظام الحكم، وتعزل ملكاً دون أن تريق قطرة دم، ولكن التاريخ الذي يشيد اليوم بهذا العمل المجيد يمر مرةً سريعاً بحادث يقع في ليبيا منذ اثني عشر قرناً.

كان يحكم ليبيا تحت ظل الخلافة العباسية حكام لا يقلون عن فاروق ظلماً واستبداداً وبعداً عن أحكام الإسلام في ذلك العهد القريب من مطلع الإسلام، وكانت الأمة تتألم في صمت تحت ذلك الحكم المستبد.

وتداعى جمع من المؤمنين الأحرار وقرروا الإطاحة بالظالمين، فاحتلوا المدينة - طرابلس - واستولوا على مركز الحكم، دون أن يريقوا قطرة واحدة من الدم، ثم دأبوا إليهم الحاكم العباسي وخبروه بين البقاء بينهم فرداً عادياً من أفراد الأمة أو الخروج من ليبيا آمناً موفوراً، وكل ما هنالك من فرق بين الثورة البيضاء التي

قام بها مؤمنون أحرار في مطلع الثورة البيضاء التي قام بها ضباط أحرار في هذا العصر. أن الأولى قامت بتدبير نفر عاديين كل مالهم من قوة إنما هو محبة الأمة وتأبيدها. وأن الثانية حين قامت كانت تعتمد على سلطة الجيش وقوته، التي أسكتت المعارضة قبل استعمال السلاح.

من قضايا المرأة :

تخل المرأة في العصر الحاضر مكانا مرموقا من تفكير الإنسان. وقد دأبت الصحافة والإذاعة على تمجيد نفر من الفتيات استطعن أن يثبتن قوة شخصيتهن وصلابة إرادتهن حين التحقن ببعض الجامعات لإتمام دراستهن رغم معارضة أهلهن. وانتقاد البيئة لسلوكهن. وكم صدرت صحيفة تشيد فلانة أو فلانة التي حطمت التقاليد. وكانت أول فتاة دخلت كلية كذا أو جامعة كذا. والتاريخ حين يشغل نفسه بهذه الأحداث في العصر الحاضر. يمر مرارا سريعا على أحداث أخرى قبل عشرة قرون. حطمت فيها الفتاة الليبية قيود التقاليد. واشتركت في الدراسة إلى جنب زميلها. تشاركه في المناقشة وقد تفوقه ذكاء وجدا. ومثابرة. في مدينة منبسطة على جبل " جار إصرا " كانت تسمى الفتاة الذكية عافية التي سميت فيما بعد " أم ماطوس ". درست هذه الفتاة في مدارس مدينتها وعن مشائخها حتى لم تجد عندهم ما تستفيد. فرغبت أن تلتحق بالمدرسة الكبرى التي يديرها المربي الكبير العلامة أبو محمد بن إبراهيم في تمصص.

والمسافة بين المدينتين بعيدة لا تقل عن أربعة أميال. وفي المدرسة قسم داخلي ولكن للذكر فقط. فماذا تعمل هذه الفتاة لتلتحق بذلك المعهد فتتم دراستها وتبلغ غايتها ؟

عرضت أمرها على أهلها فعارضوها. ولما الحث في الطلب ثار ثائرههم. وقرروا أن يمنعوها حتى بالقوة. وكيف يسمحون لفتاة في عمر الزهور أن تقطع يوميا مسافة لا تقل عن أربعة أميال منفردة. وكان أصلب الجميع في الموضوع أخوها الغيور. وتطوع أن يحبسها وأن يقوم بوظيفة السجان. ولكن جميع هذه الوسائل العنيفة لم تستطع أن تصد الفتاة عما رغبت فيه. والتحقت بالمدرسة. ودرست فيها حتى تخرجت منها. وكانت فيما بعد مرجعا من مراجع العلم والتقوى. وقل أن يعقد مجلس علمي لا تدعى إليه.

وكان رأيها في مقدمة الآراء. وكثيرا ما اضطرت إلى قطع مسافات طويلة لحضور اجتماعات وهي حامل أو مرضع.

ليست أم ماطوس الفتاة الوحيدة التي درست فبلغت هذه المرتبة السامقة من العلم... إن الفتيات بلغن مثل هذا المكان المرموق لا يبلغهن العد. ولكن أم ماطوس من أولئك القلائل اللائي لم يبالين نقد البيئة. ومعارضة الأهل لبلوغ الغاية العظمية. وقد فعل فعل أم ماطوس عدد من الفتيات. ومن بينهن من حضر مجلس العلم بين الشباب فتدير على نفسها حصيرة ثم تشترك في الدرس اشتراكا حيا واعيا وهي بين الطلاب...

على أن هذه الفتاة التي حطمت التقاليد وأغضبت الأهل، وحضرت مجالس العلم، كانت أولاً تسلك سلوكها هذا تحت مراعاة مربين قدراء، أمثال "أبي محمد خصيب" ثم كانت تحافظ على سترتها ولباسها وحشمتها، ثم كانت لا تفتح المجال للاختلاط الحر، ولا تشترك في نقاش أو حديث مع أحد إلا في قاعة الدرس.

وهناك فرق كبير بين أن يفتح المجال للفتاة كي تستمر في الدراسة حتى تبلغ غايتها تحت رقابة الدين والخلق وحسن التربية ومثالية السلوك، وبين الدعوة التي ينشق بها اليوم كثير من الناس إلى اشتراك الفتى والفتاة في تجربة فرص الحياة بما حمله كلمة التجربة من معان، ويدعون إلى أن تبدأ هذه التجربة من المدرسة...

من قضايا المرأة أيضا :

إن مشكلة تعليم المرأة من أهم المشاكل في العصور الأخيرة، وقد تضاربت فيها الآراء وأختلفت وجهات النظر، وكان بعض المفكرين يرون أن الفتاة يجب أن تدرس بجانب الفتى ابتداء من روضة الأطفال إلى نهاية المراحل الدراسية، ويرى مفكرون آخرون أن الفتاة يجب أن تستقل بمدرستها ومنهجها وأسلوب تربيتها في جميع مراحل التعليم، ويتخذ آخرون مواقف متأرجحة بين الموقفين السابقين، وأنا في هذا الفصل لا أريد أن أعلن عن رأي خاص في الموضوع، وإنما أريد أن أضع بين يدي القارئ الكريم رأياً أعلنه ثم نفذته، وقد اتفق عليه أعلام يحسب لهم حساب في

مجال التربية والتعليم، وذلك قبل عشرة قرون.

اهتمت أم يحيى في ذلك العصر بقضية تعليم المرأة، وكانت درست على كثير من فحول العلماء، منهم زوجها أبو ميمون، ولكنها رأت ما تلاقيه الفتاة من المشقة والتعب في الدراسة مما يضطر الكثير منهن إلى الإنقطاع، ولذلك فقد قررت أن تنشئ مدرسة خاصة بالبنات، وأنشأت هذه المدرسة فعلاً في مدينة "أمسين" وجعلت فيها أقساماً داخلية تأوي إليه الطالبات الوافدات من بعيد، ولم تكتف بهذا بل كانت توجهن توجيهها اجتماعياً وأخلاقياً، ففي الحين الذي تشجع البعض منهن على الاستمرار في الدراسة والتبحر في العلم، كانت تشير على أخريات بالدخول في معترك الحياة بتكوين أسرة، أو ترشدهن إلى بعض الأعمال النسوية المعروفة في ذلك الحين ولكنها غالباً ما تمسك الفتاة في مدرستها حتى تطمئن إلى أنها فهمت واجباتها الدينية والاجتماعية وتم فيها البناء الخلقي، واكتملت لديها مقومات المرأة الفاضلة.

ذلك ما فعلته المرأة المسلمة منذ عشرات السنين، وهذا ما نفتبسه اليوم من علماء النفس والتربية في الغرب، حاسبين أنهم سبقونا إليه، وأن لهم الفضل علينا في ذلك، ولو رجع المسلمون إلى تاريخ أمتهم، وراجعوا ماضيها البعيد والقريب، لوجدوا فيه ثروة صالحة لأن تكون أساساً لما وصلته حضارة الإنسان في القرن العشرين.

تكوين الجمعيات العلمية :

إنه لمن دواعي الشرف لي أن أبدأ الحديث عن هذه النقطة بكلمة للإمام العلامة أبي أسحاق اطفيش، أمد الله في عمره. وأبقاه ذخراً للإسلام، قال في مقدمته عن كتاب الوضع صفحة 9 :

" ولم يمر عصر منذ القرن الثاني للهجرة إلا ووجد من مؤلفات علمائه ما يبهر العقول، فبين أيدينا اليوم ما يدل على تلك الذخائر الهائلة، كديوان الأشياخ الذي ألفه سبعة من العلماء في خمسة وعشرين جزءاً، وديوان العزابة الذي ألفه عشرة من الفقهاء، وكل منهما يعتبر دائرة معارف فقهية، وناهيك بتأليف اجتمع على تحريره هذا العدد من العلماء الأجلاء."

إن تكوين الجمعيات العلمية وتأليف الموسوعات تعتبر ظاهرة عصرية، ويحسب كثير من الناس أنها نشأت في الغرب، وسواء صح هذا الحساب أو لم يصح فإن المسلم في ليبيا يستطيع أن يرجع إلى أسلافه الأماجد ليجد فيهم أولئك القوم الذين يسبقون إلى كل فضيلة، ومن الفضائل تكوين الجمعيات العلمية لتأليف الموسوعات، ولست أجزم بأن الجمعية التي ألفت الديوان هي أولى الجمعيات العلمية في الشرق الإسلامي، ولكنني لأعرف جمعية أخرى سبقتها.

ولذلك فلو طلبت أن أحدث عن أول جمعية تأسست لتأليف موسوعة علمية فإني سوف أقرر أنها جمعية الديوان التي تتكون من هؤلاء العلماء : أبو عمران موسى، أبو عمرو النميلي،

عبدالله بن مانوح، أبو زكريا يحيى بن جرنار، جابر بن سدر مام، كباب بن مصلح، أبو مجبر توزير.

وبعد أن ألف هؤلاء العلماء موسوعتهم الفقهية، انتشر تكوين الجمعيات العلمية في مختلف فنون الثقافة، كأما كان الباب مغلقاً ففتحه أولئك الأعلام، ثم اندفع إليه الداخلون من بعدهم...

والذي أريد أن أعرضه على القارئ الكريم في هذا الفصل هو أن يعرف الليبي أن أسلافه الكرام قد سبقوا العالم إلى هذا النضج الفكري، وفي هذا الحين الذي يتحدث التاريخ عن هذه الظاهرة الفكرية في الغرب بكل إجلال واحترام، نره بمآجيدنا مرّاً سريعاً، لأن هذه الأمجاد لم تُنح لها أقلام تكشف عنها وتبرزها للناس...

من قضايا التعليم :

يهتم الناس في هذا العصر بقضايا التربية والتعليم اهتماماً كبيراً، وتفتح أقسام داخلية لإيواء الطلاب في كثير من المدارس، حتى في المرحلة الابتدائية، وذلك لتيسير التعليم لجميع الطبقات، ثم للإشراف على تربية الشباب إشرافاً كاملاً، وهي خطوة مباركة، ويحسب كثير من الناس أنها فكرة عصرية، غير أن الواقع التاريخي لا يوافق على ذلك.

فقد اهتم الإسلام بقضية التربية والتعليم، وعملوا على تيسيرها للجميع، وذلك بفتح أقسام داخلية في كثير من المدارس يأوي إليها الطلاب الفقراء مجاناً، فيجدون المأوى

والمسكن والإشراف التربوي النظيف، وبأوي إليها الأغنياء على أن يدفعوا النفقات، ولم تكن الحكومات هي التي تشرف أو تنفق على هذه المشاريع، وإنما كان يشرف عليها المصلحون من الأمة، أما النفقات فتجمع عن طريق التبرعات، وقد تكون لبعض المدارس الكبرى أوقاف في هذا السبيل.

وفي بعض فصول هذا الكتاب عدد من المدارس التي كانت تتبع هذا النظام، فيسرت التعليم وأفادت البلاد فائدة علمية اجتماعية لم تصل إليها بعض الدول في هذا العصر.

من قضايا التعليم أيضاً :

تقوم المدارس والمعاهد في هذا العصر برحلات علمية واستطلاعية يشرف عليها الأساتذة وينظمونها، وقد يظن بعض الناس أن هذه الفكرة وليدة العصر الحاضر، أو أنها مستوردة من الفكر الغربي، ولكن التاريخ يثبت عكس ذلك.

فقد كانت الرحلات المدرسية ضمن المناهج الدراسية عند أسلافنا العظام في ليبيا، فكان المربون ينظمون رحلات يذهب فيها فريق من الطلبة أو كل الطلبة تحت إشراف مدرسين قديرين يراقبون الطلبة ويوجهون أنظارهم إلى ما تجب ملاحظته، ويحسن الإطلاع عليه، ويدرسون نفسياتهم ويراعون سلوكهم في حالتي السفر والإقامة، ويعفونهم من قيود النظم في بعض الأحيان لتتاح لهم دراستهم ومعرفة نفسياتهم عندما ينطلقون في حرية كاملة، ولعله من المؤسف أن تقتصر إحدى تلك الرحلات بحادث أليم.

فقد كان أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي من فطاحل العلماء، وكبار المربين، وكان من أنشط الربين في القيام بهذه الرحلات التي يدرس فيها نفسية طلابه، ويدربهم على العمل والحياة.

ونزل الشيخ الكبير مع طلابه لبييتوا بعيداً عن ضوضاء المدن، وكان بنو تيجن - إحدى القبائل الضاربة حول الجبل والتي تعيش على النهب والسلب - كان بعض أهل تيجن قد شاهدوا هذه القافلة الكبيرة التي تنزل للمبيت، فهجموا عليهم على حين غفلة، وقتلوه جميعاً، وخسرت ليبيا علماً من أعلامها لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، ورغم ذلك فقد درس عليه عدد غير قليل من فطاحل العلم، والكتب مشحونة بأرائه وأقواله.

أحسب أن فيما نقلته من هذه المواضع الكفاية، وتاريخ الأمة الإسلامية مشحون بمثل هذه الأمجاد، ومثل هذا السبق في مختلف ميادين الحياة.

وكثير ما نحسبه اليوم وارداً من الغرب، أو وليداً للعصر إنما سبق إليه المسلمون، ولكنه أغفل في بعض زمن الانحطاط، والرجوع إلى تاريخ هذه الأمة العظيمة في سير رجالها ونسائها نستطيع أن نكشف عن تراث رائع عظيم...

الزاوي ينحرف عن الحق

الأستاذ الطاهر الزاوي مؤلف مكث، وقد عنى بالتاريخ الليبي فأصدر فيه فيما علمت ثلاثة من الكتب المتوسطة الحجم.

هي جهاد الأبطال، وتاريخ الفتح العربي في ليبيا، وأعلام ليبيا، وعناية الأستاذ الزاوي بالتاريخ الليبي جهد مشكور، وعمل نبيل، وقد حاول أن يظهر في كتبه بمظهر الرجل المنصف السليم الطوية، إلا أن قلمه خانه فكانت تصدر منه اللزمات الخفيفة، والطعنات الخفية، كأنه خائف لا يقوى على الظهور، فهو يستتر خلف عبارات ملتوية أو إشارات بعيدة، ولكنها موفية للغرض. وإذا كانت ليبيا جزءاً من الوطن الإسلامي الكبير، تسكنها أمة مختلفة الأجناس والألوان، فيها البربر والعرب، وفيها السود والبيض.

فإن المؤرخ السليم يجب أن ينظر إلى الأحداث التي تقع في هذه البلاد نظره إلى أحداث تقع من أفراد أسرة واحدة، فإن الإسلام ليس له لون ولا جنس. وكما أن الثورات والحروب لم تقع في جميع الممالك حتى تلك التي تتكون من جنس واحد ولون واحد - ما دام هناك ظالمون ومستغلون - فإن الثورات هنا لم تتوقف، والمؤرخ المنصف يجب أن ينظر إلى السبب الحقيقي المباشر لكل ثورة أو حدث أو فتنة، والباعث عليها، فليس الثائرون هم المخطئين دائماً، وليس حقاً أن تولى شأننا من شؤون المسلمين يكتسب بذلك حصانة يستطيع أن يفعل داخلها ما يشاء من استغلال مجهود الناس.

وإنه لتحريف لدين الله أن يفسر قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ] بهذا المعنى. فإن أولى الأمر الذين يتحرفون عن دين الله ويحكمون بغير

ما أنزل الله، ويتخذون عباد الله خولاً، وأموالهم دولا، ليسوا منا أي ليسوا من المسلمين الذين جُب لهم الطاعة، فإنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، والأحاديث التي تخرج الفساق والعصاة من المسلمين كثيرة ومتوافرة : (من غشنا فليس منا) 79 فالحاكم الذي لا يتقيد بنصوص الشرع الشريف وأحكامه غاش المسلمين، فهو ليس منهم، ولا جُب له عليهم طاعة، والذي يحمل عليهم السلاح فيقتل منهم بغير حق، أو يأخذ أموالهم بغير عدل، ليس منهم، ولا جُب له عليهم الطاعة.

ولكن الأستاذ الزاوي لم يكلف نفسه هذا العناء، فهو من أول كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " قسم السكان إلى قسمين : عرب وبربر، ثم جعل العرب كتلة واحدة، وجعل البربر كتلة واحدة، ثم جعل يضع على كواهل البربر جميع أخطاء التاريخ، ويلقى عليهم كل أعبائه، وينسب إليهم جميع النقائص التي يمكن أن تنسب إلى شعب، وهذا منطوق غريب ليس أبعد منه عن الصواب، وأوغل في الخطأ : فإن البربر باعتبارهم جنساً، ليسوا أسوأ من العرب، وأن العرب باعتبارهم جنساً ليسوا خيراً من البربر، وأن العرب والبربر جميعاً باعتبار أجناسهم ليسوا خيراً أو أسوأ من غيرهم من الشعوب.

ولقد كنا نعتقد أن خرافة الجنس الأعلى " السوبرمان " فكرة ولدت في دماغ هتلر وذهبت معه إلى غير رجعة، وبقيت كل الشعوب متساوية باعتبار أجناسها، وإن تفاوتت في أخلاقها وأعمالها ودينها...

ثم لم يكتف الأستاذ الزاوي بذلك، فتحدث عن الخوارج وجعل مبادئهم تنسرب إلى المغرب الإسلامي. ولما كانت هذه المبادئ هدامة - في نظر الأستاذ الزاوي - فقد تلقاها البربر، وتمسكوا بها، واتخذوها وسيلة لمحاربة العرب.

وعلى هذا النمط سار الأستاذ الزاوي في كتابه أو في كتبه ولم يشفع للبربر أن فكرة الخوارج إنما نشأت في قلب الجزيرة العربية، وأن العرب دافعوا عنها بأكثر مما دافع عنها البربر، إن البربر في المغرب كانوا كما كانت بقية الأمة الإسلامية في بقية الوطن الإسلامي، فيهم عدد غير قليل من الطوائف والمذاهب، فقد كان فيهم شيعة وخوارج ومعتزلة وإباضية وأشاعرة وظاهرية وغيرهم.

ولقد اعتاد الأستاذ الزاوي في كتابه عندما تنور طائفة من طوائف البربر أو قبيلة من قبائلهم بحق أو بباطل أن يسند ذلك العمل إلى البربر جميعاً، فهو نادراً ما يسند العمل إلى القائمين به، ولكن يسهل عليه أن يقول: "فعل البربر كذا" وطبيعي عند الزاوي أن البربر مخطئون على طول الخط، وأنه ليس لهم الحق لا في الحكم ولا في الثورة، ولا حتى في التوجع والأنين.

وهذا فيما أعتقد ظلم للتاريخ وظلم للمبادئ وظلم للعقائد، وظلم للناس، وإذا ساغ مثل هذا التفكير عند أمثال الرحالة التيجاني وأضرابه من خدم الولاة الظالمين، أو عند المستعمرين الغربيين الذين كانوا يرون أن الناس إنما خلقوا ليخضعوا لهم، إذا ساغ هذا التفكير عند أولئك، فما يسوغ هذا

التفكير في عقل رجل عالم مسلم، يعيش في القرن العشرين، ويدعو إلى الرجوع إلى دين الله والعمل بكتاب الله، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه الكرام، رضوان الله عليهم.

قد يخيل للقاريء الكريم، وهو يقرأ السطور السابقة، أنني بصدد الدفاع عن البربر، والحقيقة التي أريد أن يعرفها القراء الكرام أنه لا يعني جنس العرب أو جنس البربر، أو غيرهم من الأجناس في قليل أو كثير، فأنا أو من أن إرادة الباري سبحانه وتعالى، عندما خلقت الإنسان، ثم جعلت منه شعوباً وقبائل، وقد أعطت كل شعب أو جنس أو لون من بني الإنسان خصائص ومواهب تساوي ما عند الآخرين، ولا يكون التفاوت إلا في الأفراد، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تهجى قبيلة بأسرها، فإن أي قبيلة مهما كان جنسها أو لونها لها من المواهب والاستعداد والفضيلة والخصائص التي تمنحها القدرة الإلهية مثل ما لغيرها من القبائل، وإن تفاوتت قيم الأفراد في القبيلة نفسها، وفي خارج القبيلة.

وأن في هذا الكتاب أحدث عن فرقة من المسلمين، تدين لله في مذهب إسلامي، له قواعده وأصوله المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة، عاشت في ليبيا ولا زالت تعيش، ولا يعني مطلقاً جنس أفرادها أو لونها، وأنا أيضاً لا أحدث على هذه الفرقة، إلا لأنها تكون جانباً من الأمة المسلمة الكبرى، وقد تناولت هذا الجانب بغير الحق أقلام مخطئة وأقلام مغرضة.

وإنه لواجب على رجال الإسلام أن يكشفوا آثار تلك الأقلام المغرضة والمخطئة عن جميع فرق الإسلام.

ومن المؤسف أن الانسحاق في تيارات معينة شوه جمال الإسلام عند بعض الفرق. والذي يلتمس الشواهد على هذا الحديث، يستطيع أن يرجع إلى بعض كتب التاريخ. وبعض كتب الرحلات. فإنه سوف يجد من التناقض في الكتاب الواحد ما يبعث على الاستغراب. وقد يجد اختلافاً يخلج منه عقل يحترم نفسه. ومن هذه الكتب مثلاً كتاب الاستبصار في غرائب الأمصار. ورحلة التيجاني وأمثالها.

ومن المؤسف أن بعض من يوثق بهم ويعلمهم مثل ياقوت الحموي يقع في الخطأ الفاحش. لأنه يستمد معلوماته من بعض المؤرخين الذين لا يتحررون الحق. ولا يلتزمون الصدق.

لمزات من الزاوي

في هذا الفصل أريد أن أحدث مع الأستاذ الزاوي عن لمزات كان يجب أن ينتزه عنها قلم عالم. وكتاب مؤرخ أمين. فإليك أيها القارئ الكريم بعض تلك اللمزات الواردة في كتابه " تاريخ الفتح المبين العربي في ليبيا " قال :

صفحة 104 :

" ومنذ أن خرجوا على سيدنا علي أنفتح باب الفتنة في المسلمين فلم يسد بعد، ولن يسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض. "

هذه الكلمة من المغالطات التاريخية التي يحمل فيها وزر بعض الناس على غيرهم استغلالاً لمشاعر العامة والدهماء. وإلا فما نصيب هذه القصة من الحق ؟

ولقد كان في القديم أسباب سياسية باعثة على مثل هذا الكلام. ولكن تلك الأسباب لم تعد موجودة اليوم. فلماذا يندفع الأستاذ الزاوي مع مغالطات ذهبت الدوافع إليها.

إن الفتنة قد وجدت في الأمة الإسلامية قبل أن يوجد من يسميهم الزاوي بالخوارج. أي قبل أن يختلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع بعض أنصاره ويقتل معهم وإن العدد الهائل من القتلى الذين ذهبوا في وقعة " الدار " وفي وقعة " الجمل " وفي وقعة " صفين " أكبر بكثير من القتلى الذين ذهبوا فيما بعد بين الخوارج وعلي. والفتنة التي وقعت بين بني هاشم وبني أمية لم يدع إليها الخوارج. والحروب الطاحنة التي وقعت بين بني أمية وبين العباس لم يقدها الخوارج. والمعارك المتابعة التي كانت تقع بين بني العباس أنفسهم وبينهم وبين مركز الخلافة واستقلالهم عنها. إن تلك المعارك لم تكن من تدبير الخوارج.. وتتبع التاريخ الإسلامي فإنك ستجد سلسلة من الثورات والحروب في كل ركن من الوطن العظيم. وليست تلك الحروب والثورات من تدبير الخوارج.

فلماذا تلقى على الخوارج إثم تلك الدماء التي أريقَت في مختلف أدوار التاريخ- ولا تزال تراق إلى اليوم -بحق أو بباطل. وقد انقرض الخوارج وذهبوا في ذمة الله ؟

ولماذا جعل باب الفتنة بأيديهم ؟ ونحن نعلم أن باب الفتنة إنما كان في يد أولئك الذين غرتهم الحياة، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فاستبدوا بالأمّة وعبثوا بالأمانة، وخانوا الله ورسوله ليحتفظوا لأنفسهم بعزة السلطان.

وليس ذلك من مبادئ العقائد أو الفرق الإسلامية، ولكنها فرص أتاحت لأفراد من الأمّة انحرفوا عن سبيل الله، فلجّ بهم الطغيان في الباطل والجبروت.

وأنا حين أقول هذا الكلام لا أريد الدفاع عن الخوارج ولكنها كلمة حق أهمس بها في أذن مؤلف معاصر جرفه تيار أحداث سابقة، ثم إنني أريد أن أشير إلى اللزمة الصغيرة الخفية التي تنطلق من قلم الزاوي كأنها خائفة فتتوارى. هذه الكلمة : " ولن يُسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض ". من هم أنصار الخوارج الذين يقصدهم الزاوي في كلمته هذه ؟

وماذا يوحي بها ؟

إن المرمى الذي يطوّع إليه الأستاذ الزاوي في هذه الجملة سوف ينكشف في لمزات آتية، وإنني أدع مناقشة فيها ذلك الحين في بعض نقط هذا الفصل.

صفحة 115 :

" وما زال العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر، وتدبير مكائدهم، وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله التجيبي رئيس الإباضية، فقبض عليه إلياس وضرب عنقه " : ولست أدري ما الذي حمل الأستاذ الزاوي على تكديس البربر وحشرهم في هذه القضية

: إن هذه القضية تتعلق بالإباضية، والإباضية مذهب ومبدأ وليسوا جنساً أو لوناً، وأعمالهم في ذلك الحين إنما قاموا بها من أجل الدين أو من أجل المبدأ، وهم حين يقومون بتلك الأعمال لا ينظرون إلى أجناس الناس، لأن الأجناس عندهم متساوية.

ولكن الأستاذ الزاوي لا يريد ذلك، إنه لا ينظر إلى دين القوم ولكنه ينظر إلى جنسهم، وما دام الإباضية يثورون على الحاكم الظالم، وما داموا بربراً فلا بد أن يكونوا من مدبري المكائد، وهو منطوق غريب لا يجد عليه الأستاذ الزاوي شواهد حتى من المؤرخين المغرضين : فإن تاريخ الإباضية في ليبيا لم يسجل عليهم تدبير ثورة واحدة قبل أن يستحيل إلياس بن حبيب حيث دماء الأبرياء منهم.

فلم ارتكب إلياس جرمته في طرابلس، ولم يزد أخوه عبدالرحمن عن نقله من ليبيا ليوليه أعمالاً في جهات أخرى، ولم يستجيب إلى حكم الله فيقتل القاتل : لما وقف عبد الرحمن بن حبيب هذا الموقف يحتضن أخاه، وينصره على الباطل ثار الإباضية، وحق لهم أن يثوروا.

وإلياس هذا الذي ثار الإباضية عليه، وطلبوا القصاص منه، رجل رفعته الظروف إلى أن أصبح والياً على طرابلس، فقتل عبدالله بن مسعود التنجبي، وأراد أخوه عبد الرحمن أن يحول دون القصاص منه، فدعاه إليه في القيروان وولاه على بعض الأعمال، ولكن هذا الرجل المتعطش للدم بهذا.

ومرض عبد الرحمن فذهب إليه إلياس يزوره، فلما وجد منه

غرة وثب عليه وأغمد خنجره الحاد في صدره. واحترز رأسه، ثم خرج يعلن للناس قتله لأخيه وتولييه الحكم عليهم.

وهكذا تنكر لمبادئ الإسلام، والشرف، والإنسانية، والقرباة، ولم يعرف أي حق للأخوة: أخوة الدين أو أخوة الدم، أو حتى أخوة الجنس التي يقدسها الأستاذ الزاوي.

هذا هو الرجل الذي سبب أول ثورة للإباضية على الظالمين، فهل يلام شعب يثور على حاكم ظالم يقتل الأبرياء بغير ذنب، بل تصل به الدناءة إلى أن يغدر بأخيه الأكبر الذي طوق جيده بالنعيم، فيقتله غدرًا في داره لينصب نفسه حاكمًا، ولم يكتب له أن يستمتع بالحكم الذي انتهك من أجله أقدس الحرم فقتل بخنجر ابن أخيه بعد أيام من حكمه.

أين الفتنة في هذا؟ وأين تدبير المكائد؟

أعند هؤلاء الذين يطالبون بتنفيذ أحكام الله، أم عند هذا الوحش الذي يتنكر لأبسط مبادئ الإنسانية فيبلغ في الدماء كما بلغ الكلب العقور، ويبيح جميع ما حرم الله ليصل إلى الحكم؟

فهل يلام الإباضية أو غير الإباضية حين يضربون على يد هذا الطاغية الظلوم، ويحسبون شره على المسلمين؟ وهل تعتبر ثورتهم هذه تدبيرًا للمكائد؟ ونزوعًا إلى الفتنة؟...

إن الأمة الإسلامية لو حافظت على مبادئ الإسلام، فضربت على أيدي العابثين، وظهرت مناصب الحكم من الوصوليين والانتفاعيين لما نكبت بما نكبت به، وإن المصائب التي أنصبت

عليها في جميع أقطارها كان السبب الأول فيها هو وصول غير الأكفاء إلى مناصب الحكم، ثم استبدادهم به، دون رجوع إلى دين الله، واستخفافهم بحقوق الناس من أموال، ودماء، وأعراض.

وكان حقاً على الأستاذ الزاوي وهو يكتب التاريخ في القرن العشرين ليجمع شتات الأمة في وحدة الهدف الإسلامي.

كان حقاً عليه أن يسرد تلك الحوادث مجردة كما وقعت، أما إذا أراد أن يبدي فيها رأيه فكان حقاً عليه أن يعلق بما يلم به الحق والعدل، ولكن قلم الأستاذ الزاوي ينحرف عن الحق فيسكت عن المجرم الذي أراق الدماء البريئة وتعدى حكم الإسلام... ويرمى المظلومين الذين يطالبون بتنفيذ حدود الله بأنهم قوم يتلمسون أسباب الثورة، وينزعون إلى الثقة، ثم يلجأ كما هي عادته إلى البربرية والعروبة فيقول:

"وما زال العرب يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم" و "أخذوا يتلمسون أسباب الثورة للانتقام". "وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة".

هذه لمزات ينثرها الأستاذ الزاوي في غير موضع من كتابه، وهو في ذلك يمزج بين العنصرية والمذهبية، فيربط بين الجنس والعقيدة، ثم يرتب على ذلك أحكامه حسب العوامل النفسية ورواسب العصبية، وتطغى عليه هذه الرواسب فلا يستبين الحق، ولا يرجع إلى أحكام دين الله، ولا يزن أعمال الناس بميزان الشرع العادل، وإنما ينساق في موكب الظالمين، يحدو لهم، ويبرر أخطاءهم، وينقد مخالفاتهم، كأنما كان يعيش في تلك القرون،

ويتلقى العطايا من أيدي أولئك الظالمين المترفين.

وهذا موقف غير شريف يقفه عالم مسلم، فإن امتداح الظلم وأهله، والتصفيق للطغاة والجبابرة، والسير في ركاب المستعبدین الظالمين في ذلة وهوان شنشنة ذهب بها الزمن فلن تعود، وتنزه عنها حتى أولئك الذين لم يكرمهم الله بالإسلام.

3 - ويقول الأستاذ الزاوي في كتابه "الفتح العربي في ليبيا" صفحة 119 :

"وكان - أي أبو الخطاب - من أشد خصوم سياسة العرب في أفريقيا، وقتلهم انتصار لمذهبه، وقد أخلص للبربر إخلاصا جعله منهم في محل التقدير والإعجاب".

إن أبا الخطاب - الذي يتحدث عنه الأستاذ الزاوي بمرارة في هذه السطور - عربي ثابت العروبة، بايعه سكان ليبيا من الإباضية وغيرهم إماما ليحكم فيهم بكتاب الله.

وأبو الخطاب رجل يعتز بإسلامه، ويعتز بأخلاقه، إنه يعتز بدينه لا بجنسه، وما الجنس عنده إلا خرافة لا يستمسك بها إلا المهازيل. ولم يكن أبو الخطاب ينقم على العرب أو البربر، ولكنه كان ينقم على الطغيان عند أصحاب الحكم، وعلى الانحراف عن الدين الحق : إنه كان يثور على تلك السياسة التي ينتهجها ذووا النفوذ من العرب والبربر جميعاً ما لم تتقيد بقيود الإسلام، لأن الأستاذ الزاوي لا يعير الحكم الإسلامي أي اهتمام في هذه الناحية، فهو غارق إلى أذنيه في قضية العصبية، ويرى أن ما يعملها العربي يجب أن يكون مقبولا، ومن عارضه بإحدى التهمتين الخطيرتين :

أن يكون من البربر أو أن يكون من الخوارج.

ولما لم يجد الأستاذ الزاوي ما ينتقده على أبي الخطاب قبل أن يبايع بالإمامة على ليبيا، وبعد أن تولى أمر المسلمين - لما يجد ما ينتقده عليه لجأ إلى إثارة عواطف الدهماء واستنصر بقضية العرب والبربر كما هو شأنه في كامل كتابه فقال: "وكان - أي أبو الخطاب - من أشد خصوم سياسة العرب في أفريقيا"

إن الخصومة ليست بين العرب والبربر كما أراد أن يصورها الأستاذ الزاوي، ولكنها بين طائفة من الناس استولوا على الحكم أما بطريق القوة أو التخويف أو التضليل بتمويه الحقائق في نظام الحكم الإسلامي، حتى أضفوا على أنفسهم شرعية الحكم، وبين طائفة أخرى لم يؤثر عليها الإغراء، ولم يرهبها التخويف، ولم يجز عليه التضليل والتمويه، فوقفت موقف المعارضة تطالب بالاستمساك بدين الله وتطبيق أحكامه، بالقول حين يجدي القول، وبالثورة البيضاء أو الحمراء حين يصر المنحرفون عن دين الله على موقفهم، ومن ظلم الحقيقة، ومن ظلم التاريخ، ومن ظلم الإسلام، أن نقول إن هذا الموقف البربر فقط، أو موقف العرب فقط، أو موقف المسلمين الذين آمنوا برسالة الإسلام، وتأدبوا بأدب محمد صلى الله عليه وسلم، وعز عليهم أن يغلب الشيطان أصحاب الحكم فينحرفوا بدين الله عن مجراه، فواقفوا في كل ركن من أركان الوطن الإسلامي يحاربون الباطل الذي استعلن فادعى لنفسه شرعية الحكم، دخول لها الاستبداد والفساد، وأرسل أبواق الدعاية تلفق التهم وتخلق الأكاذيب، وتحدث من الضجيج ما تود أن تستتر به دعوة

الحق والحرية المنبعثة من المؤمنين الصادقين في كل فرقة من فرق الإسلام.

ومنذ اختار الله محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه، وسأوى بين الرومي والحبشي والفارسي والغربي، انصهرت القوميات والجنسيات في الدين، وأصبح الرباط الذي يربط المسلمين هو رباط العقيدة؛ الرباط الذي اختاره خالق الإنسان ليكون العلاقة المتينة بين أفراد الإنسان، واقتنع المؤمنون بذلك وأمنوا وعملوا به، ولم يعد يلتجئ إلى الجنس أو القومية من العرب أو البربر أو الفرس أو غيرهم من الأجناس المسلمة إلا أولئك الذين يريدون أن يكسبوا مشاعر الدهماء من الناس، وأن يستغلوا ذلك لأغراض دنيوية بعيدة عن الإسلام وعن روح الإسلام، وإن قلما يقسم الأمة في أوطانها المختلفة، فيجعل منها قوميات متباعدة، أو يقسم الأمة في دولة من دولها فيجعل منها أجناساً متناكره لقلم أئيم.

وفي الفقرة يقول الأستاذ الزاوي في حديثه عن أبي الخطاب: "وقد أخلص أبو الخطاب للبربر أخلاصاً جعله منهم في محل تقدير" وهذا لعمري جن على التاريخ وظلم للحقيقة، فإن أبا الخطاب أخلص لدينه، وأخلص لإسلامه الذي يرتفع به عن وضاعة النظر إلى أجناس الناس وألوانهم ولقد كافح أبو الخطاب المنحرفين عن دين الله من العرب والبربر على السواء، فقاتل الحكام الظالمين من ولاية الدولة العباسية، وقاتل الحكام الظالمين من مذاهب الصفرية والمعتزلة، لا ينظر إلى أجناسهم ولا إلى ألوانهم، ولكن إلى أعمالهم. وسيف أبي الخطاب الذي

طهر القبروان من عبث عبد الملك الورفجومي هذا الرجل الذي لم يلامس الإيمان إلا قليلاً، فسولت له نفسه أن يعيث فساداً في المدينة الصحابية الكبيرة، ويربط الدواب في مساجدها العامرة، فلو كان أبو الخطاب مخلصاً للبربر - لأنهم بربر فقط - لوضع يده في يد عبد الملك وازداد بذلك قوة ونفوذاً...

إن أبا الخطاب مسلم قبل أن يكون عربياً أو بربرياً، وهو لم يعمل للوصول إلى الحكم وإنما أرغمته عليه الأمة إرغاماً، وهددته بالقتل إذا امتنع، وذلك حين ضج الناس من الظلم، وأصبحت الحرم التي قدستها الشريعة منتهكة، فقام بأمر الأمة، ودافع المنكر في أي مظهر ومن أي جنس، وحكم البلاد كما حكم عمر ابن عبد العزيز زمناً قصيراً؛ ولكنه كاف لإقامة حجة الله على البشرية؛ فقد ذاق فيه الناس النزاهة والعدل والمساواة واللجوء إلى كتاب الله فيها دق رجل من أمرهم.

فلماذا يأتي الأستاذ الزاوي بعد اثني عشر قرناً ونصف ليلمز أبا الخطاب هذه اللزمات الجائرة...

4 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 120: "وهذه الكلمة - أي لا حكم إلا لله 80 - التي اتخذها الخوارج ذريعة للخروج على سيدنا علي، وأصبحت شعاراً لهم، ولا ندري كيف يقولها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج، "إن الأستاذ الزاوي وهو يكتب تاريخ ليبيا كان أسير فكرة معينة، هذه الفكرة تتلخص في أن سكان ليبيا ينقسمون إلى قسمين: بربر وعرب، وأن البربر جمعهم جامعة واحدة هي أنهم خوارج، فهم بين

رديلتين في نظر الزاوي. كونهم بربراً. وكونهم خوارج. وهم لذلك يجب أن يتحملوا جرائم التاريخ. وعندما يثرون يقف الأستاذ الزاوي موقف القاضي الحازم دون أن ينظر إلى الموضوع. أو أن يستمع إلى دعوى الطرفين ويصدر حكمه بإدانتهم. وعندما يتصلون من تهمة ألحقت بهم أو ضلالة نسبت إليهم وقيمون على ذلك الأدلة والبراهين. بيتسم الأستاذ الزاوي ابتسامة صفراء. ويهز رأسه هزة خفيفة فيها مساييرة ظاهرة. وفيها تكذيب داخلي قاطع. فإذا بدرت من أحدهم كلمة أو إشارة. مال في جد ووقار إلى يمينه وإلى شماله يقول في صرامة: ألم أقل لكم إن هؤلاء يكذبون. إنهم بربر. وإنهم خوارج. أرادوا أو لم يريدوا. ياسبحان الله. لماذا هذا التحامل كله. إن هذا انحراف عن الصراط السوي. وابتعاد عن إعطاء النصفة والحق...

ماذا تعنى كلمة "لا حكم إلا لله" وما هي الظروف التي نشأت فيها. ولماذا يغضب عليها الأستاذ الزاوي؟ إننا لكي نجيب على هذه الأسئلة يجب أن نستعرض الفترة التاريخية التي ولدت فيها هذه الكلمة وموقف الأمة منها.

خالف معاوية بن أبي سفيان إجماع الأمة. وأشعل نار الفتنة. وجهاز جيشاً لمحاربة الخليفة الشرعي الذي اختاره المسلمون. وقابله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بما يقابل به خليفة شرعي فئة باغية؛ فجهز جيشاً من أبطال الإسلام. وقاده بنفسه والتقى الجيشان في صفين. وابتدأ القتال. وعرف معاوية أنه إذا لم يلجأ إلى الحيلة فإنه سوف يخسر القضية في أقرب ما يتوقع. ومهد لذلك بتكوين طابور خامس في جيش علي. ثم دعا إلى التحكيم.

وعرف علي وعرف الصحابة مقصد معاوية من التحكيم. وأنها إحدى المكائد التي تفتق عنها ذهن عمرو بن العاص. ولذلك قال علي: إنما قاتلناهم بكتاب الله. وأصر هو وأصحابه على الجهاد. ولكن الطابور الذي كان يقوده أكبر صنائع معاوية الأشعث بن قيس كان قد عمل عمله في الجيش ومالت الأغلبية إلى قبول التحكيم. وحينما كان علي والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقية الجيش بصواب موقفهم ونبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الخريبة التي لجأ إليها الفريق الباغي. لخص أحد أصحابه موقفهم في هذه الكلمة المشهورة "لا حكم إلا لله" وكانوا يصيحون بها في جوانب الجيش ويردها أنصار علي في كل موقف. وكان علي يستمع إليها راضياً بها وهو يناقش الناس ويدعوهم إل التمسك بضمون هذه الكلمة. وعدم الانخداع بحيل معاوية. لأن قصتهم واضحة. وقد حكم فيها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات...

وشاءت إرادة المولى سبحانه وتعالى لحكمة يعلمها أن لا تستجيب الأغلبية لعلي. وأن تميل أكثرية الجيش إلى دعاة الهزيمة. وأن يتغلب الأشعث بن قيس - صنيعه معاوية - على المناضلين من أجل الحق. فيجد الإمام نفسه مضطراً إلى التخلي عن مبدئه. وترك الصفوة من أصحابه ليحافظ على الأغلبية. ويسير معها: فرضى بالتحكيم مرغماً. وإلى هذه اللحظة التي رضى فيها علي بالتحكيم وموافقة الأغلبية. كانت كلمة - لا حكم إلا لله - تعبيراً عن موقفه. وشعاراً لمبدئه. بل إنها تعبير وشعار لكل مؤمن يحكم كتاب الله فيما شحرفه خلاف بينه وبين الناس.

وانعزل معارضوا التحكيم إلى جانب، واستمسكوا بموقفهم الذي كانت تعبر عنه هذه الكلمة أصدق تعبير، ونشأ عن هذا التطرف موقف آخر متطرف كل التطرف، فإن الكلمة حينما أطلقت وقصد منها أنه لا يجوز للناس أن يحكموا فيما نزل فيه حكم الله : وذلك ما فهمه الإمام علي ورضى به، وفهمه المعارضون وعملوا به، ولكن ناساً من المتطرفين فيما بعد، زعموا أنه لا حاجة إلى الإمارة، وأنه لا داعي لأن يكون للمسلمين حكومة، وحملوا كلمة "لا حكم إلا لله" هذا المقصد الهدام : وهذا التطرف هو ما سخطته الأمة، وردته عنهم، وتولى الإمام علي شرحه بإسهاب وإيضاح، لا يبقى بعده إشكال.

قال الإمام علي يرد على أولئك المتطرفين الذين خرجوا بكلمة "لا حكم إلا لله" عن معناها الذي وضعت له 81 : " كلمة حق يراد بها باطل - نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير برأو فاجر، يعمل في أمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ فيها الأجل، ويجمع بها الفيء، ويقاتل فيها العدو، وتؤمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح برٌّ، ويستريح من فاجر "

فهل يرضى الأستاذ الزاوي أن يكون الإباضية على رأي أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، فيعترفون أن كلمة "لا حكم إلا لله" كلمة حق كما يعترف بذلك أمير المؤمنين، فقال نعم إنها كلمة حق، فإذا تنطع متنطعون فأرادوا بها الباطل وتطرف متطرفون فزعموا أن الأمة ليست في حاجة إلى الإمارة، فإن الإباضية يردون هذا الباطل كما ورد الإمام، ويدفعون هذا التطرف كما دفعه ولا

كما يحملونها غير المعنى الحقيقي الذي وضعت له...

فهل يظن الأستاذ الزاوي أن أمير المؤمنين كان من الخوارج لأنه ينطق بكلمة "لا حكم إلا لله" ويعترف بأنها حق، ويتخذها شعاراً، وهو يحارب خدع المحتالين، وكيد الكائدين، فلما جاء قوم وخرجوا بها عن معناها وعن الغرض الذي قيلت فيه، شرحتها شرحه الخالد الذي حدد فيها حدود الحق والباطل، فنص أنها كلمة حق، وأن الباطل فيها هو هذا التطرف والغلو، الذي يزعم أن الأمة لا حاجة لها في الإمارة، فرد عليهم رده الحاسم - ومن المؤسف أن المتطرفين من الجانب الثاني حملوا كلام الإمام علي غير ما يريد.

وابتسروا منه جملة واحدة يؤيدون بها ما يريدون، وعندما يسمعون كلمة "لا حكم إلا لله" يردون بسرعة " كلمة حق أريد بها باطل " ولا يحملون أنفسهم مشقة الفهم : فهم سياق الكلام، الذي شرح به الإمام هذه الجملة، فلا ينظرون إلى قوله : " نعم إنها كلمة حق " ولا إلى قوله الذي أوضح به موضوع النقد : " ولكن هؤلاء يقولون " : " لا إمرة إلا لله ".

إن أمير المؤمنين لم ينتقد كلمة الحق وإنما انتقد التطرف فيها، والخطأ في فهم معناها، والإباضية كسائر المسلمين ينتقدون هذا التطرف وهذا الخطأ

فهم لا يحفلون بأراء الناس فيما نزل فيه حكم الله، وهم يدعون إلى تكوين دولة مسلمة ترعى الأمة المسلمة، ويطالبون أن تكون الدولة مخصصة في العمل باحكام الله، فإذا انحرف ولاه

الأمر عن دين الله طالبوهم بالرجوع إلى دين الله.

ولو تأمل الأستاذ الزاوي سيرة الإباضية في مختلف أدوار التاريخ، ووزنها بميزان الحق، مبتعداً عن المؤثرات الخارجية، التي تركت في نفسه رواسب حول دون الإنصاف، لكان حكمه عليهم أنزه، وموقفه معهم أشرف وأكرم، وكفاهم وكفى نفسه هذه اللزمات المتنثرات ...

5 - قال الأستاذ الزاوي في كتابه السابق ص 122 :

واستولى أبو الخطاب على عسكره - أي عسكر أبي الاحوص العجلي - ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس. وكان ذلك سنة مائة واثنين وأربعين هجرية.

هذه لمزة خفيفة، قد يكون الأستاذ الزاوي استند فيها إلى مؤرخين لا يتحررون الحقيقة ولا يستحلون الوقائع كما هي.

وإلا فإن الأستاذ الزاوي يعلم أن أبا الخطاب لا يستحل أموال البغاة من المسلمين، ولا يسمح لجنده أن يغنموا منها شيئاً، وقضية أبي الخطاب مع جميل السدراتي واضحة الدلالة في هذا الموضوع.

فإن أبا الخطاب بعد أن انتصر على ورفجومه في القيروان، واستسلمت له المدينة، تفقد القتلى فوجد واحداً منهم مسلوباً وسأل عن السالب فلم يعرفه، فاصدر أمره في الجيش أن يرد السلب الذي أخذ من القتل، ولكن أحداً لم يبادر إلى رد ما سلب، وفي الطريق جرى سباق بين الفرسان واشترك فيه جميل السدراتي، فشاء له سوء حظه أن يسقط عن فرسه

ويتكشف سرجه عن المتاع المسلوب، فأخذه الإمام وأجرى عليه الأدب، وغضب جميل وفر إلى العراق، وبقي سنة كاملة في بغداد يحرض الخليفة أبا جعفر المنصور على أبي الخطاب لينتقم لنفسه.

هذه قصة جميل السدراتي ملخصة، وإن إماماً يعاقب فرداً واحداً من الجيش غره الشيطان فأخذ قتيل، لا يمكن أن يغنم الغنائم الكثيرة، ويرجع بها إلى طرابلس.

على أن سيرة أبي الخطاب في الحروب معروفة، وحكم الإسلام في هذا واضح لا غموض فيه ولا إبهام.

وتاريخ الإباضية في حروبهم مع الموحدين جرى على نسق واحد لا طغيان فيه ولا تعدى، ولا أستحلال لمرض أو غنيمة لمال.

وكما نظفت يد أمير المؤمنين على بن أبي طالب من أموال أتباع طلحة والزبير وأموال معاوية، وجميع من حاربه من المسلمين، كذلك نظفت أيدي الإباضية من أموال محاربيهم، وإنك لتستطيع أن تضع كشفاً بأسماء من ولى الحكم في ليبيا من الإباضية، فتكتب أسماء: الحارث بن تليد: أبي الخطاب عبدالأعلى: أبي حاتم الملووزي: أبي منصور إلياس: أبي عبدة عبد الحميد الجناوني: أبي الحسن أيوب بن العباس: أبي زكريا التندميري: أبي زكرياء الباروني: أبي يحيى الأرجاني: أبي محمد الدرفي: أبي عبدالله اللالوتي، وعشرات غيرهم، فسوف تجد أن هؤلاء جميعاً يحرصون كل الحرص - عندما ينتصرون على محاربيهم من الموحدين - أن لا يتعدوا فيهم حكم الله فلا

يقطعون رأساً، ولا يمثلون بقتيل، ولا يجهزون على جريح، ولا يتبعون مدبراً، ولا يغنمون مالا، ولا يهتكون سترًا.

وقد شهد التاريخ أن أبا الخطاب عاقب الجندي الذي مد يده ليسلب قتيلًا وأن أبا حاتم هدد بترك القيادة إن لم يرد ما أخذ من المعركة، وأن أبا منصور ترك أحمال الذهب تتناثر في ميدان المعركة دون أن يلتفت إليها، وأن أبا زكرياء جمع ما تركه العدو الهارب من مال وسلاح فأوقد فيه النار؛ وإن قومًا يقفون هذه المواقف لا يصح أن يقول الأستاذ الزاوي في رئيسهم :

" ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس "

6 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 122 :

" ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر ليغزو أفريقيا، فلا يمكن أن يصل واحد من عشرين من جيش البربر، الذي يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش، ولكن النصر بيد الله والله مع الصابرين. "

هذه زاوية كثيراً ما يلجأ إليها الأستاذ الزاوي، وهو يريد أن يوحي إلى القراء الكرام أن الثوار الذين يقاومون ظلم الاستبداد مبطلون، وهو يزعم أن الجيوش النائرة أو فرد عدداً من الجيوش الظالمة، فإذا انتصر العدد القليل فذلك يعنى أن الحق بجانبهم، ولندع النصر والهزيمة بيد، فإن حكمة الله في مداولة الأيام بين الناس لا يعلمها إلا هو.

ولكنه بحق لنا أن نناقش الاستاذ الزاوي - الذي يدعى أن الخلافة العباسية لا تستطيع أن تجهز جيشاً يبلغ واحداً من

عشرين مما يستطيع البربر أن يعدوه - وأن نفند له هذا الزعم استناداً إلى منطق الواقع، ودلالة التاريخ، ومجرى الحوادث، غير خاضعين للعواطف، ولا متأثرين بالإيحاء.

كلمة الأستاذ الزاوي السابقة وردت تعليقاً على الحروب التي وقعت بين محمد بن الأشعث القائد العباسي، وأبي الخطاب الذي بايعه الليبيون إماماً.

فما هي إمكانيات كلا الرجلين ؟ وما هو عدد الجند الذي يستطيع أن يعده كل واحد منهما ؟

نتلخص إمكانيات أبي الخطاب فيما يأتي :-

حكم أبي الخطاب يمتد ما بين القيروان وسرت، ويشمل الجنوب الليبي التونسي.

كثير من القبائل البربرية لا تخضع لحكم أبي الخطاب حتى في هذه البلاد ولا سيما من كان منها على مذاهب الإزارقة، أو الصفرية، أو المعتزلة.

عدد السكان في هذه المملكة لا يكاد ربع سكان مصر فقط. ليس لأبي الخطاب جند تتكفل الدولة بالإنفاق عليه ويبقى مستعداً للحرب على الدوام، وإنما يعتمد أبو الخطاب على المتطوعين الذين يحاربون من أجل المبدأ، أو من أجل العقيدة، فإذا دعاهم داعي الجهاد، زدوا أنفسهم وسلحوها، وذهبوا إلى الحرب دون أن يكون لهم أمل في مكسب مادي مطلقاً، فلا أجرة ولا غنيمة، فإذا انتهت الحرب رجعوا إلى أعمالهم الحرة.

هذه إمكانيات أبي الخطاب تقريباً، أما إمكانيات محمد بن الأشعث فتتلخص فيما يلي :

إن الجيش الذي جاء به محمد بن الأشعث إنما جهزه أبو جعفر المنصور.

يخضع لأبي جعفر في ذلك الحين : العراق والشام، والجزيرة العربية ومصر والمغربان : الأوسط والأقصى.

سكان مصر وحدها يبلغون أربعة أضعاف سكان مملكة أبي الخطاب.

لأبي جعفر جند تحت السلاح تدفع الدولة لهم مرتبات دائمة، وعند اللزوم تلتجىء إلى التجنيد الإجباري.

هـ - جهز أبو جعفر هذا الجيش بقيادة محمد بن الأشعث بعد تخريض من خالد الزناتي الذي أراد الانتقام.

بعض الإمكانيات التي كانت تحت يد محمد بن الأشعث، وبالنظر إليها يتضح للقارئ الكريم أن ابن الأشعث يستطيع أن يجهز جيشاً يبلغ عدد سكان مملكة أبي الخطاب - لا عدد جنده فقط - ولا تزال هذه الحقيقة باقية إلى اليوم، فإن سكان المغرب كله بما فيه ليبيا، وتونس والجزائر، والمغرب الأقصى، قد لا يزيدون عن سكان مصر وحدها، فكيف تكون النسبة عندما يكون القسم الأول مقتصرًا على بعض ليبيا وبعض تونس، ويضاف إلى القسم الثاني : الشام، والعراق، وما يتبعها.

من هذا ترى أن الأساس الذي يبنى عليه الأستاذ الزاوي فكرته لا ظل له من الحقيقة.

ولقد ينخدع القارئ البسيط من التهويل الذي يعتمد عليه الزاوي؛ ولكن معرفة هذه البلاد اليوم وما تشتمل عليه من سكان، وماهي الجيوش التي يمكن أن تعدها ينسف تهويل الأستاذ الزاوي، ويذيب الإيهامات التي يريد أن يوحى بها.

أما قضايا النصر والهزيمة بين الجيوش المتحاربة فتلك أمور بيد الله، ولها أسبابها ودواعيها، وليست الكثرة أو القلة، والنصر أو الهزيمة هي دلائل الحق دائماً، ولا سيما عندما تكون الحروب بين فرق من المسلمين، ولقد انتصر الأمويون على الحسين ولد بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلوه، وقطعوا رأسه، فهل يعنى ذلك أنهم على حق وأنه على باطل؟

وفي هذه المعركة التي انتصر فيها ابن الأشعث على أبي الخطاب نستطيع أن نعرف الأسباب التي أدت إلى نتائجها التاريخية، وتتلخص تلك الأسباب فيما يلي :

1 - ليس لأبي الخطاب جيش نظامي مقيم تدفع له المرتبات من خزينة الدولة، ولا عمل له إلا الحرب.

2 - يتكون المحاربون مع أبي الخطاب من المتطوعين الذين يحضرون عندما تعلن الحرب، معتمدين على أنفسهم في زادهم وسلاحهم، وينصرفون عند نهاية المعارك، ليقوموا بأعمالهم.

3 - دعا أبو الخطاب الناس إلى ملاقاته محمد بن الأشعث فتكون له جيش قوي، ولما علم به ابن الأشعث أظهر أنه عدل

عن محاربة أبي الخطاب، وأمر جنده بالرجوع إلى مصر، وقتل من عارضه في فكرة الرجوع.

4 - وليس ذلك كله إلا حيلة يفرق بها جيش أبي الخطاب، ولما سمع أتباع أبي الخطاب برجوع ابن الأشعث ذهبوا إلى أعمالهم - لاسيما والوقت كان وقت حصاد زرع، فلم يبق معه إلا عدد ضئيل من ليست لهم أعمال متسجلة، وما علم ابن الأشعث بانطلاء حيلته على جيش أبي الخطاب، وتفرق الناس عنه، حتى أغذ السير راجعاً، وفاجأ أبا الخطاب في قلة، فأعمل فيهم السيف، فيقبلون إلى موطن الحرب فرادى وجماعات، فيتلقاهم ابن الأشعث وهو مستقر مطمئن وبهد هذه الجماعات المقبلة، حتى بلغ عدد القتلى في بعض الروايات أربعة عشر ألفاً، وليست هذه الواقعة حرباً كالحروب التي تقع بين جيشين متصادمين، ولكنه حكم بالقتل على ناس يجهل أكثرهم الظروف التي هو مقدم عليها، ولكن تنصور حقيقة الموقعة ضع في حسابك جيشاً يتكون من خمسين ألفاً على أقل تقدير، بهجم على بضعة آلاف - على حين غفلة - فيقتلهم عن آخرهم، ثم يبقى متربصاً فتقدم عليه شرادم من الناس في جماعات تتكون من العشرات - لا من المئات - فيتلقفهم جماعة بعد جماعة، حتى لا يجد المزيد، وحينئذ يسير بهذا الجيش الكبير يتتبع السكان في القرى، وفي المدن! وفي البادية، يقتل ويسلب ويغنم.

5 - تلك هي صورة الموقعة، ولا داعي فيها للإبهام أو التضليل، وتكثير بعض الجيوش، وتنقيص غيرها، فإن الكثرة أو القلة في هذا الصدد لا قيمة لها.

6 - ولعل أول من خطرت له فكرة الاحتجاج بالقلة والكثرة، واعتبر انتصار القلة دليلاً على الإيمان، هو الشاعر الخارجي حيث يقول:

ألفاً مؤمن فيما زعمتم ويغلبهم باسك أربعونا

كذبتهم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

فماذا يجيب الأستاذ الزاوي على هذا الشاعر؟

إننى أرجو أن لا يضيق تفكير الأستاذ الزاوي هذا الضيق فيعتنق هذا الرأي.

7 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 146: "وإن دلت هذه الخرافة على شيء، فإنما تدل على الطعن في رواية الأخبار، وقلة التحري في نقلها".

يقول الأستاذ الزاوي هذا الكلام تعليقا على خبر نقله في كرامة نسبت إلى العلامة الكبير الشيخ مهدي الويغوي النفوسي، وقد نقل القصة الشماخي فلم يبد فيها رأياً، ونقلها سليمان باشا الباروني فعلق عليها بقوله: "وإن لله خرق العوائد فلا غرابة" ويظهر أن هذا التعليق من سليمان باشا هو الذي أغضب الأستاذ الزاوي، فعلق عليها بالتعليق السابق، بل لقد اختبرها بمقياس العقل والمنطق فلم تثبت في الاختبار.

ويؤسفني حقاً أن يحد عن الإنصاف مؤلف مسلم في هذا العصر، فينصب نفسه حكماً في التاريخ يثبت هذا أو يسقط ذلك، فالأستاذ الزاوي نفسه الذي يستكثر هذه الكرامة على

مؤمن من المؤمنين ينقل عدداً غير قليل من هذه الكرامات لأشخاص آخرين رضى عنهم : بعضها أغرب من هذه الكرامة التي يكذبها ويجعلها خرافة. وأنا حين أخذت عن الكرامة سواء منها ما نقله الباروني أو ما نقله الشماخي أو ما نقله الزاوي أو ما وجد في كتب التاريخ لغيرهم احترس. فلا أزعم أنني أكذبها ما دام أصحابها مشهورين بالصلاح. معروفين بالتقوى.

إن الأستاذ الزاوي الذي يستكثر أن تنسب الكرامة إلى مهدي النفوسي. ويحسب ذلك خرافة ويجعل. نقلها سببا للطعن في اخبار ناقلها وعدم خريهم. هو نفسه ينقل عدداً غير قليل مما يسميه كرامات في كتابه " أعلام ليبيا " وينقل في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " ما يلي:

" جاء في رياض النفوس : أن عقبة قال في ندائه : أيتهما السباع ؟ ادخلوا ! فإننا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الناس في ذلك اليوم إلى أمر عظيم نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء تحمل أشيالهها. والذئب يحمل اجراءه والحية تحمل أولادها. سمعا وطاعة " .

نقلت هذه القصة عن الأستاذ الزاوي لا لأكذبها ولكن لأبين للقارئ الكريم أن الأستاذ الزاوي لم يكن منصفاً وهو يستعرض أحداث التاريخ. فهو في قصة مهدي يريد أن يخضع الكرامة للعقل والمنطق. ولكنه في كرامة عقبة ينسى العقل والمنطق.

وإلا فأى عقل اليوم يصدق أن رجلاً يقف بجانب دغل ويأمر ما به من الوحوش بالخروج. فتسمع له وتطيع. ثم تبدأ في تنفيذ

الأمر والناس ينظرون. فإذا بالسباع والذئاب تخرج من بينهم حاملة أجراءها. وإذا بالحيات تحمل أولادها. فإذا صدق العقل هذه الهدنة التي وقعت بين الوحوش فكانت تخرج أسراباً مع بعضها البعض لا يثب الذئب على الطيبي. ولا يعدو الأسد على الوعل وقبل هذا الموقف الذي يصور الوحوش وهي تستعرض رشاقتها : فتخرج بين صفوف من الناس الذين وقفوا يمتعون أنظارهم بهذا المنظر الفريد.

إذا قبل العقل كل ذلك وطلب إلى هذا الرجل الذي روى القصة وشاهد الحيات تحمل أولادها وهي منطلقة في زحفها خارج الدغل أن يصف كيف تحمل الحيات أولادها ؟ هل تربطها على ظهرها وهي خارجة تتلوى. وهل كانت تركبها على الطول أم العرض. أم أنها تمسكها من أذناها الدقيقة وتجرها معها. وهل كانت عاطفة الأمومة عند الزواحف في ذلك الحين أقوى منها الآن. بحيث خضن بيضها وتنظره حتى يفقس فتتولى تلك الفراخ الزاحفة بالرعاية. حتى إذا انتقلت نقلتها معها ؟.

أليست هذه القصة ما لا يقبله العقل. ألا يدل نقلها على عدم التحري في نقل الأخبار ...

إنني لا أستكثر على عقبة بن نافع هذه الكرامة أو أكبر منها أو أصغر ولا أستكثر على غيره من المؤمنين الصادقين أن يفيض الله على أيديهم ما يشاء من الأسرار.

ولكنني أحادث الأستاذ الزاوي بالعقل الذي يحتكم إليه حيناً ويتركه حيناً آخر. أما أنا فأحسب أن الكرامة غير خاضعة

لمقاييس البشر. فإذا أردنا أن ندخلها في حساب التاريخ فعلياً أن ننقلها كما رويت لا نخرقها بالخيال. ولا نشوهها بالنقد. ولا نستكثرها على رجل اشتهر بالتقوى والصلاح. فإن يبايع رحمة الله وقبول أعمال شخص من الأشخاص ومنزلته عند الله مما لم يكشف عنه الغيب. ولم ترفع عنه الحجب.

والعلماء الذين خدثوا عن كرامة الأولياء ذهب أكثرهم إلى أن الكرامة لا تأتي مع التحدي فتقلب معجزة. كما أنها لا تكون تابعة للرغبة والإرادة. ولا تكون بحال من الأحوال لصاحب معصية ...

وكيفما كان الحال فإن المؤرخ النزيه يجب أن يكون له خلق يعصمه من التجني على عباد الله. وأن يتخذ لنفسه مبدءاً يسير عليه. ويحتكم إليه متجرباً عن روايب العصبية المجنونة ...

8 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 164 :

" أما الإباضية فكان موقفهم من الشيعة هو موقفهم من أهل السنة. موقف التحفظ. وعدم الأمتزاج. والنظر إلى غير العنصر البربري نظرة الغريب المحتل. وعلى هذا دأبوا. ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا ".

هذه لمزة لئيمة من الأستاذ الزاوي. وهي تناقض نفسها. فبينما يقرر في أول هذا الفصل نفسه : أن دولة الشيعة دولة بربرية. يقول : إن الإباضية يقفون معها موقف التحفظ وعدم الأمتزاج. ثم يزعم أن الإباضية ينظرون إلى غير العنصر البربري نظرة الغريب المحتل.

لماذا ينظر الإباضية إلى الشيعة نظرة الغريب. ويقفون معهم موقف التحفظ وهم بربر. لو كان للجنس عندهم حساب ؟

عجباً : إن الإباضية يقاثلون " ورفجومة. وصنهاجه. وكتامة " وهي أكبر قبائل البربر. ومع ذلك يرميهم الأستاذ الزاوي بالتعصب العنصري للبربر. ثم يزعم أنهم دأبوا على هذا التعصب العنصري. وأنهم لم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا. وهو بهذا الكلام يناقض نفسه. فبينما يزعم في صفحة 164 : أن الإباضية لم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا يقول في نفس الكتاب صفحة 126 : " وكان الإباضية أقرب طوائف البربر إلى العرب. وأقل نزاعاً معهم. ولذلك جد أكثر الثوار على أمراء أفريقية العرب من الصفرية وغيرهم من النحل المتطرفة ". انتهى كلام الزاوي بحروفه.

إنني أضع هذا الكلام المتضارب المتناقض أمام القارئ الكريم ليعلم أن الزاوي حينما كان يكتب التاريخ الليبي لم يكن رائده الإنصاف والحق. وأنه لم يحمل نفسه عناء التفريق بين اجناس الناس ومذاهبهم الدينية. ومبادئهم الاجتماعية أو السياسية. وأنه كثيراً ما يعمد إلى الغموض والإبهام للتمويه. وأنه لم يصدق في تحليل الأحداث التاريخية. لأن قضية العنصرية كانت تشغل كل حيز في تفكيره. فهو لا يقبس حياة العصور إلا بهذا المقياس. لا يبالي فيها الحق أو الخلق أو الدين.

وإنها حقيقة تاريخية أن يعرف الأستاذ الزاوي أن الإباضية لم يفكروا يوماً من الأيام في الجنس البشري الذي ينتسبون إليه.

ولم يفرقوا بين البربر والعرب وغيرهم من الناس. فهم يعتبرون المسلمين إخوة. يتولون من تثبت عندهم عدالته واستقامته، ويبرأون من ثبت عندهم عصيانه، وفسوقه، ويقفون فيمن لا يعرفون موقف التحفظ : هذا الموقف المحدود الذي يقفه الإباضية مع العرب، ومع البربر، ومع الترك، ومع الهنود، ومع غيرهم من الأجناس. ولو راجع الأستاذ الزاوي أحداث التاريخ التي رواها هو نفسه، ونزه قلمه وقلبه من الرواسب التي تركتها فيهما عنصرية بغیضة، لرأي أن الإباضية لم يتأثروا في أي يوم بجنسهم، لأنهم هم أنفسهم يتكونون من عرب وبربر وفرس وغيرهم، وأن حفظهم إذا حفظوا في موقف مع فرقة من المسلمين تخالفهم في المذهب، فذلك راجع إلى أصولهم الدينية فحسب، كما تحفظ كل الفرق بالنسبة إلى مخالفيها.

والحروب التي دفع إليها الإباضية في ليبيا أو تونس أو في الجزائر كان أكثرها مع البربر لا مع العرب، كما أن الحروب التي دفعوا إليها في عمان أو في العراق أو الجزيرة كانت مع العرب.

ومن هذا يتضح أن ما يريد أن يوحى به الأستاذ الزاوي من تفريق كلمة الأمة باطل من أساسه، وأن كلمته : " ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا " لمزة لئيمة متجنبة يكذبها الواقع والتاريخ أشد تكذيب، ولعله من المناسب أن استشهد في هذا المقام بالكلمة الرائعة التي علق بها أمير السيف والبيان سليمان باشا الباروني - أعظم رجل أجبته ليبيا في تاريخها الطويل - على " سلم العامة والمبتدئن " قال الباشا الباروني في تعليق له على الانقلاب السلمي الذي قام به الإباضية بقيادة

أبي الخطاب عبدالأعلى :

" ربما يفهم من لا علم له، من مثل هذه الحركة، أن الإباضية يوجبون الخروج على كل حال، أو يوجبون أن يكون الإمام منهم لا بد في كل وقت، وغير ذلك، مما هو من قواعد الصفرية والأزارقة، والشيعية التي هي كثيراً ما نسبها متعصبوا المؤرخين للإباضية، وليسوا منها على شيء، وكتب الإباضية تشهد بذلك ".

فالإباضية ليسوا منغلقي الذهن، فيتجاهلون العالم الإسلامي الفسح، وما يضطرب فيه من آراء وأفكار واتجاهات وقوى، ولذلك فعندما يكون السلطان منهم يوجبون عليه أن يسير سيرة العدول في المسلمين باختلاف مذهبهم ونحلهم، وإذا كان السلطان من غيرهم من الفرق المسلمة يتعاونون معه في إخلاص، مادام محافظاً على حدود الله، قائماً بدين الله على مذهبه، فإذا انحرف عن ذلك فإن الإباضية لن يتعاونوا مع منحرف عن دين الله، فإذا بلغ به الطغيان إلى استحلال الدماء والأموال التي حرم الله، فزع الإباضية إلى سيوفهم، فردوا عدوان المعتدين إلا إذا لم يستطيعوا.

وهذا الموقف هو موقف الإباضية بالنسبة إلى ولاية الأمور : سواء كانوا أشعرية، أو شيعة، أو معتزلة، أو إباضية، أو من غيرهم من الفرق، فهم إنما يطلبون من ولاية الأمور استقامتهم وعدلهم واهتمامهم بقضية الأمة، ولا يهتمون لمذاهبهم وأجناسهم.

ومن رجع إلى جميع الثورات التي قام بها الإباضية في ليبيا والتمس أسبابها فإنه لن يجد إلا رداً لعدوان أو طلباً لحق، ولن

يجد في تلك الأسباب نزاعاً على سلطة أو طلب الدنيا، أو رغبة في مال.

9 - يقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 173 :

" وكان معه - أي مع المعز - جماعة من الإباضية، فهربوا إلى إخوانهم في جبل نفوسة، فلم يبالهم، وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين ".

هكذا يقول الأستاذ الزاوي، لا يخشى الله، ولا يستحي من الناس.

إن المعز أذكى من أن يطمع في أن يكون في جيشه ناس من الإباضية يساعدونه على الظلم، ويقومون معه بالعدوان، ولذلك فهو لم يطالبه بذلك، ولم يرجه منهم، وما حفظ التاريخ أن الإباضية دخلوا في جند مرتزقة، يعملون فيه بأجر دنيوي، إنهم إما أن يحاربوا من أجل إعلاء كلمة الله فلا يتقاضون على ذلك أجراً من غير الله وحينئذ لا يكونون أعواناً لظالم كالمعز، وإما أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم.

أما أن يكونوا آلة يسيرهم طلاب الشهوات وعبيد الدين من ملوك الأرض فذلك ما لم يسجله عليهم التاريخ في يوم من الأيام قبل الحروب الإيطالية في ليبيا.

أما هؤلاء النفر الذين قبض عليهم المعز - وهو مرخل إلى مصر - خوفاً من أن يقوضوا دعائم ملكه من بعده، فلما وصل طرابلس وجدوا غرة من حرسه، ففروا إلى إخوانهم، واعتصموا بالجبل المنيع الذي صمد للعدوان قروناً متطاولة - أما هؤلاء

النفر فلبسوا على الظلم، ولكنهم كانوا من الشخصيات القوية ذات النفوذ، وكان يخشاهم في مغيبه، ولذلك حرص أن يأخذهم معه، فلما هربوا منه إلى الجبل أقض ذلك مضجعه، ولكنه كان لا يستطيع صنع شيء من أولئك الأبطال الذين يعتصمون بالقمم الشمام، فإن الجبل كان ملجأ للأحرار عندما تضيق بهم مواطن الطغيان، وفي هذه الحادثة التجأ إلى الجبل عدد غير قليل من عسكر المعز، من مختلف المذاهب والطوائف، كما ألتجأ إليه زعماء الإباضية.

قال الأستاذ أحمد النائب في تاريخه " المنهل العذب " صفحة 100 :

" وسار-أي المعز - إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه، فهرب منه جمع من عسكره إلى جبل نفوسة، فطلبهم فلم يقدر عليهم ".

وهذا نص يكذب زعم الزاوي : أن المعز لم يبال الجند الفار إلى جبل نفوسة ولكنه طلبهم فعجز عنهم.

بقيت الكلمة الأخيرة التي انطلقت من الأستاذ الزاوي كما تنطلق كلمة السب من المغيظ، وهي قوله : " وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين ".

هل فكر الأستاذ الزاوي قبل أن يرمى هؤلاء الناس بالنفاق، وحاسب نفسه وضميره، وعرف الحقيقة التي كان عليها القوم. إن الحكم بالنفاق على رجل يؤمن بالله ليس أمراً سهلاً، فهل يسمح لنا الأستاذ الزاوي أن نستعرض الموقف التاريخي في ذلك

الحين على حسب ما يتصوره الزاوي نفسه. ونرى ما هو الحكم الديني الصحيح الذي يمكن أن نطلقه على أولئك الناس الذين تفصل بيننا وبينهم عشرة قرون.

هذا ملك غرته الحياة الدنيا ونسى أنه بشر ضعيف، وخذعه الشعراء بقولهم فيه :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

هذا الملك المغرور الذي يستمع إلى الكفر الصراح بمدح به، يجهز جيشاً ينفق عليه الملايين من أموال الأمة، ليحارب به المسلمين في مصر وسوريا، فإذا كان ببعض الطريق يفر جمع من هذا الجيش الذي يرغم على محاربة الإخوان في الدين، ويلتجئون إلى حمى منيع لا تصله يد هذا الملك، فما هو الحكم فيهم يأتري ؟

إن الأستاذ الزاوي يحكم عليهم بأنهم منافقون ؟

فما هو الإيمان إذن في نظر الزاوي ؟ إنه استعباد الناس، واستحلال دمائهم وأموالهم، ومشاركة الله في ملكه، والعدوان والبغى، والظلم، فتلك هي أعمال أولئك الذين يرى الزاوي أن الخروج عليهم نفاق، ذلك هو المعنى الذي يسلم إليه منطق الأستاذ الزاوي. ولكننا نظن بالأستاذ الزاوي خيراً، ونحسب أن المقاييس لم تنقلب عنده هذا الانقلاب، ولكنه رجل مخدوع بالمظهر، فهو يحسب أن مخالفة الحكام وعدم الانقياد لهم حتى في ارتكاب المعصية أمر لا يصح، ومن خرج عن طاعة ولاية الأمر - ولو كانوا ظلمة فاسقين - حكم عليه بالنفاق ؛ وهذه

وجهة نظر ذهب إليها كثير من الفقهاء المرتقة، والسائرين في ركاب الظالمين ؛ يبررون أعمالهم، ويمهدون لسلطانهم.

وقد يكون الأستاذ الزاوي أحد هؤلاء الذين يعجبون بذوي السلطان كيفما كانوا.

لو كان هذا المعز يقود الجيش للجهاد في سبيل الله، ومحاربة أعداء الإسلام لوقفنا مع الأستاذ الزاوي نشيد بأعمال هذا السلطان، ولكن هذه الجيوش موجهة إلى محاربة أمة مسلمة في وطن مسلم، حكمها دولة مسلمة، ليس سلطانها أسوأ من السلطان الغازي، فكان معقولاً أن يحكم على هذا الغازي بالنفاق، وعلى من رغب من جيشه في هذا العدوان ورضى به.

هذه لمزات قليلة أعرضها على القارئ الكريم من كتاب واحد من كتب الزاوي، ولا يزال في الكتاب عدد غير قليل من هذه اللزمات تدق، حتى تكاد أن تختفي، وتستعلن حتى تنطلق في صورة سباب أو شتيمة، وفيما اطلعت عليه من كتب الزاوي التاريخية كثير من هذا التجني على الحقيقة وعلى التاريخ.

ويؤسفني وأنا أناقش الأستاذ الزاوي مناقشة الأخ لأخيه، أن أضطر إلى العنف أحياناً، فإن لؤم بعض العبارات، وإيغالها لها في إيقاد الفتنة، ومحاولتها للتفريق بين عناصر الأمة، لا تترك في صدر الحليم مكاناً للصبر.

لقد كنت أرجو من الأستاذ الزاوي أن يوجه نظر الأمة إلى عدو الإسلام الخارجي، وأن يدعوا إلى تكوين كتلة واحدة من أمة واحدة.

[إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ]

وإذا كان الكتاب الكريم يقرر أن جميع الأمم التي استجابت لرسول الله في مختلف أدوار التاريخ هي أمة واحدة، فكيف بالفرق التي استجابت لمحمد صلى الله عليه وسلم.

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي هذه الأمة التي تنتشر ما بين الهند والمحيط الأطلسي، بجميع أجناسها، وألوانها، وأشكالها، ومذاهب أهلها، لا يخرج منها إلا شخص لم يؤمن بالله أو برسالة محمد، فهو لا يزال مرتعنا بكفره، مرتكساً في رجسه، أو شخص غرته الدنيا فأسلم زمام نفسه للشيطان بعد أن آمن بالله، فأنحرف بعمله عن دين الله، فالأمة منه أن يهجر الموبقة، ويعاود التوبة، ويعود إلى صفوف الأمة.

وإنه لواجب على علماء الإسلام أن يطهروا قلوبهم من المعصية، وآراءهم من السطحية، وأحكامهم من التبعية، وأن لا يحكموا بالخطأ أو الصواب الجماعي دون تفريق بين عمل الفرد ورأي المذهب.

وأن يدرسوا آراء جميع الفرق والمذاهب كما وردت في مصادرها، وأن يزنوها بالميزان الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...

المجتمع المسلم

في الفصول السابقة من هذا الكتاب، قدمت لك أيها القارئ الكريم صوراً حقيقية عن الرجل المسلم الإباضي، انتزعتها من مجرى حياته اليومي، وقد تتبعته سلوكه في أحواله المختلفة، عندما يكون على رأس دولة مستقلة كاملة الاستقلال، وعند ما يكون قائداً للجيش يدخل معاً مع الحرب فينتصر أو ينهزم، وعندما يكون حاكماً على قطعة من أرض الوطن، ينفرد بها، أو يرتبط برئيس أعلى، وعندما يكون جندياً بسيطاً يسير مع الجحافل الجارية لدفاع أو هجوم، وعندما يكون داعية يحمل رسالة الإسلام، وليس له إلا دينه وخلقه وعلمه، وعندما يكون عالماً يغذي عقول الشبيبة بالمعرفة والعلم، وقلوب الكهول بالوعظ والإرشاد، ويذود عن دين الله جرائيم البدعة والخرافة والجهل، وعندما يكون طالباً يتخطى رقاب الزملاء في ميادين العرفان، وعندما يكون عاملاً يشتغل بالزراعة أو الصناعة أو التجارة، وعندما كان يكافح في أي سبيل من سبل الحياة، وفي المخطط الذي وضعه الإسلام لأبناء الإسلام ...

قدمت لك صوراً من حياة الرجل الإباضي في جميع ميادين الحياة التي سار فيها أولئك الناس، كأفراد وكمجموعات، وكأمة ... وقدمت لك صوراً من حياة المرأة الإباضية في سلوكها

المستقل لنفسها، وفي سلوكها في نظام الأسرة. وفي سلوكها في مجتمعها الضيق، وفي سلوكها باعتبارها فرداً من الأمة، وبعد اطلاعك على الصور التي أخذتها لك من واقع الرجل، والصور التي أخذتها لك من واقع المرأة تستطيع أن تبين ملامح المجتمع الإباضي، وهو يشق لنفسه طريق الحياة في موكب التاريخ الضخم.

وبعد أن وضعت بين يديك أيها القارئ الكريم هذه الصور من حياة الأفراد التي منها جميعاً تتكون الصورة الكاملة لحياة المجتمع، بعد هذا أريد أن أأخذ معك عن موضوع تعرفه حق المعرفة، لتقيس عليه تلك الصور التي وضعت بين يديك في الأحاديث السابقة، علك تستخرج من المقارنة بعض الحقائق التي تهم المفكر المسلم.

أريد أن أأخذ إليك عن المجتمع الإسلامي النظيف قبل أن ينحسر عنه ذلك المد الفياض من هداية النبوة والسيره الرشيدة لخلفاء محمد عليه السلام، فيتطرق إلى ذلك المجتمع فساد الحكم، وظلام الظلم، وانحلال الخلق، وأدران الرفاهية والترف، وما يجركل ذلك من النكبات..

فما هي الصورة التي يجدها الباحث لذلك المجتمع الذي كونه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغذاه بهداية الوحي وأخلاق النبوة ؟

ما هي حياة الرجل ؟ ... وما هي حياة المرأة ؟ وما هي صورة المجتمع الذي يتكون منهما ؟

كان الرجل في ذلك العهد الزاهر بطلاً في الميدان، يكافح في سبيل الله لنشر الإسلام والسلام، وطالب علم يقبل على حفظ ما تيسر من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، ورب أسرة يشتغل في تجارة أو زراعة ليمون أهله من أشرف سبيل، وعبداً من عباد الله يؤم المسجد ليعبد الله كأنه لم يخلق إلا للعبادة، وأخاً عطوفاً يملأ قلبه بمحبة مجتمعه، فيذوب في خدمته، ويضحى بمجهوده له.

ولو أتيح لك أن ترجع إلى ذلك العصر لتبحث عن واحد من أولئك الناس الذين اختارهم الله لصحبة نبيه لما وجدته في غير بعض الأحوال السابقة ...

إنك لن تجده بين المقاهي يتسكع ليقتل الوقت ...

ولن تجده في الحانات يعب بما حرمه الله ...

ولن تجد يطوف على المحال المشبوهة كما تطوف الكلاب على مواطن الجيف ...

ولن تجده يتردد بين دور القضاء والحاماة يبتكر فيها الأساليب التي يغتصب بها حقوق الناس.

ولن تجده يتخذ كل الوسائل في المعاملات لتروج تجارته، وتنمو أرباحه، وتتكدس عنده الأموال، وهو في ذلك لا يسأل عن الحرام والحلال ...

ولن تجده يسعى بين إدارات الشركات يحتال عليها ليبتز منها الأموال التي تختلسها تلك الشركات من الثروة الطبيعية

للأمة، ولن تجده يصارع البنك والبورصة ويكد فكره طول النهار وزلفاً من الليل في تدبير المقالب ليزيد إلى المال الحرام الذي يملكه مالا جديداً، فإذا رجع إلى بيته رجع مكدوداً ميت الروح، فأوى إلى المضجع ونام فيه نوماً ثقيلاً طويلاً، ولا يستطيع منه إلا بعد أن يرتفع الضحى لبدأ الاستعداد للعمل من جديد، وهو في كل ذلك لا يذكر ربا ولا يؤنس أهلاً، ولا يؤدي لهم واجباً ...

ولن تجد في المجتمع الذي كونه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحاكم الذي يتعالى على الناس، ويحتجب دونهم، وبحسب أن له ميزة على أفراد الأمة، ويظن أن هذا المنصب الذي أعطى له بأمانة الله يخوله حق التصرف في أموال الناس وأموال الدولة بغير حق.

ولن تجد في ذلك المجتمع هذا الموظف الذي تراه غارقاً إلى أذنيه في كرسي هزاز، يقرأ جريدة سيارة، أو ينتفخ لاستقبال المتزلفين، أو يحدث زملاءه في العمل، ومصالح الأمة ضائعة، ومشاكلهم متشابكة، والتقارير المرفوعة إليه تثقل الرفوف وتنوء بها الخزائن ...

إنك لن تجد في ذلك المجتمع هذه الصور، وأشباه هذه الصور.

إنك لا تجد الغني الذي يبطره الغنى، ولا الفقير الذي يذله الفقر، ولا تجد الحاكم الذي يشرف بالمنصف، ولا رجل الشعب الذي ينحط لأنه لا يحتل كرسيّاً في جهاز الدولة؛ إنهم أفراد متساوون فيما بينهم، "تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم" لا يرفع بعضهم عن بعض

إلا عمل خير يتمنى كل واحد أن يكون السابق إليه، ولا ينحط بعضهم عن بعض إلا بتقصير في أمر، أو أمر الأمة يصدر من أحدهم، فيحمد الله باقيهم أن حفظه الله منه.

إن أعلى وظيفة في الدولة لا تميز صاحبها عن بقية الناس، ولا تعطيه أي حق لم يكن لغيره من أفراد الأمة، ولا يرتفع بها عن أدنى رجل من المسلمين، ولذلك فالمسلم عندما يتولى منصباً لا يزدنيه هذا المنصب، وعندما يقال لا تؤسفه الإقالة؛ بل لقد كانت المناصب زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن الخلافة الرشيدة قياماً بمهام عارضة، يندب إليها أي فرد من المسلمين، فإذا احتاجت الأمة إلى تجهيز جيش أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أي واحد من أصحابه بقيادة هذا الجيش، حتى إذا تمت المهمة ورجع الجيش منها أصبح القائد فرداً عادياً كسائر الناس، فإذا احتاجت الأمة إلى تجهيز آخر، أشار صلى الله عليه وسلم إلى فرد آخر يتولى القيادة، وأصبح القائد الأول جندياً عادياً، يندفع إلى الميدان لحماية الرسالة العظيمة دون أن يشعر أنه أهين بعزل، أو يشعر الثاني أنه أكرم بالتولية، وهكذا في بقية الأعمال، فعندما تحتاج الأمة إلى عامل، أو قاض، أو معلم، أو إمام، أو غير ذلك، يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى واحد أو جماعة من أصحابه ليقوموا بذلك، وهو حين يسند إلى واحد منهم بعض تلك الأمور لا يوليهم فخراً ليس لبقية الأمة، ولا يعطيهم عن عملهم ذلك أجراً مادياً ليس لإخوانهم مثله، ولذلك فهم لا يشعرون أنهم اختيروا أو فضلوا عن غيرهم من المسلمين، إنها مهام الأمة يجب أن يقوم بها أي فرد من أفرادها.

ولا يراعي في ذلك إلا الاستعدادات الفطرية، والكفاءات العلمية والعملية، ولكنهم مع ذلك متساوون. لا تعظم ولا أبهة، ولا ترف ولا استغلال.

وليس موقف المرأة المسلمة في ذلك الحين بعيداً عن موقف الرجل في الميدان الذي هيئت لها طبيعتها الأنثوية، فهي تقف، دائماً حيث يطلب منها واجب المسلمة أن تقف، لا تطفى بها غرامة القوة فتدفع الرجل عن مقامه لتقوم فيه، ولا يقعد بها الضعف إلى الاستسلام والإهمال والجهل ...

تتساوى مع الرجل في الحقوق والواجبات والأعمال، التي ساوى فيها بينهما الدين القويم، والطبع الكريم، وتنفرد بالحقوق والواجبات والأعمال، التي هي من خصائص الأنثى، وتبتعد عن الحقوق والواجبات والأعمال التي هي من خصائص الرجال ...

تربط بين أفراد الأسرة بنبل العاطفة، وتغمرهم بالحنان، وتملأ أرجاء البيت بالحب، وتعمر مساجد الله بالتقوى، وتغترف العلم من منابعه الصافية باستقامة الخلق.

وقد ترافق الرجل في مواقفه العنيفة لتخفف عنه الألم، وتدأوي منه الجراح، وتبعث في نفسه الحماس، وتمده بروح الجلد والقوة والكفاح، وقد تساعد في عمله اليومي إذا كان ذلك لا يرهق أعصابها، ولا يذيل حجابها، ولا ينافي طبيعتها، ولا يمتص منها عناصر المحبة والعطف والحنان ...

أما هذه المواقف التي تصبح فيها المرأة مشاكسة، تنازع الرجل كتفاً إلى كتف، لتأخذ منه موقفه، وتقوم بعمله، فليست موجودة في ذلك المجتمع النظيف ...

إنك لن تجد فيه المرأة التي تسلم أبناءها كل يوم إلى خادمة، لأنها حين تقوم من النوم تستقبل المشط والمرأة وما معها من وسائل الزينة، فتقضي بينهما وقتاً غير قصير، حتى إذا أكملت زينتها اختطفت محفظتها الأنيفة، ثم سارت تنهذى حتى تصل إلى مقر العمل، في تصريف شؤون الدولة أو شؤون الشركة، فإذا انقضى الوقت مرت على المطعم أو رجعت إلى ما هيأته لها الخادمة، فتناولته على عجل، ثم استقلت على الفراش لتريح الجسم المكدود، وما تفتأ تشعر بالراحة حتى تعود إلى المرأة والمشط وأداة الزينة، تخرج إذا كان المساء أن ينتهي أوت إلى دار من دور اللهو بإسم التسلية، وكثيراً ما تكون هذه التسلية حفلة للرقص، تعرض فيها خصرها الطيع على سواعد المعجبين، فإذا انقضى الليل أو كاد، رجعت إلى البيت مكدودة قد نضجت فيها منابع الحنان، وحب الأسرة ولم يجد منها الزوج والأبناء غير هيكل من عظم، قد امتصت الشوارع منه خصائص الأنوثة من الجمال والحب والحنان، فلم يبق فيها معنى للزوجة ولا روح للأُم.

هذه الصورة وأشبابها لن تجدها في ذلك المجتمع النظيف، إن للمرأة رسالة في الحياة، وللرجل رسالة، وكما لا يحق للرجل أن يزاحم المرأة على رسالتها، كذلك لا يحق للمرأة أن تزاحم الرجل على رسالته، إنه قد يطلب من أحدهما أن يساعد الآخر في ظروف خاصة تستدعيها طبيعة الحياة، أما أن يأخذ أحدهما أعمال الثاني، ويجلس في مكانه، فذلك مخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها ولعل من أعاجيب الحياة الحاضرة التي انطلقت فيها الشياطين تجوس خلال الديار أن تجد أفراد أسرة

يشغلون جميعاً ذكوراً وإناثاً في دوائر الحكومة، أو الشركات، أو لمصانع، بينما تجد أفراد أسرة أخرى يجتمعون على البطالة، ذلك ان الفتاة المسترجلة في الأسرة الأولى، قد سبقت الشاب فجلست مكانه، وحرمت الأسرة الثانية من حقها في العمل باسم حقوق المرأة في العصر الحاضر ...

لقد كان المجتمع المسلم يسوده التضامن والتعاون والتساند، ويتساوى أفراداه في الحقوق والواجبات حسب الطبيعة البشرية التي خلقهم الله عليها، وتنكافأ الفرص بين جميعهم، فلا استغلال ولا أثر، ولا عدوان.

ومع أن ينابيع الثروة في ذلك الحين، كانت أضال منها في العصور التالية جميعاً، فقد عاش ذلك المجتمع المسلم لا يشعر بحرمان، ولم تنشأ فيه غريزة الاكتناز، ومحبة الترفه والبطالة والإثراء من أقرب سبيل، إلا بعد ما انقضت الخلافة الرشيدة، وإنه لعجب حقاً أن تجد المجتمع المسلم في عهد الصديق أو عهد الفاروق رضي الله عنهما، يسوده الرضا والطمأنينة والسعادة.

فلما نشأت فكرة الاكتناز، وبدأ أصحاب السلطة يميلون إلى الدعة والاستغلال والتشبه بالدول غير المسلمة، بدأ التذمر والسخط، وعدم الرضا، ثم النقد والاندفاع والثورة، ثم بدأ التقلل الاجتماعي والتغلغل السياسي، رغم فيضان الأموال، واتساع موارد الثروة بين الناس، ثم انحرفت الموازين الدينية، والمقاييس الأخلاقية عن الاتجاه الإسلامي، فاصبحت أحكام الشريعة وسائل للحساب لا للسلوك، وأسباباً للعقاب لا للحق.

وركائز للانتقام لا للعدل، فلا يهتم ولاة الأمر بمخالفة الناس لدين الله، إلا إذا أرادوا الانتقام من شخص لأنه لا يريد أن يجرى معهم في الفلك الذي هم فيه يسبحون، ثم ازدادوا خطوة أخرى في الابتعاد عن دين الله وأحكام شريعته، فلم يعودوا يأبهون إلى الحلال والحرام من المال، فكماً أباح بعض الأفراد لأنفسهم كل الطرق لجمع المال، كذلك أباحوها للدول، ولم يعد يهمهم أن تجمع ميزانية الدول من الضرائب والمكوس؛ وأن يدخل فيها ما يأتي عن طريق الربا والبغاء، بيع الخمر، ومصادرة الأموال التي لا يبيح الشرع مصادرتها؛ ومن غير ذلك من الأموال التي لا تجد باباً في ميزانية الاقتصاد الإسلامي، وماذا يضير الدول الإسلامية لو أنها ظهرت أرضها من الخمر ومن الربا ومن البغاء، ومن مصادرة الأموال بغير حق، وما إلى ذلك بما يبعد عن شريعة الله.

فهل تخشى من غضب السكاري؛ أم من غضب الفاسقين : أم حنق المرابين !

لقد فتنت بعض الدول الإسلامية اليوم بأنظمة الغرب أو أنظمة الشرق، وجرى بعضها وراء هؤلاء، وبعضها وراء أولئك، وأجروا على الشعوب الإسلامية عدداً من التجارب أخفق أغلبها، فلماذا لا تجرى تجربة جديدة؛ فتعود إلى أنظمة الإسلام في السياسة والحكم والاقتصاد.

لماذا لا نعود إلى هذا المنهج القويم الذي وضعه عالم الغيب والشهادة؟..

هل نخشى أن نوصف بالرجعية؟ وماذا يهم مادامنا نستطيع

أن نضفي على مجتمعنا السعادة والاطمئنان.

لقد حاولت جهد المستطاع أن أضع بين يديك صورة مصغرة من المجتمع الإسلامي النظيف في الصدر الأول من تاريخ هذه الأمة العظيمة المجيدة. ويسرني لو أن القارئ الكريم قارن الصور التي رآها للمجتمع الإباضي في عصوره المختلفة إلى صور ذلك المجتمع الإسلامي الأول. وأنا على يقين أنه سوف يجدها صورة واحدة لمجتمع واحد. وإن اختلفت بهما العصور...

إنني وأنا أختتم هذا الكتاب. أحمدته سبحانه وتعالى على ما أولاني من نعمة، ويسر لي من خدمة، وسهل لي من أسباب، وفتح لي من أبواب..

وأصلي وأسلم على سيد المرسلين وأصحابه أجمعين. ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وأتجه بشكري وتقديري إلى الأخوة الذين أمدوني بالمساعدة، وأخلصوا لي النصيحة، وكشفوا لي عن العقبات، ومهدوا بين يدي السبل لإجاز هذا العمل، الذي أرجو أن ينفع الله به قلوباً تحب الخير، وضماناً تستهدف الحق، ونفوساً تحن إلى الهداية والتوفيق...

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الإباضية في ليبيا

(الجزء الثاني)

تأليف: الشيخ علي يحي معمر



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا القسم الثاني من الحلقة الثانية أيها القارئ الكريم، وبه تتم الصورة التي أردت أن أضعها بين يديك عن الإباضية خلال عشرة قرون تقريباً، وذلك منذ دخول المذهب الإباضي إلى ليبيا في أوائل القرن الثاني الهجري إلى دخول ليبيا تحت الخلافة العثمانية. وقد علمت أيها القارئ الكريم أنني لم أسلك في هذا الكتاب مسلك المؤرخ الذي يتتبع دورة الزمن، وترايط الأحداث، وإنما حاولت أن أصور الفرد والمجتمع الإباضي في هذه القرون الطويلة، فهذا الكتاب نواة لدراسة اجتماعية، كما أنه بداية لمحاولة تاريخية، ورغم أنني بذلت في جمع هذه الصور وتنسيقها جهوداً، واستنفدت وقتاً، إلا أنني غير راض عن عملي هذا، وكلما رجعت إليه شعرت بنقص في جوانب كثيرة منه، بعضها لا أملك إتمامه في الوقت الحاضر، وبعضها قد يتيسر لي إتمامه بعد عناء وجهد، ولكنني لا أملك الوقت الذي أبذل فيه هذا العناء، واستفرغ ذلك الجهد.

وقد عانيت بصفة خاصة في هذا الكتاب أن أضع لك صور للمنطقة التي عمرها الإباضية من قديم، ولا يزالون يعمرونها أو يعمرّون بعضها، حتى يتم لك فهم الرباط الذي يمسك هذا المجتمع المتماسك، الذي استعصى على قوى جميع الجيوش الخربة،

والدول الساعية وراء التوسع والملك. فمرت تلك الدول واحدة إثر أخرى تملك كل ما يجاور ذلك الجبل، ويستعصي هو عليها، فلا تنال منه منالاً، اللهم إلا غارات تصيب فيها دماء أو أموالاً!، وإلا عدواناً تحرق فيه أشجاراً وأغلالاً، كما فعل الميورقي وإبراهيم بن الأغلب، ومن سلك مسلكهم، وبقي هذا الجبل المنيع يعيش على النظام الذي اختاره لنفسه حتى دخلت الخلافة العثمانية إلى ليبيا، فدخل تحت جناحها، وأوى إلى ركنها، ورضى أن يخضع لسلطانها وحمايتها.

والآن أرجو منك أيها القارئ الكريم أن تقرأ هذا الكتاب بذهن متفتح، يرتفع عن العصبية في أي لون، وما تراه مشعراً بذلك في هذا الكتاب فقد دعا إليه التخصص الموضوعي للكتاب، فإن رأيت أنه تجاوز ذلك إلى أن يكون دعوة إلى عصبية ضيقة فانبذه على طول ذراعك، والله يعلم أنني أحرص كل الحرص أن أكون داعي ألفه ومحبة بين المسلمين، وأن أرى أبناء هذه الأمة العظيمة التي اختارها الله لقيادة البشرية، وهم ينبذون أسباب الخلاف الذي ماتنّفك تثيره الأئمة، والأفهام السقيمة، ويتجهون جميعاً إلى الله بقلوبهم وأعمالهم، ويندفعون في إيمان وإخلاص لحمل الرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، ثم عهد إليهم لإيصالها إلى الناس أجمعين.

القاهرة: 23 ربيع الأول 1384 هـ

أول اغسطس 1964 م

على يحيى معمر

الكفاح العلمي

انحرف السياسيون والعسكريون في الأمة الإسلامية بعد الخلافة الرشيدة عن الاتجاه الذي يدعو إليه الإسلام، وبدلاً من أن يبقى الفكر، وأن تبقى السيوف خدماً للرسالة العظمى، التي تصون الإنسانية من الانزلاق مرة أخرى؛ بدلاً من ذلك استخدمت في توفير المتعة والثروة لعدد ضئيل من الناس، واتجه الملوك الظالمون وأتباعهم إلى اقتباس حياة بعيدة عن روح الإسلام، فجلبوها من بلاط الروم أو الفرس، وكونوا في الأمة المسلمة التي كانت وحدة متكاملة يستوي فيها جميع الأفراد ...

كونوا في هذه الأمة الكريمة التي وحدتها العقيدة، وأعزها الإسلام، وسأوى بين جميع عناصرها - العبودية لله وحده - نظاماً طبقياً بغيضاً؛ تنقسم فيها الأخوة إلى طبقة حاكمة، وطبقة محكومة، وعملوا على أن تكون الطبقة الحاكمة صاحبة الحق في كل شيء، وأن تكون الطبقة المحكومة ليس لها حق في شيء....

بل يجب عليها أن تكذب وتعمل لتوفر للطبقة الحاكمة أسباب المتعة والراحة والرغد ...

وهكذا ارتكست الإنسانية من جديد، ورجعت إليالمجتمع بعض

الأمراض التي جاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها، ومنذ بدأ هذا الاتجاه الخاطيء في الأمة الإسلامية، قام المؤمنون المستمسكون بدين الله يحاربون هذا الانحراف، ويقومون هذا الخطأ في الاتجاه، ونجحوا مرات، وأخفقوا مراراً، إلا أن هذا الكفاح استمر طويلاً، ولا زال مستمراً إلى اليوم، وإلى أن يسود الحق والعدل والحكم بشرع الله ...

وفي الفصول السابقة التي تحدثت فيها عن بعض الأبطال الذين كافحوا هذا الباطل الذي استعلن، والظلم الذي انتشر، صور من هذا الكفاح الطويل، وليس هذا الكفاح مقصوراً على ليبيا، أو على الإباضية، ولكنه لم يخل بلد من بلاد الإسلام، ولا فرقة من فرق المسلمين من رجال أو هيئات أخذوا على أعناقهم ألا يهادنوا الظلم، وأن لا يخضعوا للطغيان، وأن لا يستسلموا على الذل، وأن لا يسكتوا عن الانحراف.

ومع هذا الانحراف السياسي في الاتجاه الخاطيء، والبعيد عن روح الإسلام، وقعت انحرافات من الاتجاه الديني، والعلمي، والخلقي، وكما اقتبس رجال الحكم نظم الحياة من ملوك سابقين، أخذ ناس من أصحاب الفكر يقتبسوا الآراء والعقائد من ديانات باطلة، وفلسفات خاطئة، يدخلونها في دين الله، ومن الناس من يعمل هذا العمل عن حسن نية، ومنهم من حملهم الحقد على الإسلام والكراهة له، على إدخال بدع لإفساد العقيدة، أو لإيقاع الخلاف بين علماء الأمة وعبادها.

ومن جهة أخرى قام علماء الدين الذين يسيرون في مواكب

الملوك الظالمين. يحدون لهم ويصفقون. قام أولئك العلماء، يزبنون للسلاطين أعمالهم، ويضفون عليها صبغة شرعية، ويخففون عليهم ضغط النقد العنيف الذي يوجهه إليهم العلماء المؤمنون..

وعندما بدأ هذا الانحراف في التيار الديني، والعلمي، والفكري، وقف علماء الإسلام المخلصون، يقاومون هذا التيار المنحرف، الذي يرد عليهم في صور مختلفة، ودافعوا في عزم وإصرار ليحافظوا على صفاء الإسلام في أحكام الشريعة وأحكام الدين على السواء. وقد اتخذ هذا الدفاع موقفين متساندين، أحدهما علاجي، الثاني وقائي :

١- أما الموقف العلاجي : فقد كان هؤلاء العلماء الذين وقفوا أنفسهم للدفاع عن صفاء الإسلام، في دينه، وشريعته، يتصدون للأباطيل التي يروجها أعداء الإسلام فيهدمونها، ثم يبينون الحق الذي يجب أن تسير عليه القافلة المؤمنة في ركب الحياة، وهي تحذر الوقوع في شرك يبتئها الحاسدون من أرباب ديانات سابقة أبطلها الإسلام، وبدع ينشرها منحرفون عن القصد يتصيدون بها الزعامة، وأضاليل ينقع بها علماء دنيا غلبتهم أنفسهم، واستولى عليهم الشيطان ؛ وزيع عن مناهج الإسلام يحذه الاستعمار واعوانه، ليشغلوا به شباب الأمة بالمتعة المحرمة، عن الشهامة والشجاعة والمروءة، والعزة، تلك الأخلاق التي تربأ بالرجل أن ينحدر عن دينه أو مبدئه مهما كانت الأسباب والدوافع.

ولقد استمرت هذه المعركة حامية الوطيس منذ بدأت - ولا تزال مستمرة، فإن أعوان الشيطان من عمال صهيونية كائنة، وصليبية حاقدة، واستعمار نهم لا يشبع، ثم من مسلمين مفتونين، غرهم سراب براق في الحياة المادية التي يحيا عليها الغرب اليوم، وقد تجرد من جميع المثل ليعيش للمتعة كما يعيش الحيوان ...

هذه القوى وغيرها لا تزال متظافرة الجهود، تحارب الإسلام في عدله ونزاهته وسموه. ولا تزال علماء الإسلام يواصلون دفاعهم لهذه الجهود الكافرة المتظافرة التي حاول أن تحطم الإنسانية في الإنسان، لتترك منه حيواناً فاقد الحياء، يعيش بغريزته، ويتعامل على أساسها في قيم الحياة الأولى، وإلى أن يأذن الله بنصر الحق، ويقضى بنهاية هذا التمرد على حكمة الخالق وحكمه ؛ سوف تستمر هذه المعركة دائبة حادة.

٢- وأما الموقف الثاني الوقائي: فقد تضافرت عليه جهود العلماء الأعلام من الأمة، وذلك بالتربية الصحيحة، والتعليم الحق، والكشف عن مزايا الإسلام، وفي هذا الموقف كان المخلصون من الأمة يعملون جاهدين، وبما لديهم من قوى في إنشاء المدارس، وبت الوعي الديني في الأمة، ونشر الثقافة الصحيحة بين جميع الطبقات، وإرساخ قواعد الإسلام وحكمه وأخلاقه ونظمه للحياة والمجتمع، في قلوب الناس، وفي أعمالهم ومعاملاتهم، فهم كانوا حراساً على أن يغرسوا الفضيلة بمعانيها الواسعة، فضيلة الخلق، وفضيلة الدين، في قلوب الناس، قبل أن تحتل القلوب آراء أخرى بعيدة عن الإسلام، أو بعيدة عن الخلق، وفي

غرس الفضيلة في القلوب الغضة الطرية - حتى تصبح عقيدة أو خلقاً - وقاية للنفس من أن تتسرب إليها أمراض أخرى والقيام بهذا العمل في الشباب الذي يقبل على التعليم قد يكون أمراً ميسوراً. أما أولئك الذين حرموا نعمة التعليم، وأجبرتهم ظروف الحياة والعمل على أن يزودوا معاهد المعرفة، كان هؤلاء الطبقة من الناس تكون مشكلة بالنظر إلى العلماء والمصلحين. ولذلك فقد جعلوا من مهمهم أن يقوموا بدروس الوعظ والإرشاد في مستوى هذه الطبقة، حتى يثقفوا عقولها بالمعرفة، ويملأوا قلوبها بالإيمان، ويشغلوا أوقاتها بالعمل.

وكانت وقاية للشباب من أن يلحقوا الخطأ، ووقاية للناس من أن يستغلهم المستغلون.

كان القيام بهذه المهمة فيه عسر وفيه مشقة، وقد تتطلب معالجة هذه الحالة من العالم المصلح أن يكون متحركاً. لا يقيم في مكان، وقد كانوا يحاربون عدوان البدعة أو الضلالة أو الجهل. كما يحاربون العدو الذي يحمل آلات الخراب والتدمير، فيركزون دروسهم في محل ما، حتى يطمئنون إلى أنهم قد حققوا تلك النواحي بالمصل الواقعي، وأصبحوا لا يخافون عليها، فينتقلون إلى مكان آخر، يقومون فيه بنفس العلم، ويواصلون كفاحهم من أجل سلامة العقائد والعقول، كما كان يفعل أبو موسى عيسى الطرميسى، وأبو ساكن الشماخي، وآلاف غيرهم من علماء الإسلام المخلصين في كل فرقة، وفي كل بلد من الوطن الإسلامي الفسيح.

وفي هذا القسم من الوطن الإسلامي الكبير، وعند هذا الجزء الصغير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقف علماء الإباضية كما وقف غيرهم من العلماء والأعلام منذ انتشار الإسلام في هذه البقاع، يدافعون عن صفاء الإسلام، منهم من يتصدى للدفاع في الموقف العلاجي فيدافع البدعة، ويرد الضلالة، ويحطم الباطل، ويبطل كيد الكائدين؛ ثم يدعو الناس إلى الاعتراف من النبع الصافي، الذي جاء به دين الله، ومنهم من يتصدى للدفاع في الموقف الوقائي، فينشئ المدارس ويضع لها المناهج حسب وصايا الإسلام، ويتولى الإشراف عليها، وتربية الأجيال المتخرجة منها، ثم يواصل هذا الكفاح الوقائي، فيلقي دروس التوجيه العام، فينير سبيل الله للسالكين، ويملأ قلوبهم بالفضائل التي دعا إليها خاتم النبيين وسيد المرسلين، وفي الفصول الآتية سوف أعرض صوراً من هذا الكفاح الطويل... الكفاح العلمي، ضد الجهل وضد البدعة، وضد الضلالة وضد الخرافة، وضد الدسيسة التي جاءت قديماً عن طريق الديانات التي أبطلها الإسلام، وخصي اليوم عن طريق الاستعمار والصهيونية، يقوم بهذا الكفاح أبطال وهبوا أنفسهم بما تملك من قوى لخدمة الأمة وإعلاء كلمة الله.

وأنا في هذه الصور التي سوف أعرضها على القاريء الكريم في سير أبطال من أعلام الإسلام لا أزعم أن هذا الشرف مقصور على هؤلاء الناس الذين تحدث عنهم، أو ذكرت أسمائهم، ولا أزعم أنه مقصور على هذه الفرقة من فرق المسلمين الكثيرة التي تجهد كل واحدة منها أن تنال رضا الله، وتظفر بمحبته

ومغفرته.

وإنما ضربت بهؤلاء المثل، وأنا أعلم أن الأمة الإسلامية، وأن الوطن الإسلامي، غني بأمثال هؤلاء العمالقة، الذين يكافحون بصمت أو بإعلان، ولن يضير جهادهم استعلان الباطل في بعض الأمكنة أو بعض الأزمنة، ورجحان كفة الشيطان في بعض فترات التاريخ، فإنهم ونحن معهم على يقين بأن كلمة الله سوف تكون هي العليا وأنه سوف يذوب كل ما يرجف به المبطلون وبزعمه المغرورون...

أبو الزّاجر إسماعيل بن درّار الضدامسي

اجتمع عند أبي عبيدة في البصرة خمسة من أجب الطلاب : أربعة منهم جاءوا من أماكن متفرقة في شمال أفريقيا : أما الخامس فكان عربيا من اليمن : أما السبب الذي جمع هؤلاء الطلاب عند أبي عبيدة فهو طلب العلم عند إمام من أئمة المسلمين، يملك إلى غزارة العلم روحاً قوية تقاوم الظلم والطغيان والانحراف، وتوثقت الصلة بينهم، وتمنت الصداقة، وأمضوا في ذلك المعهد العاشر خمس سنوات من الدراسة والتحصيل، فلما أتموا دراستهم، فكروا في السفر إلى المغرب كتلة واحدة، واستشاروا شيخهم في رأيهم هذا فوافقهم عليه، ونسى أولئك الأعلام مساقط رؤسهم، وملاعب صباهم، ومواطن أقبائهم، ولم يذكروا إلا أنهم مسلمون، وأينما كانوا في بلاد الإسلام فهم في وطنهم، وبين إخوانهم وعشيرتهم، وهكذا آخى الإسلام في معهد أبي عبيدة بين بربر وعرب وفرس، كما آخى الإسلام من قبل في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين روم وفرس وحشب وعرب، والإسلام لا يعرف الأجناس ولا

العناصر. إنه يصهر كل ذلك في بوتقة واحدة. يخرج منها أمة لا فرق بين أفرادها إلا في مدى يقدمه كل واحد منهم من بروخير... سمي هؤلاء الطلاب الذين أصبحوا علماء أجلاء: " حملة العلم إلى المغرب" وقدموا إلى ليبيا. واتخذوا طرابلس مقراً لهم. واشتغل بعضهم بالكفاح السياسي في محاربة الطغيان والظلم. واشتغل البعض الآخر بالكفاح العلمي في قسميه: الوقائي والعلاجي. وقد تحدثنا في فصول سابقة عن الإمام أبي الخطاب. وسوف يأتي الحديث عن أبي عاصم السدراتي. وأبي داود القبلي. في إحدى حلقات هذا الكتاب تحت عنوان الإباضية في تونس. وسيأتي الحديث عن عبدالرحمن بن رستم في حلقة أخرى من هذا الكتاب عنوانها: الإباضية في الجزائر.

بقى لنا من حملة العلم الخمسة: القاضي العادل العالم. أبو الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسي.

قمة شامخة من قمم العلم والفهم والذكاء. ومثل سام من أمثلة الإخلاص والنزاهة والصفاء. وحجة من حجج الله على البشرية. يدعو إلى الحق. لا يبالي رضى الناس أم سخطوا. ويقيم العدل بين الناس. أحبوا ذلك أم كرهوا. ويسير على ما سار عليه علماء الإسلام المهتدون...

كان عضوا بارزاً في البعثة التي ذهبت إلى البصرة. ودرس على الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. وتحمل مع أستاذه وزملائه كثيراً من الأذى والاضطهاد الذي لاقاه الأئمة المرشدون. والعلماء المصلحون: من الولاة والظلمة والملوك البغاة.

ولما بلغ حملة العلم غايتهم من العلم. وقرروا السفر إلى المغرب. حتى خرج الإمام أبو عبيدة لوداعهم. ولم يرد الطالب النجيب أن تمضي هذه الفترة القصيرة التي سايبرهم فيها أستاذهم في حديث عادي دون جدوى. وأراد أن يشغل حتى هذه الدقائق الأخيرة قبل فراقهم لذلك البحر الذي لا ينضب. فكان يوجه إليه في لباقة أسئلة. وكان الإمام العالم يجيب. ولم يقطع المسافة التي قرأ أن يرجع منها حتى كان ابن درار قد وجه إلى أستاذه ثلاثمائة سؤال. في مشاكل الأحكام.

وعجب الإمام الكبير من طالبه الذكي. ومن حرصه على الاستفادة أو على الاستيثاق من معلوماته. ومن استحضاره لهذه المشاكل في لحظات الفراق التي تغلب فيها المشاعر الحساسة. والعواطف الجياشة على التفكير العقلي المتزن. ولما أتم الطالب النجيب أسئلته. وهم الإمام بالرجوع. رفع عينيه إلى تلميذه وهو يبتسم ابتسامة الوالد الحنون. وقد سر من ولده وقال: كأنك تريد أن تكون قاضياً يا ابن درار؟. فأجاب الطالب: أرايت أن ابتليت بذلك يا شيخ؟.

إن هذه الحادثة البسيطة كافية للدلالة على علم الرجل. وعلى خلقه. وعلى دينه. مارأيك أيها القارئ الكريم في رجل يتكبد الرحلة من الجنوب الليبي إلى البصرة في العراق. ويقضي خمسة أعوام تحت عذاب الغربة والحاجة والاضطهاد. ليطلب العلم وينال الأمانة العالية. بعد أن استنزف ماء شبابه وأذبل زهرة حياته. ويعزم على الرجوع إلى بلدة ومفارقة معهد دراسته. ليحيا الحياة العادية التي يحياها الناس. فيسأله أستاذه مازحاً

: هل يريد أن يكون قاضياً ؟ ويجب الفتى : أنه يعد العدة. فقد تنزل عليه هذه البلية.

إنها مصيبة يجدر بالمرء الكريم أن يفر منها، ولكنه في نفس الوقت يجب أن يكون مستعداً لتحملها، والقيام بأعبائها. حتى إذا قدر وأصيب بها، استطاع أن ينهض بهذا الحمل الثقيل ... إنه لا يرى في منصب القضاء أو في أي منصب آخر من مناصب الحكم، ذلك الوجه البراق الذي يسعى إليه عبيد الدنيا، وطلاب الجاه الزائل، السلطان الخادع. ولكنه يرى فيه ذلك الوجه المعتم الذي يجب أن يتحمله المسلم : خدمة لدينه وأمه، وهو عليم أنه لن يجد منه مكسباً دنيوياً، أو مغنماً مادياً، فإذا قدر في نفسه أو في علمه أنه سوف يغنم منه لدنياه، فقد حاد عن طريق الصواب، وتغلغل في الظلال ...

ولذلك لم يفزع إلى شيخه يطلب منه الدعاء لتحقيق هذا الأمل. وإنما أجابه في خوف ورهبة : أنه يعد نفسه لتحمل المكارة، حتى لا ينوء تحت ثقلها.

وقد كان من إرادة الله، أن تحققت نبوءة الإمام، ونزلت عليه هذه البلية، التي أعد العدة لتحملها : فتولى القضاء للإمام أبي الخطاب عبد الأعلى، وقام بهذه الوظيفة كما يقوم بها مؤمن يعرف دين الله، ويفهم أسرار الشريعة، ويخاف الله في مال الله وعباده، فيتحرى الحق، ويجري العدل، ويتبع السبيل القويم الذي خلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم..

كان العلامة ابن درار يعلم أن عمله الحقيقي، ليس هو تولي

أي منصب في الحكومة، إن الرسالة المقدسة التي ذهب من أجلها إلى البصرة، وبقي في ديار الغربة خمس سنوات، لاقى فيها من شظف العيش، وظلم الجبابرة الشيء الكثير : هذه الرسالة تستدعي منه أن يتخذ من إمامه أبي عبيدة قدوة ومثالاً : إن علمه الحقيقي الذي يجب أن يتولاه، وأن يسهر من أجله، وأن يبذل فيه كل ما لديه من طاقة وجهد، إنما هو التعليم، هو تبليغ رسالة الله إلى الناس، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وتنوير قلوبهم وعقولهم بنور الإسلام، ولذلك فقد كون مدرسته العتيدة : مدرسة الفكرة، ومدرسة الحلقة، وأعطى لأمته من نفسه ومن وقته الشيء الكثير.

فكان منبعاً صافياً، يرده العطاش من كل جهة من بلاد الإسلام، وأدى هذه الرسالة، رسالة التعليم، والثقافة في إيمان وإخلاص، وحرص وصدق، كما أداها شيخه وأستاذه أبو عبيدة ...

وحسبه شرفاً أنه كون عقلية مثل عقلية محمد بن يانس وزملائه، الذين يندر أن يجود الزمان بمثلهم : اتساع ثقافة، ومثانة خلق، وصحة عقيدة، واتصال كفاح الله، وفي الله.

إنه أحد أولئك الإعلام الذين كافحوا الانحراف عن دين الله بالطريقة الوقائية والعلاجية، وإن كانت آثاره في الميدان الأول أكثر وأظهر ...

أبو المنيب محمد بن يانس

هو أبو المنيب محمد بن يانس الدركلي : قال فيه صاحب السير : "المجاهد لنفسه، المطيع لربه، ذو المناقب الشهيرة، والمآثر الكريمة." ولكن هل تكفي هذه الجمل القصيرة للدلالة على هذه الشخصية الفريدة ؟ ...

إنها شهادة من أبي العباس. لها قيمتها : فأبو العباس من أولئك الثقة الذين يزنون كلامهم بالميزان الدقيق. ويحملون الجمل القصيرة من المعاني ما يحتاج إلى صفحات كثيرة من غيرهم.

ولكن ما أثر ابن يانس في المجتمع وفي الحياة ؟ وما مبلغ دينه وأمانته وخلقه وعلمه ؟..

طلب الإمام عبد الوهاب في تاهرت، من جبل نفوسة مائة عالم من علماء التفسير لناظرة المعتزلة.

والمعتزلة قوم ولعوا بالمناظرة والجدل، فهم لا ينفكون عن خدي غيرهم من الفرق الإسلامية. وكان الإباضية على عكس هؤلاء، ولعوا بالعمل بما جاء به الدين الحنيف، ولا يلجأون إلى

الجدل إلا إذا اقتضت الحال ذلك، أو وقع عليهم التحدي.

وعندما طلب من أهل الجبل هذا العدد الوفير من علماء التفسير، كان الجبل غاصاً بالعلماء، ولكن المشائخ تشاوروا في الموضوع ! لماذا يرسلون هذا العدد الوفير ؟ إلا يجدون هذا العملاق الذي يقوم مقام مائة بين هؤلاء الأعلام ؟

وقرروا أن يختاروا من بينهم واحداً يقوم مقام مائة، واستعرضوا الأسماء، فاجتمع رأيهم على اختيار أبي المنيب، للقيام بهذه المهمة ... ولما أبلغوه اختيارهم لم يرهب الموقف، وهو يعلم ما للمعتزلة من صولة في الجدل.

ولم يتهيب التعب وبعد المسافة بين ليبيا وغرب الجزائر، ولم يطلب من القوم أن يجعلوا له مساعداً يذكره إذا نسي، وينبهه إذا غفل، لقد قبل المهمة دون نقاش، واستعد للسفر في هدوء واطمئنان، كأنما يسافر للتجارة إلى سوق حرة في بلد مفتوح.

إن القارئ وهو يدرس التاريخ، ويستعرض هذه الحوادث، لتأخذه الحيرة في أيهما أعظم ؟

هذا الشعب الذي يجمع على الثقة الكاملة في شخص واحد، ويتفق على اختياره ليقوم مقام مائة من المناضلين : ومن سوف يناضل هذا الرجل الوحيد الذي تضع الأمة ثقتها فيه، ثم ترسله آلاف الأميال ليقف أمام التحدي ؟ ...

إنه سوف يناضل المعتزلة، أبطال المناظرة، وفرسان الجدل في الأمة الإسلامية كلها.

أم هذا الرجل يتقبل ثقة الأمة فيه، ويستعد لخوض هذه المعركة التي يجهل فيها إمكانات الخصم كل الجهل. وإنما يعرف نفسه وما أعده لهذا النزال. لا في هذه الفترة القصيرة التي طلب منه فيها أن يمثل أمة، وإنما منذ كان يغدو ويروح على ابن درار يغترف من ذلك النبع الفياض ؟

ويتأهب المفسر العظيم للكتاب الكريم للسفر. ويجتمع برفاقه الثلاثة الذين اختبروا بمثل هذه الطريقة لمثل هذه المهام. وليس مع هذا الوفد لجنة لنشر الدعاية، ولا آلة لتصوير المناظر. ولا خدم لتوفير الراحة، ولا حاشية لإظهار العظمة والهيبة.

ولم يَزُودوا بأموال للنفقة، ولم تحسب لهم علاوة للمبيت، ولم تفتح بين أيديهم خزائن الدولة.

لقد طلب إليهم أن يقوموا بمهمتهم، وليس لهم إلا ما تفيض به رحمة الله...

وودعهم إخوانهم الذين وثقوا بهم، واختاروهم من بين آلاف العلماء يزخر بهم الوطن الليبي في ذلك الحين. ولم يزودهم بشيء غير دعوات صالحة من قلوب مؤمنة ...

وعندما انفصل الموكب عن المودعين، طلب إليهم أبو المنيب أن يسمحوا له بخدمتهم أثناء هذه الرحلة الطويلة - ولم يكن أبو المنيب أصغرهم سناً - فسمح له الرفاق الثلاثة بذلك. فأضاف إلى عمله مهمة أخرى شاقة في سفر طويل ...

عندما ينزل الرفاق للمبيت، يبادر أبو المنيب فيعلف الخيل. ثم يجمع الخطب، ويهين العشاء، فإذا اطمأن إلى راحة رفاقه.

وانتهوا من صلاة العشاء، وأوى الزملاء إلى مضاجعهم. قام هو فاستقبل القبلة، وبدأ الصلاة مستفتحاً بالبقرة، فلا يقبل الفجر حتى يكون قد ختم القرآن الكريم، فيصلى مع رفاقه صلاة الفجر ويعد لهم ما تيسر من فطور، ثم يواصلون الرحلة.

وبعد أيام كان أبو المنيب يشغل بإحدى المهام، وكان الرفاق الثلاثة يتناقشون فيما بينهم عن زميلهم هذا، ولما رجع إليهم قالوا له : إما أن تترك خدمتنا وإما أن تترك هذه الصلاة في الليل. فقال : أما خدمتكم فلا سبيل لتركها، وأما الصلاة : فأرجوا أن تسمحوا لي بصلاة ركعتين فقط، ونظر القوم بعضهم إلى بعض وظنوا أن أمر صلاة ركعتين أمر يسير لا بأس به، فوافقوه على هذا الالتماس. وعندما جاء موعد صلاته قام فاستقبل القبلة واستفتح للصلاة بسورة البقرة، واستمر يتلو كتاب الله حتى ختم سورة الكهف، فأهوى للركعة الأولى، واستفتح للركعة الثانية بسورة مريم وركع لها عندما ختم سورة الناس. فما سلم حتى انبثق الفجر، وقام مع زملائه لصلاة الفجر. وعند المساء وهم يتناولون العشاء الطيب البسيط الذي أعده لهم، قالوا : ارجع إلى عادتك الأولى من الصلاة، فإن في الركوع والسجود بعض الراحة.

نظر إليه أحد الزملاء في ظلام الليل - والرياح الجنوبية الهوج في الصحراء تعبت بثيابه وهو قائم يناجي ربه في صلاة خاشعة - فقال : إن كان لا يدخل الجنة إلا من كان مثلك يا ابن يانس فستصيبك فيها الوحشة.

وكان رحمه الله إلى هذا العلم الواسع، والورع الذي بلغ النهاية، حازماً قوياً في دين الله، لا يخشى صاحب سلطان، ولا يسكت عن منكر يرتكب أمام عينيه مهما كان صاحبه، ولا يدع الأمر بالمعروف.

كان بمصر في جارة له يبيع فيها زيتا، ومر به أعوان السلطان يحملون شخصا وهو يستغيث، مر به وهو يقول : أنا بالله وبالسُلطان، فلم يشتغل به، ثم سمعه يقول : أنا بالله وبأهل المروءة، فلم يشتغل به، ثم سمعه يقول : أنا بالله وبالمسلمين، فترك الزيت ووثب إلى الأعوان، فخلص منهم الرجل، ولما جأ الرجل ذهب مع الشرطة إلى السلطان، فقال له السلطان : ما حملك على ما فعلت قال العالم الورع القائم بدين الله : لم يسعني في ديني أن أتركه حين استغاث بالمسلمين، فالتفت السلطان إلى أعوانه وقال لهم : أمثل هذا تأتونني ؟..

لو لا هذا ومن كان مثله لم تطلع علينا الشمس، فبههم أمهلنا الله !. ومر بإحدى القرى التونسية وكانت تحت حكم الأغلبية في ذلك الحين، فوجد الشرطة يجرون امرأة وهي تستغيث بالله وبالمسلمين، فطلب منهم أن يتركوها، فلم يستجيبوا له، فجرد سيفه وخلص منهم المرأة، وذهب معهم إلى صاحب السلطة، فقال له ما حملك على ما فعلت ؟ قال : لما سمعتها تستغيث بالله وبالمسلمين لم أتمالك نفسي، ورأيت أنني لا أوفى بديني إذا لم أخلصها، فنظر إليه صاحب السلطة في إمعان وتفرس، ثم قال : تركناها لله وإيجابا لحقك.

كان بتاهرت عاصمة الإمامة، فمر بمنزل الإمام عبدالوهاب - وكان على الباب متظلم، والباب مغلق، والمتظلم ينتظر، وقد بدا عليه السأم، فأخذ الشيخ يضرب الباب بالحجارة، ويشتم المدينة ومن فيها حتى خرج الإمام ولحيته تقطر ماء، فاعتذر للشيخ بأنه كان في الحمام، ولما سكن الغضب عن الشيخ قال الإمام : لماذا هذا الغضب كله حتى شتمت أهل المدينة وأنا وأنت منهم، فقال الشيخ الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر : إن لم نعمل بموجب الشرع فلا محيد لنا عنها.. إنه لا يحل لمن يتولى أمر المسلمين أن يتغافل عن شؤونهم، فاذا غفل وجب على المسلمين أن ينبهوه إلى ذلك، فإذا لم يفعلوا، استووا في العصية.

تأمل أيها القاريء الكريم هذه السيرة العطرة : سيرة الرعاة وسيرة الرعية وقد عظمة هذا الإمام الذي يدين له بالطاعة ثلاثة أقطار كبرى، تنبسط اليوم عليها ثلاث دول، فيقف ببابه مؤمن من سائر المؤمنين يقذفه بالحجارة والشتائم لأنه تأخر فلم يفتح بابه دقائق معدودة ليسمع شكوى متظلم، قد تكون صادقة وقد تكون كاذبة، فلا يزيد هذا الإمام العظيم على أن يعتذر بأنه مشغول بعمل شرعي لا يجوز تأخير لحظة.

وقدر عظمة هذا المؤمن، الذي يرد رجلا يريد أن يرفع شكوى، فلم يفتح له باب الأمير فيتضاءل أمام عينه هذا الإمام الذي يمتد سلطانه من مصر إلى مراكش بما له من قوة ومركز لأنه لم يبادر إلى إنصاف المظلوم، وإعطاء الحق لصاحبه، واشتغل عنه بأمر خاص له، ثم يهجم على الباب يكاد يحطمه، وعلى الإمام يسمعه قوارص العذل واللوم.

وقارن أيها القارئ الكريم هذه الحالة بصورة مؤلمة تجد فيها الآلاف من الناس تضيق حقوقهم، وهم يتزاحمون على أبواب المصالح، ومداخل الإدارات، ودور القضاء.

لأن هذه الحقوق وضعت في أيدي أقزام مهازيل، ليس له من الخلق أو الدين أو الشهامة ما يحملهم على فصل تلك المشاكل، وإراحة الناس من هذا النصب المتواصل.

وعندما يجد المسلمون رجالاً من الشعب لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يرهبون في الحق سطوة حاكم، وعندما يجد المسلمون حكاماً يقدرسون المسؤولية التي تحملوها للأمة، ويخضعون لسلطان الحق، ولو تعلق هذا الحق بذواتهم، ويسارعون إلى تصريف الأعمال التي انيطت بهم في أسرع وقت ... عندما يجد المسلمون هذا الفرد من الشعب، وهذا الفرد من ولادة الأمر : حينئذ يعود إلى الأمة المسلمة ما فقدته من عزة، ويحقق الله لهم ما وعدهم به، فيكونون خير أمة أخرجت للناس : لأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله : فلا يحسبون لغيره حساباً.

وإلى هذه القوة في دين الله، والشدة في حقوق الناس، كان رحمه الله جم التواضع، سمح النفس، كريم الخلق : ولعل قيامه بخدمة زملائه أثناء رحلته الطويلة إحدى الشواهد على التواضع وكرم النفس، وسماحة الخلق.

أدب يوماً ثلاثة من الجناة، فعضبوا من إقامة الحق عليهم، فدخلوا عليه منزله ليلاً، وضربوه ضرباً مبرحاً حتى أضعفوه، فلم

يطق إتيان المسجد، وتخلف العالم المؤمن لأول مرة عن صلاة الجماعة وهو حاضر في البلد، وعرف المسلمون الذين يعرفون الشيخ أنه لم يحبس عن المسجد إلا أمر كبير، فزاروه في بيته، وسألوه عن أمره، فأخبرهم بما فعل به، وعندما تحدثوا في وجوب معاقبة الجناة عن هذا الجرم الفظيع، منعهم من ذلك، وتنازل عن حقه خوفاً من أن يكون انتصف لنفسه، فترك القوم الذين اعتدوا عليه في عقر داره فذهبوا طلقاء - ولو أن عدل الله لم يهلهم - فنالوا جزاءهم على غير يد هذا المسلم القوي في أمر الله، الضعيف في أمر نفسه.

وكان إلى هذا الدين القويم والخلق الكريم كثير العبادة، ولعل صلاته في رحلته الطويلة تكون إحدى الشواهد على حبه للعبادة، والاتصال بربه.

يذهب إلى " الجزيرة " وهي قرية على قمة شامخة في الجبل، ضاربة في الهواء معزولة عن بقية الجبل بخندق عميق، فيعتزل هنالك للعبادة أياماً طويلة، ومكث مرة بهذه الجزيرة أربعين يوماً، وكان لم يأخذ معه زاداً ولا طعاماً، فذهبت إليه زوجته لتتفقدته، وترى حاله، فوجدته مشرق الوجه، يترقق الدم في وجنتيه، وتبدو العافية على مخايله، وعندما وصل وقت الأكل، مال إلى أعشاب الأرض يأكل منها حتى اكتفى، فقالت له الزوجة الحبة : أبهذا عشت طول هذه المدة ؟ فأجاب الشيخ الزاهد العابد قائلاً ؟ " نقي قلبك، وافتح يدك، وأغلق فاك يجعل لك الله كل عود طعاماً ! "

إنه أحد أولئك الناس الذين يندر وجودهم في التاريخ. لقد عاش حياة حافلة بالعمل الصالح ! العمل الصالح لنفسه، والعمل الصالح لأتمته، والعمل الصالح لدولته. وحسبك أن تعرف أن قسم حياته أربعة أقسام : سنة يقوم فيها بالتجارة ليكسب ما ينفقه من الرزق الحلال في مدى ثلاث سنوات، ويزور فيها الإخوان المنتشرين ما بين الغرب ومصر. فقد يذهب بتجارته إلى مصر. وقد يذهب منها إلى الجزائر. وفي هذه الزيارات يغشى الجامع العلمية. ويؤم المساجد، يلقي دروس الوعظ والإرشاد. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحارب البدع التي يبتها أدعياء العلم والظلم الذي يرتكبه أصحاب الحكم ... وَيَقْبَسُ ويقتبس الهدى والصلاح : ويرخل في السنة الأخرى إلى غدامس، فيقيم عند أسناده العلامة ابن درار الغدامسي : يزداد علما ويواصل دراسته بعزيمة لا تعرف الخور أو الضعف، ويقوم سنة في مشاهد الجبل، منقطعا لعبادة ربه، خالصا لمحاسبة نفسه، مبتعدا عن شئون الدنيا والناس : اما في السنة الرابعة، فيستعد فيها لزيارة البقاع المقدسة، والافتباس من روح الإيمان والطهر التي خلقها محمد صلى الله عليه وسلم في منازل الوحي، ومنشأ الإسلام ... ولم يخرق هذا النظام الذي وضعه لنفسه منذ وضعه حتى لحق بربه.

لم يبق لنا من حديث على هذا الرجل العظيم إلا إشارة عابرة إلى كفاحه في الميدان العلمي. ورغم هذا الترتيب الي وضعه لحياته، والذي كان يكثر فيه من الغياب : استطاع أن يكون طبقة متنازة من الطلاب حملوا مشعل الثقافة والمعرفة من بعده، وكان

يشرف الواحد منهم أن يقال فيه : أخذ العلم عن ابن يانس، أما النقطة الثانية، وهي مفهومة من سياق الحديث فكفاحه القوي العنيف للانحرافات التي ترد على أيدي المبتدعين كما فعل مع المعتزلة، أو الانحرافات العملية التي تأتي عن طريق الحكام كما فعل في مصر وتونس والجزائر : فهو أحد أولئك العلماء الأعلام، الذين كافحوا الانحراف عن دين الله بالطريقتين الوقائية والعلاجية، وإن كانت آثاره في الميدان العلاجي أوفر وأظهر.

مَهْدِي النُّفُوسِي الْوَيْغُوي

بطل من الأبطال الأربعة، الذين وثقت بهم الأمة، فاختارتهم للقيام بمهام طلب لها أربعمئة.

وأُسند إلى هذا البطل العملاق مهمة مائة عالم من علماء الكلام، ثم طلب إلى أن يرخل من " ويغو " - هذه القرية التي لا تزال أطلالها شاهدة على عظمتها في ظاهِر الحِرابَةِ - إلى تاهرت للمناظرة والجدال ... جدال المعتزلة : أتباع واصل بن عطاء، أولئك الناس الذين حذقوا فن الجدال وبرعوا فيه، وبزوا فيه الأقران، ولا سيما حين يكون موضوع المناظرة والجدال متعلقاً بعلم الكلام والفلسفة الإلهية.

حتى كان علماء غيرهم من الفرق يتحاشون التصادم معهم، ويخشون الاشتباك بهم.

ولما اتفق رأي المشائخ على إسناد هذه المهمة.. مهمة مناظرة المعتزلة في قضايا التوحيد وعلم الكلام إلى الشيخ مهدي الويغوي، وأخبروه بما اتفقوا على، تقبله برضاً واستبشار، واستعد للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه، وأخذ زاده وفرسه واجه مع الرفاق الثلاثة إلى تاهرت، إلى حيث ينتظر فرسان الكلام ...

وبلغ الشيخ العالم المتكلم عاصمة الإمامة في الجزائر، وعرف الإمام أنه الرجل الذي اختارته أمته ليقوم مقام مائة من علماء

الكلام، ليرد على أصحاب البدع والأهواء بدعهم وضلالاتهم.

وكان الإمام عبد الوهاب من أفذاذ العلماء في كل فروع الثقافة لذلك العصر، وكثيراً ما يتعرض لتحدي المعتزلة ولدهم في الخصومة، فيناقشهم ويناقشونه، وقد يضيق الخناق على أحدهم بحجة باهرة، وقد يضيق عليه أحدهم الخناق بشبهة خفية.. فلما اجتمع مع العلامة النفوسي، طرح عليه مواضيع النقاش، وعرض عليه الأسئلة والأجوبة التي كان يتلقاها من المعتزلة أو يرد بها عليهم، وكان العلامة النفوسي الويغوي لا يلبث أن يقول للإمام : هذا سفسط المعتزلي وهنا زاغ منك، وهكذا كان يضع يده على نقط الضعف عند الإمام، أو عند المعتزلي.

وبعد هذا العرض، اطمأن الإمام ووثق بصاحبه، وضمن لنفسه النصر في هذه المعركة الكلامية الحامية الوطيس.

خرج العلامة الويغوي يوماً، ولم يرجع إلا بعد هون من الليل، فسأله الإمام وأصحابه عن سبب هذا التأخر، فقال لهم : لقد اجتمعت اليوم بتسعين عالماً من علماء المعتزلة، وفتحوا معي أبواب الجدال، فأفحمهم الله جميعاً، وأوضح الحق ونصره، وأخبروه أن عشاء موضوع في حجرة مجاورة، ودخل الحجرة التي وضع فيها العشاء، ووجد إناء مغطى، فنزع عنه الغطاء، ووضع يده باسم الله، فوجد طعاماً أكل منه حتى أكتفى، ثم قال لهم : يظهر أن عشاءكم لم ينضج، فضحك القوم لأن ما حسبه الشيخ الويغوي عشاء غير ناضج لم يكن في الواقع غير عجيب

أعد ليتخذ منه الخبز لفطور الصباح. أما عشاء الشيخ فقد بقي في زاوية أخرى من البيت لم يهتد إليها. ورد على ضحكهم قائلاً : إني أحمد الله تعالى على ثلاث : أقضي بقليل من النوم غرضي، وأيطعام أسد به جوعتي، ولا أخشى مخالفاً يدحض حجتي

وإنه لمن نافلة القول أن أقص حكاية التاريخ، وأصف للقاري الكريم موقف هذا الشيخ مع مشاغبي المعتزلة، وطريقته في إلزامهم الحجة، وإبطال مالبسوا به من الشبه، فإن الباطل لا يصمد للحق إلا قليلاً، على أن مظهر الانتصار أو عدم الانتصار في الجدل لا قيمة له في نظر المؤمن الخالص، إن الانتصار في الجدل مظهر من المظاهر التي يفرح لها طلاب الزهو والفخفة، أما أصحاب الحقيقة، أصحاب الإيمان والعلم، فإنما يسرهم منها نتائجها إذا اهتدى بها قوم فرجعوا إلى الصواب بعد أن تخطفتهم مهاوي الضلال.

أما القيمة الشخصية للرجل فهي في ذلك الثوب الفضفاض من العلم والإيمان والتقوى، الذي يلزم المرء في جميع أحواله.

وأنا كما قلت في بعض الفصول السابقة : إنما يهمني في هذه الحلقات أن أكشف عن الصور الرائعة من سيرة أبطال هذا المذهب الذي حورب من ناس لم يفهموا الإسلام، ولم يعملوا به، من ناس يسهل لديهم أن يصفوا أهل هذا المذهب بأنهم خوارج، كما يسهل لديهم أن يعملوا عمل الخوارج، وفي حين الذي يعف فيه الإباضية العفة الكاملة يستحل أولئك الناس

أموال المسلمين ودماءهم بالطريقة العملية، فما سنحت لهم فرصة لابتزاز الأموال أو قتل الرجال إلا ارتكبوها، وسواء كانت هذه الدماء أو الأموال لمخالفهم في المذهب، أو الرأي أو كانت لموافقهم فيها.

وإنك لتجد آلاف المواقف من هذا النوع، وإن شئت فارجع إلى التاريخ، فسوف تجد إخوة وأبناء إخوة يقتتلون من أجل المال أو السلطان، بل إنك لتجد أبناء يسرقون خزائن آبائهم، أو يقتلونهم، لأنهم يتعجلون الوصول إلى كراسي الحكم، إلى ما هنالك من أعمال يبرأ منها الإسلام، الإسلام الذي يحرم الدماء والأموال : [إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام].

كنت أحدث عن مهدي النفوسي الويعوي : هذا الرجل الذي اختير ليقوم مقام مائة عالم لجدال المعتزلة، إنه إلى هذه الثقة التي حصل عليها من الأمة، وإلى هذا المقام الذي تبواه في قلب إمامه بعد ما عرف علمه وذكاءه وعبقريته، وإلى انتصاره المشهود في مناظرة تكاد تكون حدثاً عالمياً في ذلك الحين، إنه إلى كل ذلك متواضع كريم، سألته الإمام بعد أن امتلأ إعجاباً برجال الوفد في علمهم وخلقهم وشجاعتهم حتى ظن أنه لا يوجد لهؤلاء الرجال مثال : هل تركتم في الجبل من هو مثلكم، فأجاب العلامة المهدي : تركنا من هو خير منا تركنا أبا عبيدة عبد الحميد الجنائني ...

وقد لمس الإمام صدق هذا الرجل وصراحته فيما بعد، حين زار جبل نفوسة، وأهمل بعض رفاقه دوابهم فأكلت من زرع الناس.

فجاءه أبو عبدة، الشيخ العالم الذي ليس له يد في الحكم،
وفاقبله بقوة الرجل الذي رأى منكراً فصمم على تغييره بقوة
المؤمن المعتز بإيمانه، إنه لا يرى في الإمام إلا إنساناً بشراً بسيطاً
... ارتكب خطأ وجب عليه أن يرجع عنه ... أما مهابة الإمام
وعظمة السلطان، وحق الضيف، أما تلك الأشياء كلها، فلا
قيمة لها في نظر المؤمن القوي في دين الله ... إن الحق أحق أن
يتبع ... وما الإمام إلا فرد من أفراد الأمة، له مالها وعليه فوق ما
عليها، عليه عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه، ورعاية أمورها،
وتفقد شؤونها، والسهر على مصالحها ...

وتذكر الإمام العظيم بهذه المناسبة جواب الوفد فقال :
صدقوا، لقد تركوا من هو مثلهم أو خير منهم ...

عاش هذا العالم المؤمن في كفاح مستمر، يحارب البدع التي
أخذت تنتشر بحقائق الإيمان، ويناضل السفسطة الكلامية
بقوة البرهان، ويكافح الجهل بالتعليم الصحيح، والتربية التي
وضع أسسها الإسلام ...

وعندما كان الإمام عبد الوهاب يحاصر طرابلس العاصمة
وهي تحت حكم الأغالبة بسبب الفواحش التي ارتكبها جندهم،
كان مهدي النفوسي الويغوي من خيرة حملة السلاح للدفاع
عن الحق ... وذات يوم كان هذا العالم مستغرقاً في مناجاة
ربه، منفرداً على ساحل البحر، فعبر إليه جند الأغالبة وقتلوه
واحتزوا رأسه، ثم وضعوه على السور وهم يتضحكون ويعبثون
!! ... رحم الله تلك النفس المؤمنة.

أبو الحسن الأبدلاني

أبو الحسن هو العضو الرابع من أعضاء الوفد الذي بعث
إلى تاهرت ... وثقت فيه الأمة فاخترته ليقوم مقام فقيه
لجدال المعتزلة فيما يتعلق بأصول الفقه، وعلم الحلال والحرام،
وانها لمرتبة سامقة، أن يحصل الإنسان على ثقة أمة كاملة،
وأن تختاره هذه الأمة نفسها كي يقوم مقام مائة من الأعلام،
الذين يدفعون إلى الميدان، فيرفعون رأية الحق، ويذودون عن دين
الله عدوان المبتدعين، وعتاد الباغين، وقد حقق للأمة ثقته فيها،
وقام بالعبء الذي ألقى عليه.

قال أبو العباس حين تحدث عن هذا العلامة العملاق، " كان
واسطة العقد، وإنسان العين، تعلم العلوم، وعمل بموجبها،
وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها ".

لقد تعلم أبو الحسن العلم، كما شهد أبو العباس، وتعلم
العلم أمر ميسور لكل طالب، ولكن العمل بموجب العلم هو
الميدان الذي تتفاوت فيه الأبطال، وتقاس به معايير الرجال.

كان هذا العالم العامل - إلى ما يملك من غزارة المعرفة،
وانفساح الثقافة، والعزوف عن أمر الدنيا، ومجاهدة النفس..
بطلا من أبطال الميدان، ثبت في المعارك ثبات الطود ويناضل
العدو نضال من يرى باب الجنة مفتوحاً أمامه ليس بينه وبين

ولوجه إلا الاستشهاد في حومة الوغى من تلك الموقعة.

لما التقت جنود العباس بن أيوب - وكان أبو الحسن أحد الأبطال فيه -

بجنود خَلَف في " فاغيس " بين " تغرمين وجادو ". وكان جيش خلف كثيفا، كثير العدد وافر العدة، فجاء رجل من جيش العباس إلى أبي مرداس وقال له : إنى أخشى على جندنا من كثرة جند عدونا، فأجاب أبو مرداس العالم البطل : لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني.

أي والله ! إنها شهادة من رجل يعرف قيم الرجال الصادقين، ومواقفهم الثابتة عندما تزل الأقدام، وتخف الأحلام.. ولكن الرجل لم يقنع بهذا الجواب : إنه يرى بعينه كثرة جيش العدو وضالته جيشهم بالنسبة إليه.

وماذا عساها تغني البطولة مع الكثرة، وذهب إلى أبي الحسن الأبدلاني يعرض عليه مخاوفه، ويقص عليه ما قصه على زميله أبي مرداس، فإذا بجواب أبي الحسن يبعث على الدهشة والاستغراب، قال أبو الحسن : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس !!

وعجب الرجل من توافق الخواطر، اتحاد المشاعر، وأيقن أن جيشاً ضم بين صفوفه أبا الحسن الأبدلاني وأبا مرداس السدراتي لا يمكن أن ينهزم.

نعم إنه يكفياً يكون في الجيش بطل مثل أبي الحسن، أو أبي مرداس في ثقتهم بنصر الله، وإيمانهمما بالحق فيضمن النصر.

والتاريخ الإسلامي منذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم غزواته أمثلة رائعة للصورة التي ترسمها هذه القصة القصيرة. إن كثرة العدد لا تغني في الحرب، وليسست الأعداد ولا السواعد هي التي تناضل إذا جد الجد، ولكنه الإيمان بعمق الرسالة، والرغبة في الحصول على الشهادة، والحزم في محاربة الظلم، والصمود أمام جبروت العدوان، هذه العقائد والمثل هي التي تقاتل الأعداء وتفهر.

ولن يصاب المسلمون من قلة، ولكنهم يصابون من ضعف العقيدة وسوء النية، والثقة بغير الله، وتفرق الكلمة، وابتغاء عرض الدنيا من حياة منعمة ليست حافلة بالخير، ومال كثير لا يعرفون مصدره، ولا يهتمون له : ورغبة ملحة في عمر طويل لا يزينه عمل صالح.

أبو مرداس مهاصر السدراتي

بطل آخر من أولئك الأبطال الذين بلغوا من العلم درجة تتقاصر دونها مدارك الأقران. على أن بلوغ درجة سامقة من العلم غاية يسيرة يستطيع أن يدركها كثير من الناس. بشئ من الجِد والثابرة؛ ولكن العبر أن يعرف الإنسان حقيقة هذا العلم، وأن يعمل بما تدعو إليه تلك الحقيقة، وأن يكون مخلصاً في ذلك، العمل وفي هذا الميدان متعثر خطأ أغلب الفرسان، ولا يصمد إلا القليل من ملك زمام نفسه، وغلب دواعي شهوته، وأدرك أنه ما خلق إلا ليجتاز هذه الرحلة - مرحلة الحياة - في سلام. ولن يكون السلام إلا للمؤمن يسحب خالق الإنسان ليمر معه الإنسان في سلامة، فإذا انحرف عنه إلى يمين أو يسار وقع في مهاو ليس لها قرار.

كان أبو مرداس من العلماء الذين فهموا أسرار شريعة الله واتضح لهم هذا التخطيط الذي وضعته إرادة الله لسلامة البشر. فألزم نفسه السلوك فيه. وقصر أعماله على ما يدعو إليه دين الله، فيه يعمل. وبه يترك؛ ثم هو لا يحسب لغير الله حساباً...

جند نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان يلطف من عنف ذوي السلطان في استخراج الحق، ويقف لهم دون أن

يصدر منهم باطل. لا يتعد عن مجالس الحكم خوفاً من أن يقع ظلم. وكان أصحاب السلطان يعرفون منه هذا، فكانوا لا يصدرون إلا عن رضاه.

لزم الإمام عبد الوهاب مدة بقائه في ليبيا، وضيق عليه، وكان يحاسبه حساب المؤمن الحريص على دماء المسلمين وأموالهم، ومع ما اشتهر به الإمام عبد الوهاب من العلم والعدل، فقد كان يجد من أبي مرداس ناقداً لا يسكت ولا يلين حتى قال الإمام: "أحفظ أربعة وعشرين وجهاً خل بها الدماء، ولم يحفظ أبو مرداس إلا أربعة وشدد على فيها".

وهذه القصة على قصرها تبين لنا أن سلطان المؤمن العالم أقوى من سلطان المؤمن الحاكم، فقد عرف الإمام الحاكم أربعة وعشرين وجهاً خل بها الدماء، ولكن أبا مرداس لا يعترف بها ولا يقرها، ولا يسمح للإمام بإجراء الأحكام على مقتضاها، ويستسلم الحاكم للعالم، وكثيراً ما يجد منه معارضة عنيفة، حتى في هذه الوجوه التي يعرفها أبو مرداس.

قيل له: إن سبعين وجهاً خل بها دماء الموحدين فسأل في خد: ما هي، فعدوا له: أولاً، وثانياً، وثالثاً، فقال في استنكار: من أين؟! من أين؟! ولم يتركهم يتجاوزن الوجه الثالث...

إن وظيفة العالم المؤمن في المجتمع المسلم أن يقف بجانب الحاكم ليسدد خطاه، ويوضح له طريق السير، ولا يدع مباحث الفقهاء الفسيحة في وجوه الأحكام تنفلت بسلطة الحاكم إلى سهولة التنفيذ. وهكذا كان أبو مرداس رحمه الله، كان يقف

موقف القوي الذي يكبح أوامر الحكام خوفاً من أن تجمع بها السلطة، أو يجمع بها العلم، ولعل قارئاً من القراء الكرام يقول : هذه السلطة قد تجمع بصاحبها فتخرج به عن الحق، فكيف يجمع العلم ؟

والجواب على هذا التساؤل واضح في القصة الماضية لهذين الرجلين. فإن معرفة الإمام لأربعة وعشرين وجهاً من الوجوه التي خل بها دماء أهل القبلة، يدل على اتساع في العلم ؛ وإجراء الأحكام على هذه الأربعة والعشرين وجهاً قد يكون جموحاً من العلم، ولذلك فقد كان أبو مرداس يكبح إرادة الإمام أن يجري أحكامه على جميع الوجوه التي يعرفها، وأبو مرداس نفسه لا يجهل ما يعرفه الإمام من هذه الوجوه، ولكنه لا يريد أن تراق دماء المسلمين على إلتماس الأوجه التي خل بها الدماء خوفاً من طغيان السلطان. على أن هناك فروقاً دقيقة يلحظها المدققون من العلماء، ولذلك فهم يعتبرون تلك الملاحظات كل اعتبار، وأبو مرداس حين يعترف بأن بعض الأوجه التي خل بها الدماء فهو يعنى أن إراقة الدماء لإقامة الحدود التي أمر الله بها، يجب على الإمام أن ينفذها، ولكنه يجب أن لا يلتفت إلى تلك الوجوه التي خل بها الدماء، وليس فيها إقامة لحدود الله، وليس في تركها إخلال بدين الله.

وفي هذا المقام زلت الأقلام، وجمع العلم بالحكام، فكانوا يجدون من ضعاف العلماء فتاوي باستحلال الدم، واستغلوا تلك الفتاوي أبشع استغلال، فأضروا بالأمة، وزرعوا فيها الفتنة، وأشعلوا بين أفرادها وطوائفها نار البغضاء ...

وإنه ليحق لك أيها القارئ الكريم أن تعجب بخلق الرجلين العظيمين، هذا الرجل الذي يشمل سلطانه ربع فارة ثم لا يصدر أمراً إلا برأي العلماء الصالحين، ولا ينفذ حكماً إلا إذا ارتضاه خيار المسلمين.

وهذا الرجل العالم الذي يقف في عزة المؤمن ليحمل إمام المسلمين أن يجرى أحكامه على ما يختاره علماء الأمة من أقوال الفقه، وقوانين الشريعة، وأن يترك جانباً تلك المباحث الفسيحة في علم قانون الشريعة، التي قد تؤدي به إلى إراقة دم لا تجب إراقتها - وأنا حين أسوق كلمة الوجوب في هذا السياق أعني معناها الحرفي - فإن أبا مرداس وأضرابه يريدون من حاكم المسلمين أن يريق الدماء حين تكون إراقة هذه الدماء واجبة شرعياً لا يجوز التهاون فيه.

ولكنهم لا يسمحون له بإراقة الدماء حين لا تكون إراقتها إقامة لحد الله، وواجبا من واجبات الشرع، ولو كانت إراقة هذه الدماء مباحة بما ارتكب صاحبها.

صحب أبو مرداس الإمام عبدالوهاب سبع سنوات حين إقامته " بميرى " في جبل نفوسة، ولما رجع إلى مركز حكمه في تاهرت، لزم عماله من بعده، فصحب أيوب بن العباس، وأبا عبدة عبد الحميد، والعباس بن أيوب، وهو في جميع ذلك يقف كصمام الأمان من صاحب السلطة، يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، ويسدد خطاه، ويزوده بالنصيحة الصادقة، والحكم الراجح، من قوانين الشريعة.

وكانت كلمته دائماً أقوى من كلمة الحاكم وحكمه، وأنفذ من حكمهم.

ولم يكن هؤلاء الذين ذكرتهم بالضعاف، ولا المهازيل، فتعطف على عليهم شخصيات أخرى؛ إنهم قمم شامخة من العلم والعمل والقوة في الحق، فظهور شخصية هذا الرجل معهم دليل على العبقرية والنبوغ...

صحب في أواخر أيامه العامل الخازم القوي العباس بن أيوب، وقد شاخ حينئذ أبو مرداس وهرم، ولكنه لا يفارق الجيش حتى في هذه السن المتأخرة، ولا يتردد في عمل الخير وإظهار الحق، ومراعاة المصلحة العامة، وكان الكبر قد أحنى هامته على قصره، فكان يسير إمام جيوش العباس بن أيوب، وهو يجر سيفه لينطلق إلى الكفاح، كفاح المعتدين البغاة من النكار، وعندما يهزم أولئك المعتدون ويرتفع لواء الحق، يصيح أبو مرداس الذي لا ينسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي ظرف من ظروف الحياة كأنه هو قائد الجيش!

قفوا أيها الأبطال!... لا تتبعوا مديراً، ولا تجهزوا على جريح.. ولا تستحلوا مال موحد!

ولكن أحد الجند يجيبه: بل لا نتركهم حتى نخرجهم من حوزتنا، ويعرف أبو مرداس أن رأي الجندي حقاً وحزماء، فيذعن للحق، ويستجيب للحزم

لقد كان العباس في سن أولاد أبي مرداس - لو رزق أولاداً - فكان يجله كثيراً، ويحترمه، ويقف عند رأيه، ولا يقدم على

عمل إلا بمشورته ورضاه.

كان أبو مرداس عالماً عاملاً، ومؤمناً عميق الإيمان، وقويماً في دين الله، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وكان كريماً كرم المؤمنين الذين يعرفون حقيقة الدنيا، ويعرفون أن المال إنما هو مال الله، يأخذ منه صاحبه بقدر الحاجة لينفق باقيه في الوجوه التي بينها الشارع الحكيم.

ولذلك فهو لا يتأثر مالا، ولا يحتفظ به، ولكنه ينفقه على الفقراء والمساكين، ولا سيما في سنوات الجذب والجفاف.

وقد يبلغ به الحال إلى أن ينفذ منه المال، فلا يستكبر أن ينفق مما يقتات به، سواء كان ذلك من بعض الثمار المجففة كالتين، أو بما يأخذه من أعشاب من الأرض... وهو إلى هذا الكرم والمطبوع، يعيش في عصره، ويعرف أحوال الناس في وطنه، فكان يبعث بعطاياه وصدقاته إلى من يستحقها من الفقراء، الذين يسترون ما هم عليه من خصاصة، حتى يحسبهم الناس أغنياء من التعفف، كما كان يعرف ما يتعرض له العمال والخدم من جوع وإهمال، فكان يعترض طرقهم في غدوهم أو رواحهم، فيعطيهما ما أعد لهم من طعام، وكثيراً ما يكون هذا الطعام سويقاً، أو "بسيسة" أو ما أشبه ذلك من الطعام الجاهز المستعجل، الذي يسهل إعداده!...

وكان أبو مرداس رغم كل ذلك، ورغم ملازمته لولاية أمور المسلمين - يأمرهم وينهاهم - كثير العبادة، موصول القلب بالله؛ وكان يقول: "لولا أمور الإسلام ما أجاوز هذا الشعب إلى

هذا ."

ومع هذه الحركة الدائبة، والكفاح المتواصل في ميادين القتال، أو مواطن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند مجالس الحكام، ومع تفقد المسلمين ومعرفة أحوالهم، ومعالجة مشاكلهم، ووصلهم بما تقدر عليه يدا، مع كل ذلك، فقد قال المشائخ الذين زاروا الجبل من المشرق: "أبو مرداس يقول: نفسي نفسي كالغزالة، والعباس نعم الفتى. وأبو زكرياء هو الجبل، والجبل هو أبو زكرياء"

فقد عاش ما عاش غاض البصر، لين العريكة، سهل الخلق، خفيض الصوت، ما لم تنتهك حرمة من حرم الله فيثور، ويدل لهذا ما قصه المؤرخون: أنه في أواخر أيامه وقد خرج الناس لاستقبال الربيع، ولم يبق أحد بمدينة "تبرست" فرفع بصره يتأمل المدينة ويرى الشوارع الممتدة إلى جميع النواحي، والأبنية المرتفعة الضاربة في الهواء، فقال متعجباً: متى حدثت هذه المباني؟.. كأنما غاب عن المدينة سنوات طويلاً، والواقع أن العالم الكبير، قد غاب عن المدينة سنوات طويلاً، غياباً جسيماً لا معنوياً، فهو يعرف كل دقيق وجليل من أحوال المدينة وأحوال أهلها، ولكنه في نفس الوقت لا يعرف من شوارعها إلا الشارع الذي يربط بين بيته والمسجد، أو الشارع الذي يربط بيته بميدان الكفاح، أي كفاح ومن أي نوع كان ...

ولقد كان دقيقاً في محاسبة نفسه على جميع أعماله، فلا يصدر إلا عما يريده منه حكم الله، ولا يسمح لنفسه بتجاوز الحق

حتى في بسائط الأمور... استعار يوماً أتاناً يركب عليها لبعض شأنه إلى إحدى القرى المجاورة، فمد إليه أحد جيرانه صرة دراهم يطلب منه إيصالها إلى أحد الناس في القرية التي يقصدها، فاعتذر الشيخ عن القيام بهذه المهمة: بأنه حين استعار الأتان لم يستأذن صاحبها في حمل شيء آخر عليها، فصاح صاحب الدراهم متعجباً من امتناع الشيخ واعتذاره، فقال الشيخ: "صار العلم عجباً".

وقال له يوماً رجل من أديلان: يا كافر: فقال له الشيخ: "سميتني باسم هربت منه زماناً". وذهب مرة يحرق على بقرة له فمر بقرية "إكراين" والناس مسنتون، قد أحاط بهم القحط، وذهب الجفاف بما ادخره، وأضر بهم الجوع، فلما رأى ما بهم من الحاجة تصدق عليهم باليد، وذبح البقرة ففرقها عليهم، وفرق الجلد أيضاً، لكنه احتفظ بقطعة منه، فلما رجع إلى قريته، بادرت إليه زوجته الصالحة زرزرت تسأله: أين البقرة؟ وأين حرثت؟ ... فقال لها: حرثت حرثاً استغني عن المطر، ولا تصيبه آفة: ثم أخبرها بما فعل، فقالت له: لم لم ترد علينا من بقرتنا إلا هذا؟ فقال لها: لنا بقرتنا إلا هذا؟

وذهب مرة ليحرق فداناً من فدادينه، فجاز عليه رجل من يعرف أخلاق الشيخ، وتغلب عليه الدعابة، فقال للشيخ: إن الفدان لي فاخرج منه، فخرج الشيخ وترك الفدان، فأدركه الرجل ببعض الطريق، وقال له: إن البقرة التي تفودها بقرتي فاتركها لي، فتركها ورجع إلى البيت دون حرث أو بقرة، فلما كان عند مدخل البيت أدركه الرجل وقال له: أين تريد أيتها الشيخ؟ إن هذا المنزل

منزلي فصاح الشيخ بزوجته قائلاً : ناوليني سلاحني يازرزرت ! فقال الرجل : إنما أنا أمزح. وليس لي في الفدان ولا في البقرة حق. فخذ بقرتك. وارجع إلى فدانك. فقال الشيخ : ما بعثك الله إلا وقد علم في الفدان والبقرة شيئاً. فتركها ورفع يده عنها منذ ذلك اليوم.

وبمثل هذا الخلق السامح الكريم. وهذا الدين العفيف القويم. وصل أبو مرداس واضراً به إلى ما وصلوا إليه من الرتب العالية : ورتب الحقيقة الخالدة. لا رتب الدنيا الفانية.

ولعله من المناسب أن أختتم هذا الفصل بما ورد في السير : " أن مشائخ نفوسة يقبلون على الإمام. فيجلسون إليه حين كان بالجبل. فإذا قدم أبو مرداس قام إليه - وكان قصيراً - فقال رجل من أهل المشرق لم يعظم الإمام هذا ؟ فقال حين سمعهم كيف لا أجل من جلّه الملائكة ."

أما أبو الربيع فقد قال حين تحدث عنه : " أبو مرداس رجل حازم. مارس للأمور ورع نبیه. وحیه. حاذق. عاقل فطن. مجتهد رحيم بالضعفاء. شديد على الفجار. ذليل على المؤمنين : لا تأخذه في الله لومة لائم. يؤثر الحق والصدق ."

أبو زكريّا التوكيتي

شخصية من الشخصيات التي تجمع صفات العظمة. فتفرض محبتها واحترامها علي الجميع.

بلغ مرتبة لم يبلغها صاحب جاه بالسلطة. أو صاحب معرفة بالعلم. أو صاحب كرم بالإنفاق. أو صاحب زهد بالعبادة. أو صاحب شجاعة بالإقدام. إن هذه الصفات جميعاً ولا شك عظيمة. ولكنها لا تغني شيئاً إذا أعوزتها روح قوية. ذكية. عميقة : لتكسو صاحب هذه الصفات ثوب العظمة. الذي يحترمه الناس ويحبونه. مجبرين بقوة الشخصية.

وكان أبو زكرياء التوكيتي يملك هذه الروح القوية فوق هذه الصفات الكريمة. فجعل منه ذلك رجلاً منفرداً بالعظمة والمهابة. والحب في بلد مفعم بالعظماء والأعلام.

طلب الناس إلى الإمام : أن يولي عليهم أبا عبدة عبد الحميد. فاعتذر بالضعف. فبعث الإمام بقطع عذره. ويسد السبل أمام تهريبه. فقال : إن كان ضعيف البدن فإن الله يقويه إذا تولى أمور المسلمين. وإن كان ضعيف المال ففي بيت المال ما يسعه ويسع غيره. وإن كان ضعيفاً في العلم فعليه بأبي زكرياء التوكيتي.

ووفد من أهل المشرق وفد يزور الإخوان. ويتفقد أحوال الناس. فزار الجبل وزار بقية المملكة الليبية. ومر بالجنوب التونسي. ثم زار

تاهرت مركز الإمامة، ولما سئل عن رأيه في جبل نفوسه قال: " الجبل هو أبو زكريا وأبو زكرياء هو الجبل، وأما أبو مرداس فكأن الغزالة : نفسي، نفسي، وأما العباس ففتى مقرعي. " - أي صاحب جدة وشدة. واختار الوفد من تاهرت الإمام ووزيره مزور بن عمران.

لقد كان مقام أبي زكريا أرفع من المنصب، وأعظم من أي صفة يتصف بها رجل لو عمل بعمله، ولذلك لم يجد هذا الوفد المتشدد في اختيار الرجال إلا أن يصفه بأنه هو الجبل، وأن الجبل هو أبو زكريا... إنه مقام لم يبلغه أبو مرداس على ما عرفت من علمه وعمله، ولم يبلغه أبو العباس على ما عرفت من شدته وقوته، ولم يبلغه الإمام ولا وزيره على ما اشتهر من علمهما وفضلهما. لقد اختار الوفد هذه الشخصيات اختياراً عادياً، أما اختياره لأبي زكرياء فقد كان بأسلوب فريد. لقد جعلوه أمة كاملة، أو في مقام أمة كاملة.

ويبدو أن الوفد لو لم يجد في الجبل غير أبي زكرياء لذهب راضياً، وذكر للناس أن الجبل عامر أهل بأهل العلم والفضل والدين والصالح.

ولعله من المناسب أن أختتم هذا الفصل بما قاله البدر السماخي: "وشهرة أبي زكريا وعلمه وورعه مما لا يخفى على الحفاظ، وكفأك أنه في زمن امتلأ فيه جبل نفوسه علما وعملا وعدلا، فأختير من جميعهم حتى قيل: "أبو زكرياء هو الجبل، والجبل هو أبو زكرياء."

أبو مهاصر الأفاطماني

في هذه القرية التي تنبسط فوق جبال الرحيبات الغربية، نشأ أبو مهاصر موسى بن جعفر: شخصية من الشخصيات التي تجمع بين العلم والكرم والزهد والتدبير، يعيش كما يعيش المؤمنون الصالحون، موزع الوقت بين العلم والعبادة والعمل، لين العريكة سهل الخلق، لطيف المعشر، محباً للمؤمنين عطوفاً على الضعاف من جميع المخلوقات، تغلب عليه الإنسانية في أنبل معانيها، فيشفق على صغار الحيوان كما يشفق على بني الإنسان.

يجمع الطرف من ماله فيوزعها على الصبيان، فإذا كانت هذه الطرف مما يؤكل وكان عند أحدهم قطعة أو جرة، أعطاها نصيبها ولم يحرمها، وعندما يعود من الصحراء ومعه طرف الصحراء من لبن وزبد وسمن وجبن وغيرها، يقسمها على الجيران، فيعطي ليهودي مثل ما يعطي لغيره من الجيران، مراعيًا في ذلك جانب الإنسانية، ومثلاً قولهم صلى الله عليه وسلم: " في كل ذي كبد رطبة أجر."

وقد قيل له في ذلك فأجاب بما أجاب به صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن مسعود: "إن الله خلق الرأفة وأسكنها قلوب المؤمنين وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب

الكافرين."

مردات يوم على أهل قبيلة يعرفون رقة قلبه وعطفه وشفقته على الضعيف، وإحسانه للخلق، وكان راكباً أتاناً التي حج عليها غير مرة، ومن ورائه جحش لها صغير يتبعها، فقالوا ليتيم بينهم لو طلبت الجحش من الشيخ لأعطاه إياك فتقدم الطفل إلى الشيخ وطلب منه أن يعطيه الجحش الصغير، ولم يستطع الشيخ أن يرد رجاى الطفل، فأعطاه الجحش، ولكن الأتان جعلت تمتنع عن السير، وجعل الجحش المفصول ينهق كأنه يصيح مستنكراً هذا الظلم الذي يفصله فيه إنسان عن أمه، وحرار الشيخ في الموقف، وبعد تفكير عرف الحل الصحيح للمشكلة، فاستدعى إليه وكيل اليتيم واشترى منه الجحش بدينارين، وهكذا ظفر اليتيم بدينارين، وظفر الجحش بأمه.

مر به قوم غرباء واشتكووا إليه بعد المسافة ومشقة المرض وانقطاع الظهر، فأعطاهم بغلاً له يحملون عليه زادهم، ويركبه مرضاهم، فقالوا له: أين نرده؟ فقال لهم: يوم اللقاء...

وصادف أن أخوا للشيخ كان ببيع بلاد الجنوب التونسي، فالتقى بهؤلاء الركب، وعرف البغل، فاستمسك به، فقالوا له: إن رجلاً يقال له أبو مهاصر أعطانا إياه، فقال لهم: وكيف ذلك؟ قالوا: شكونا إليه قلة الظهر فأعطانا، وقال: أخذه يوم اللقاء، فقال الأخ الذكي: صدقتم، هذا كلام أخي، وتركهم.

ومع هذا اللين، وهذه الدماثة، وهذا الخلق السمح، كان لا يسكت عن منكر.

باع وكيل يتيم زيتونة اليتيم بأربعة دنانير لرجل محابة له، فبالغه الخبر، فأنكر ذلك وأبطله، وحفظ غلة اليتيم، وأنفق عليه كامل السنة.

ومر على بستان تين، فوجده قد أسقط ثماره لقلة المطر وشدة الحر، فسأل عن صاحبه، فلما عرفه قال له لماذا لا تجني ثمار بستانك؟ فقال الرجل: لا حاجة لي به، فقال الشيخ أأذن لي في أخذه؟ فأذن له الرجل، فجناه الشيخ وحفظه في مكان، وأسنت الناس بعد ذلك، فطال الجفاف، وامتد القحط، وعظم الجذب، فكان الناس يلتمسون أي نوع من الطعام فلا يجدونه، وجاء الرجل إلى الشيخ يلتمس منه شيئاً من الطعام، فقال الشيخ: ليس لي إلا تين ردي لا يصلح للأكل، فرضى به الرجل وباع له البستان بذلك التين الردي، وتغير الحال، وهطلت الأمطار، وأمرع الناس، ومر الرجل على بستانه متحسراً وقد اخضر واينعت ثماره، فجاء إلى الشيخ يقول: إن بستانك الذي اشتريته مني نضجت ثماره، فقال الشيخ له: اجن بستانك فأنا لم أشتريه منك لأملكه دونك، وإنما أعطيتك ما فرطت فيه من ثمارك، عساك لا تعود إلى إهمال ما رزقك الله من نعمة، ولا تخرق الضئيل منها.

كان أبو مهاصر مؤمناً، يأخذ نفسه بالشدة والعزيمة في العبادة، خرج مرة في زمن الربيع إلى البادية، وكان معه عمروس المساكني، فلبثوا أياماً على غير ماء فكانوا يتييمون للصلاة، وتكدرت نفس أبي مهاصر من هذه الحال، فقال يحدث عمروساً: "قلوب يربو عليها الشحم ما سمنت، ووجوه تعلوها الغبرة، قلت سلامة الدين مع أهل الوبر، إنما الدين في المدر، والله لا يجمل بنا

أن نترك الدين لاتباع شهواتنا، وإنني لأخاف أن نكون من عاب الله U بقوله : [أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا] .

ورد عليه عمرو بن لحي رحمه الله فقال : ليس في ذلك ما تخافه، لقد أباح الله التيمم لعدم الماء، وأباح الضرب في الأرض لطلب الفضل، وابتغاء الرزق، حيث قال : [وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ] وقال : [إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ] وقال : [فَلَمْ جَدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا] ولكن أبا مهاصر لم يقتنع ورجع إلى منزله.

وليس معنى هذا أن أبا مهاصر لا يرى صحة التيمم لفاقد الماء، أو أنه يحرم ابتغاء الرزق المباح والسعي له، ليس ذلك ما يراه العالم الزاهد، ولكنه يحمل نفسه على أشق أنواع العبادة، ويروضها على التحمل، ويسوسها بحرمانها من شهواتها وما تنزع إليه، فهو لا يريد أن يعمل برخصة ما دام يستطيع أن يعمل بالعزيمة، ولو فوت على نفسه لذائد متعة، ومنعها من الحصول على رغبة.

وكما كان كريماً في نفسه، فإنه يريد من أصدقائه وأسرته وأقاربه أن يكونوا كرماء أيضاً، قال يوماً لابن أخته يحيى بن موليت : يا يحيى لا تعاتب "سارة" إذا أعطت من مالك فإنني لا أعاتب "تالولا" ولو أعطت حمل جمل.

الإباضية في فزان

أقصد بكلمة "فزان" هذا الشريط الصحراوي الذي يمتد جنوب ليبيا من حدود مصر إلى حدود الجزائر، وقد كان هذا الشريط ممراً هاماً للجيش الإسلامي الفاتح، ثم صار جزءاً هاماً من الدولة الرستمية، وكان في كثير من الأوقات يتصل إدارياً بعاصمة الإمامة في "تاهرت"، وعندما انقرضت الدولة الرستمية، أصبح بعضه يتبع إدارياً حاكم جبل نفوسة، استقلت بعض جهاته الأخرى عن اتباع الحكومات الأخرى، على أن هذه الحالة لم تدم طويلاً، وأصبح فيما بعد يتبع الحكومات القائمة في طرابلس أو برقة. هذا من الناحية السياسية : أما من الناحية الدينية فقد كانت فزان معقلاً من معاقل الإباضية زمنياً غير قصير.

وقد قاسى سكان فزان من الجيوش المتعاقبة التي تبحث عن الثروة والسلطة شذائد وأهوالاً، وكثيراً ما يتخذ أولئك الحكام الظلمة قضية المذهب، أو الجنس، وسيلة للجبروت والطغيان، وسبباً للفساد والعدوان، فيقتلون دون رحمة، ويغنمون دون شريعة، ويحكمون بلاد دين ...

وكان السكان يكافحون بكل ما أوتوا من قوة عدوان المعتدين، ويردون بما أوتوا من علم بدع الجاهلين، وخريف الضالين، فنشأ في أكثر المدن من فزان علماء أعلام، حرصوا كل الحرص أن يضربوا

المثل الحق للمسلم الحق الذي يعرف دين الله، فيقف عند حدوده، ويوضح للسالكين المنهج الواضح الذي شرعه الإسلام للفرد والمجتمع والدولة، ويبينون لأولئك القادة المنحرفين، المسلك الصحيح للقائد المسلم، الذي يحفظ دين الله، ويذود عن كرامة الأمة.

ولو لم يكن لفزان في ذلك العصر إلا العلامة الزاهد عبد الخالق الفزاني، لكفى ذلك القطر الفسيح شرفاً ومجداً... كان أبو مرداس كما أسلفت في بعض الأحاديث السابقة واسع الاطلاع، غزير المادة، موصول العبادة، فكان يتحدث في مجالسه بنعمة الله فيقول: لا أعرف إلا الإمام ووزيره وهذا الفزاني، وإنما أعرفه بكتبه.

إنه لم تتح فرصة اللقاء للعالمين العظميين، ولكن الكتابة بينهما كانت كافية ليعرف كل واحد منهما عظمة الثاني...

كتب أبو مرداس إلى عبد الخالق يسأله عن دواء مرض ألم به، ويسأله أن يدعوه الله أن يغني أهل الجبل بغيث عميم، فأجابه العالم الزاهد الذي يرى الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة: "إن مثلك يا أبا مرداس يسأل عن دواء الذنوب؟!!" وأجابه عن المطلب الثاني بقوله تعالى: [وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ] فقال أبو مرداس لقد جعلني هذا الفزاني أعض الأصابع ندماً إلى الموت.

هذا الفزاني الذي استطاع أن يبلغ إلى ذروة العلم والتقوى وهو بين الرمال، مقطوع الصلة بالعمران، والذي استطاع أن

يؤلف مجموعة من الكتب لها قيمتها في فروع العلم وأصوله، هذا العالم الفزاني الذي استطاع أن يجعل أبا مرداس يعرض بنان الندم طول الحياة، كتب إلى عمرو بن فتح: أن يبعث إليه بكتابه في علم الكلام، ولما اطلع على الكتاب ودرسه العالم الفاهم، قال في اعتراف المؤمن الصادق الصريح مع نفسه ومع الناس: "النفوسي أقوى مني".

وهكذا يعترف أبو مرداس بما للفزاني من علم، ويعترف الفزاني بما لعمروس من العلم، وعندما يضم المجلس عمروساً وأبا مرداس في مجلس القضاء أو الفتوى يتشدد أبو مرداس خوف الترخيص، وينتهز عمروساً حين يعتقد أنه يتساهل في بعض الأحكام.

إنها سيرة عطرة لمؤمنين صرحاء مع أنفسهم، ومع الناس.

كان في مختلف بلدان فزان عدد من العلماء الأعلام، كالعلامة عبد القهار ابن خلف، وإدريس الفزاني، وأبي الحسن جنان بن فتى، وعبد الحميد الفزاني وغيرهم، وقد كافح هؤلاء العلماء وأضرابهم الجهل والبدعة والانحراف، وحافظوا على دين الله نقياً، كما جاء عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتخونه التضييع ولم تزد عليه الخرافة والبدعة.

ولعل مما يحسن إيراده في هذا المقام، ماورد عن أبي نصر زار التفسنتى: "الكلام كله لغو إلا مسألة في الخير، واستعادة من الشر، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحمد لله، ولا آله إلا الله، والله أكبر".

وطبيعاً أن أبا نصر لا يقصد الحصر الحقيقي، وإنما يقصد أن

الكلام الذي يلتحق بالعبادة، ويكون عليه أجر، لا يخرج عن هذه الوجوه، فهو إما تلاوة لكتاب الله، أو ذكر لله، أو أمر بالمعروف، أو نهى عن المنكر، وما بقى من أحاديث الناس لمصالحهم الدنيوية فهي أحاديث لا أجر عليها، ولذلك فهي في مكان اللغو، أي كأنها لم تصدر عن صاحبها، هذا إذا لم تكن عكس الأغراض السابقة، وإلا أصبحت سبباً للإثم ...

وأبو نصر على رحابة علمه وسعة خلقه، كثير العبادة، موصول العمل، ورد عليه أبو سهل البشير بن محمد يطلب العلم، ولما حضر المجلس سمع أبا نصر يقول في درس من دروس الوعظ: "لن ينجو من علماء آخر الزمان إلا قدر ما يسلم من المصاييح التي رفعت من بيت إلى بيت في يوم ريح" فلما أصبح أتى أبو سهل إلى الشيخ للوداع، فسأله الشيخ عن السبب، فقال: سمعتك وما ذكرت من قلة من ينجو من العلماء... قال أبو نصر إذا كان هذا شأن العلماء فكيف بنجاة غيرهم؟

وأقتنع طالبه بضرورة الجد في طلب العلم، والحرص على العمل بمقتضى ذلك العلم، فكان عند رغبة أستاذه، وأصبح من فطاحل العلماء، وعندما حضرت الوفاة أبا نصر أخذ يبكي... قيل: ما يبكيك؟ قال: خوفاً من الفتيا، قلت: دار من دور نفوسه لم تدخلها فتواي...

وكان أبو الحسن المديوني يستخبر عن الطلاب الأذكياء النجباء، فيستدعيهم إليه ليدرسوا عنه، ويغترفوا من نبعه الصافي، وفي أواخر أيامه رحمه الله، بعث إلى العلامة عبد القهار

بن خلف يستقدمه ليتلقى عنه علماً ربما لا يحسن غيره فهمه، وما قاله في رسالته إليه: "وأحب تعجيل ذلك، لأنني على آخر أيامي، واقترب أجلي".

وهكذا يحرص رحمه الله أن لا يأخذ علمه معه، إنه يريد أن يترك هذا القبس، حتى تستضيء به الأجيال...

المدارس

أشرت في حديث سابق إلى أن الحركة الثقافية الإسلامية بدأت مع الفتح الإسلامي، وأن الرواد الأوائل لنشر هذه الحركة الثقافية هم بعض الأبطال، الذين ملكوا إرادة تقهر الصعاب، وتذل العقاب، وكان من هؤلاء ابن مَغْطِير الجناوني الذي سافر إلى العراق، وتلقى العلم عن أبي عبيدة مسلم في البصرة، وتلقى أبو عبيدة عن جابر بن زيد، وأخذ جابر عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم، فابن مَغْطِير من هذه الناحية يعتبر في الدرجة الثانية من تابعي التابعين، إذ ليس بينه وبين الصحابة إلا رجلان.

ولكن ابن مَغْطِير عندما رجع إلى ليبيا واستقر ببلدة جناون وجد رجلاً آخر قد اعتمد على نفسه، وبلغ من العلم مرتبة مرموقة، ولكنه في دراسته لم يعتمد على معهد معين، ولم يدرس على شخص معروف، إنه كان يحفظ القرآن الكريم من السابلة، ويتلقى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من المارة، حتى أنس في نفسه المقدرة على الإفادة، فذهب إلى بلدة وأسس هنالك أول مدرسة لتعليم كتاب الله، وتفقيه الناس في دين الله : ذلك الرجل هو عمرو بن مَكْتَن مِّنْ أَفَاطِمَانَ : " هذه القرية التي أصبحت اليوم أطلالا في بلاد الرِّجِيَّاتِ الفسيحة. ولو كان

يحق للبلدان أن تفخر بما يتولد فيها من مجد وعظمة إذن لحق للرحيبات أن ترتفع شامخة في البلاد الليبية، وأن تقول : إنها أول بلد أنشأ مدرسة إسلامية كاملة في " أفاطمان " دون أن تعتمد في ذلك على دولة، أو يوعز إليها بذلك أمير، أو أن يأتيها الأمر من سلطان مشغول بمد نفوذه، وتوسيع مدى سلطته، وليس هذا فحسب، ولكنها تستطيع أن ترفع صوتها لا بالنسبة إلى ليبيا ولكن بالنسبة إلى العالم أجمع، وتقول : إنها البلاد الأولى التي فكرت في قضية تعليم البنات على أساس من التربية وعلم النفس، الذي وصل إليه العلم اليوم، فكانت مدرسة خاصة بتعليم البنات في " أمسين " بها قسم داخلي، تأوي إليه الفتيات تحت إشراف مربية قديرة : هي أم يحي زوجة أبي ميمون، فيجدين فيها المأوى الأمين، والغذاء الكافي، والتربية النظيفة، والعلم الصحيح.

هذا بالنسبة للفتيات البعيدات، أما الفتيات القريبات : فقد يحضرن لتلقي العلم، ثم يرجعن إلى أهلهن، كما كانت تفعل الفتيات الساكنات في " جِيْطَال " و"أَيْنَرْ" و"مِيْجَار" و"مَرْسَاوْن".

لما رجع ابن مَغْطِير من البصرة وجد المدرسة الأولى التي أسسها عمرو بن مَكْتَن في " أفاطمان " قد آتت ثمارها، وتكونت فيها مجموعات من الطلبة الذين يحفظون كتاب الله أو بعضه، ويعرفون الكتابة والقراءة العربية، ويستظهرون كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة، وهؤلاء الطلبة يصلحون أن يكونوا نواة لتأسيس مدارس تهتم بدراسة فنون العلم المعروفة في ذلك

الحين في الأوساط الإسلامية.

لقد بدأت هذه الحركة العلمية بسيطة ساذجة في "أفاطمان" فلما جاء ابن مغطير توج هذه الحركة البسيطة بتوجيهها إلى الدراسة العلمية على الطريقة التي رآها في البصرة.

ورجع أولئك الطلاب الذين تعلموا القراءة والكتابة وحفظوا القرآن الكريم والحديث الشريف، وعرضوا شيئاً من سيرة الرسول الكريم إلى بلادهم، فتكونت منهم مجموعات مستعدة للتلقي، فلما عاد حملة العلم الخمسة بعد ابن مغطير وتفرقوا في البلاد، وجدوا استعداداً في الناس، وقابلية، فافتتح كل واحد منهم مدرسة في ناحية من البلاد، كان لها أحسن الآثار، ولعل أجح هذه المدارس التي كونها بعض حملة العلم، هي مدارس ابن درار الغدامسي، وعاصم السدراتي، وأبي داود القبلي ثم عبدالرحمن بن رستم - بعد زمن طويل - حين انتقل إلى الجزائر، أما أبو الخطاب فقد شغل بأحداث السياسة، ولم تطل به الحياة...

إنني حين أحدث عن المدارس في هذا التاريخ الطويل، الذي يمتد ما بين الفتح الإسلامي، والاحتلال الإيطالي، قد أطلق كلمة المدرسة على معنى أوسع مما تدل عليه اليوم في الاستعمار الجاري بين الناس، وقد يفهم بعض القراء الكرام من كلمة المدرسة نوعاً معيناً من دور التعليم، يجرى على نظام خاص لا يتعداه، إنني بطبيعة الحال لست أقصد من كلمة المدرسة هذا المعنى الضيق فقط، لأن هذه المدرسة لم تكن موجودة في

ذلك الحين في أي بلد من بلاد العالم، وإنما أقصد بكلمة المدرسة: المعنى الواسع الذي يشتق من كلمة لدراسة والتدريس، وهذا المعنى يمكن أن يشتمل على ثلاثة مدلولات :

١ الأول : الدور التي أنشئت لتعليم الناشئة وتربيتهم، وتدرج بهم من المبادئ الأولية لأنواع العلوم المعروفة في تلك الأزمنة، حتى تنتهي بهم أو ببعضهم في مرحلة يشهد لهم فيها بأنهم بلغوا درجات معينة من العلم يستحقون من بعدها أن يسموا علماء، وأن يقوموا بالأعمال التي يقوم بها العلماء، وهذه المدارس عادة تكون ذات مناهج ومراحل وأنظمة معينة.

٢ الثاني : دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه، التي يقوم بها بعض كبار العلماء في المساجد والمجتمعات والمناسبات، ويقصد بهذه الدروس تنقيف العامة وأنشأه العامة، وتنمية معلومات أولئك الطلاب الذين درسوا بعض الدراسة، لكن ظروف الحياة حالت دون إتمامهم لدراساتهم، ثم توجيه الأمة توجيهاً دينياً واجتماعياً صالحاً، ونشر الوعي بينهم.

٣ أما المدلول الثالث : فأعني به الأثر الفكري، أو الاجتماعي الذي يتركه أحد أولئك العلماء الكبار، فيستجيب له الناس، حتى أولئك الذين لم يجلسوا إلى حلقته، ولم يستمعوا إلى دروسه، وإنما وصلتهم إما عن طريق الكتب، أو الرواية، أو سريان الأفكار والآراء، وهذا النوع الأخير شبيه جداً بما نسميه اليوم بالمدارس الأدبية، أو المدارس الفلسفية، أو المدارس الفكرية.

على أن هذا التقسيم غالباً ما يكون شكلياً، لأن أولئك

العلماء الأعلام لم يكن تأثيرهم مقصوراً على جانب من الجوانب المتقدمة، وإنما يكون نشاطهم وأثرهم ظاهراً في جميع ميادين الحياة... وإنها لخطوات طبيعية للعالم في ذلك العصر أن يبدأ عمله بعد أن يتم دراسته بالتدريس للطلبة في مختلف مراحل الدراسة، حتى إذا تمكن مركزه، وثبتت صلاحيته، زاد خطوة أخرى. فالتقى دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه بين الناس في اجتماعاتهم العامة، وفي مساجدهم، وفي مواسمهم.

والواقع أن أولئك العلماء قد وهبوا مقدرة فائقة على توجيه الناس، توجيهاً روحياً عاماً، ذا أثر في الحياة. حياة الناس، سواء كان هذا التوجيه علمياً صرفاً، أم كان توجيهاً اجتماعياً، أم خلقياً، أم دينياً، ومن اليسير عليك أن تجد أثر هذا التوجيه ظاهراً في الشباب الذي تلقى عنهم العلم في حلقات الدرس، أو في الشباب، الذي استمع إليهم في دروس الوعظ والإرشاد، أو في الشباب الذي عاش في عصر كل واحد منهم، وتأثر بسلوكهم ورأيهم في الحياة، وعملهم للمجتمع، وفهمهم للدين، ولست مبالغاً إذا قلت: إن بعض تلك المدارس بمدلولها الأخير، لا تزال حية الأثر في بعض جهات الجبل، رغم تغير الحياة في العصر التركي، ورغم قطع الصلة بين حاضر الأمة وماضيها في العصر الإيطالي، ورغم فتنة العصر الحديث في قضايا الدين، والخلق، والسلوك، وانحراف تفكير شباب المسلمين عن الاتجاه الإسلامي.

والحقيقة أن رسالة المدرسة في تلك العصور، كانت أعمق وأعظم وأوسع من رسالة المدرسة الحديثة، فإن أثرها ما كان ليقصر على الجيل الذي يتعاطى فيها الدراسة، وإنما كان يمتد

إلى الجيل السابق والجيل اللاحق، إنها مركز الإشعاع، يضيء للمجتمع الاتجاهات النبيلة، التي يجب أن تسير فيها القافلة المسلمة في ظلمة الحياة، فهي بذلك تكشف عن مزايا الماضي، وتوضح طريق المستقبل، ثم تسلك جيل الحاضر بكل الإمكانيات التي يستطيع أن يتغلب بها عما يعترض اندفاعه القوي من صدمات...

إنني في آخر هذا الفصل أريد أن أأخذ حديثاً مقتضباً عن المدارس التعليمية بالمعنى الضيق، أو بالمدلول الأول؛ وللقارئ الكريم إذا أراد زيادة اطلاع على المدرسة بمدلولها الثاني أو الثالث أن يرجع إلى فصول هذا الكتاب المختلفة، فإن أكثرها يعالج هذه الشؤون، منذ أسس عمرو بن مكتن أول مدرسة "بأفاطمان" بدأت المدارس تنتشر بسرعة في جميع الأنحاء وتؤتي ثمارها في أسرع وقت ممكن، ولو أن حركة المد والجزر بين هذه المدارس - وتقوى بعضها، وضعف البعض الآخر - أمر طبيعي، وذلك نتيجة لشخصيات وإمكانيات الرجال الذين يكونون هذه المدارس أو يديرونها.

ويجدر بي وأنا أأخذ عن المدارس التعليمية أن أشير إلى تكون حركتين هامتين ترافقان التعليم في ذلك العصر.

١ الأولى: أتخذ أصحاب تلك المدارس نظاماً شبيهة بنظم الأقسام الداخلية المعروفة اليوم، يأوي إليها الطلاب الذين يفدون من أمكنة بعيدة، فيجدون فيها المأوى والغذاء والتعليم، والإشراف التربوي السليم، ويقدم الغذاء والمأوى مجاناً للطلاب الفقراء، أما

الأغنياء فيموتون أنفسهم، والنفقات التي تستلزمها هذه الأقسام الداخلية تجمعها إدارة المدرسة من التبرعات، ويقوم ذلك على نظام خاص، رتب له قانون، يسير حياة المدرسة وحياة الطلبة حسب أساليب التربية الإسلامية النظيفة القويمة، وقد تغص الأقسام الداخلية بالطلبة، فيضطر بعض الطلبة الأغنياء إلى السكنى خارج هذه الأقسام، وقد تنقل إحدى هذه المدارس بعض الطلبة إذا لم تجد لهم أمكنة إلى مدارس أخرى تحتل أقسامها المزيد من التلاميذ.

١ الحركة الثانية : القيام بالرحلات الاستطلاعية، وقد عرف المربون في ذلك الحين قيمة الرحلات المدرسية، وإطلاع الطلاب على بيئات غير بيئاتهم، وتعرفهم على غيرهم من الطلاب، واشتراك المدارس في دراسة المناهج، ومناقشاتهم في مشاكلهم : فأعدوا لهذه الرحلات، ونظموها، ويسروا لها الأسباب، وكان يقود هذه الرحلات مربون عرفوا بمقدرتهم وكفاءتهم، فكانوا يتولون تعليم الطلاب، واستثارة ملاحظاتهم، وتفتيح أذهانهم لإدراك الفوارق الاجتماعية، والمقارنة بينها ونقدها، وهم في كل ذلك حريصون على ملاحظة آداب طلابهم، وسلوكهم في سفرهم وإقامتهم، فكانت هذه الرحلات تتيح للطلاب مجالا أوسع للاستفادة والتكوين الخلقي والاجتماعي، وتتيح للمربي فرصة أفسح لدراسة نفسية الطلاب، ومعرفة أخلاقهم وسلوكهم.

من المربين الأفذاذ الذين قاموا بعدد من الرحلات المدرسية، تارة يأخذون كبار الطلبة، وتارة يأخذون صغارهم، وتارة يجمعونهم جميعا : أبو الربيع سليمان ابن هارون اللالوتي : " شيخ العلم

والتحقيق، وقدوة أهل التقى والتوفيق " كما يقول أبو العباس الشماخي، وقد ذهب هذا المربي الكبير شهيد هذه الفكرة القيمة.

ففى إحدى هذه الرحلات هجم عليه " بنو تيجن " إحدى القبائل الضاربة على حدود الجبل فقتلوه هو وجميع طلابه، ظنا منهم أنهم قافلة محملة بالأرزاق، وفي هذه القضية كتب أبو يحيى الفرسطائي إلى أهل جادو يقول : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم، بلغنا أن تسعة رهط من بنى تيجن يفسدون في الأرض ولا يصلحون، قتلوا أبا الربيع."

ومن هؤلاء المربين الأفذاذ الذين كانوا يقومون بالرحلات المدرسية مع طلابهم، العلامة أبو هارون الملوشتائي، جد الأسرة البارونية الكريمة.

ومن هؤلاء المربين الأفذاذ الذين يشرفون على هذه الرحلات المدرسية : أبو النجاة يونس الملوشتائي وعشرات غيرهم، وليس المهم في هذا البحث أن نحصي الأشخاص الذين قاموا بهذه الحركة، وإنما المهم أن الفكرة كانت موجودة في ذلك الحين.

لقد كان المربون في ليبيا ينظمون ويشرفون على هذه الحركات التي يحسب كثير من الناس أنها وليدة العصر... ويعتقد آخرون أنها نظام سبق إليه الغرب، والواقع أن علماء الإسلام في كثير من الجهات كانوا كالجندى المجهول، يسبق إلى عمل من أعمال البطولة والمجد، لا يدري به أحد، فإذا وصل إلى ذلك الفكر الغربي، وجد من وسائل الإعلان والدعاية ما نسب الشرف إليه، والحق

الاكتشاف به، وأصبح من حفه، وإنه لواجب على علماء الإسلام أن يلتفتوا إلى تراثهم الجيد في الأصقاع النائية البعيدة من وسائل الشهرة، فإن في تلك البقاع من الجهد والعظمة، ومن الهداية والنور، ما يحق أن ينشر بين الشباب المسلم، لكي يربط بين حاضره وماضيه، ذلك الماضي الجيد المشرق، الذي لا يخلو جانب من جوانبه، ولا مكان من أمكنته من ومضات وإشراقات بعثها الإسلام في قلوب الذين آمنوا وأخلصوا الدين لله، فتركوا آثاراً من هدي الإسلام قد يكون العالم في أشد الحاجة إلى الاقتباس منها أو الاستناد إليها، أو الاعتماد عليها.

درس العلامة أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي في مدرسة أبي هارون موسى بن يونس الجاللي، تلك المدرسة التي تخرج فيها عدد غير محصور من العلماء الأعلام، وأبو هارون قل أن يكون ذو علم وبصيرة لم يقتبس من سناه، ولم يغترف من ينبوعه، فهو من أولئك الأفذاذ الذين كانت لهم مدارس بمدلولاتها الثلاثة، أما أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي فقد تخرج عليه أيضاً عدد من الأفذاذ: منهم أبو محمد خصيب بن إبراهيم التميمي، ولو امتدت به الحياة لكانت آثاره أعظم، لكن المجرمين من "بنى تيجن" قتلوه في ربيع العمر، لقد استشهد وهو يكافح من أجل تخريج جيل واع من الشباب المسلم وعمره سبع وعشرون سنة... ولعل أعظم المدارس أثراً في حياة الأمة، وأطولها امتداداً مع الزمن مدرستان:

الأولى: مدرسة أبي المنيب محمد بن يونس، وقد درس هذا

العلامة الكبير على معدن العلم أبي الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسي، ولما أجاز له شيخه القيام بالتدريس، رجع إلى جبل نفوسة، وكون مدرسته العظيمة، التي امتدت أنوارها الساطعة إلى القرن الحادي عشر، وتكونت لها مجموعة من الفروع في مختلف القرى والمدن، تتصل بها اتصالاً وثيقاً في بعض الأحيان، ورقيقاً في الأحيان الأخرى، وقد كان للجبل الذي أنشأه أبو المنيب أثر امتد مع الزمن إلى الاحتلال التركي...

الثانية: مدرسة أبي عثمان سعد بن أبي يونس الطمزيني، وقد درس هذا العلامة الكبير على الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم "بناهرت" وقد وقع عليه اختيار الإمام، فأُسند إليه ولاية قنطرة وما ولاها: "تيجي" اليوم، فكان فيها مثل ما كان أولئك الولاة الذين سبقوه ولحقوه من استقامة ودين...

بلد هذا العالم الكبير "طمزين" هذه القرية المعروفة اليوم، العامرة برجال فيهم علم وفضل

وفي هذه القرية كون العالم الكبير مدرسته التي لم تزل تشع بالعلم والثقافة والخلق والدين إلى القرن الثامن الهجري، ولا يزال بناء المدرسة إلى اليوم قائماً يتحدى الزمان، ويحاول التاريخ، كما أن الفرع الذي أنشأه في تيجي لا تزال أطلاله.

وبالإضافة إلى هاتين المدرستين اللتين امتدتا بفروعهما قرون طويلة، وإلى الحركة العلمية التي أنشأها عمرو بن يكتن في أفاطمان وما جاورها، وإلى الحركة الثقافية التي غزاها ابن

مغطير الجناوني. بالإضافة إلى هذه الحركات، فقد اشتهر في جبل نفوسة على الأخص عدد من المربين، الذين أدوا رسالة التعليم المقدمة، على خير ما تؤدي رسالة سامية؛ حرصوا أن ينشأ طلابهم على الخلق الحميد، والفهم العميق لرسالة الإسلام، والاطلاع الواسع على أساس التشريع، وعلى أنواع الثقافة الإنسانية في ذلك الحين، وعلى مقاصد الدين الخنيف، وتطبيق النظريات الأخلاقية في الحياة العملية. هذا فضلا عن اتساع أفق التفكير ومدارك العقل، وغزارة العلم، وتنمية المواهب الطبيعية التي أودعها الخالق في فطرة الإنسان...

وقد يكون من المفيد، أن نذكر في هذا الفصل بعض أولئك العلماء، الذين كان لهم الأثر الحسن في نشر العلم وبت المعرفة، وهداية الناس إلى أقوام السبل، في المحافظة على دين الله، والإشراف على مدارس قامت بمهمة التعليم طيلة زمن طويل.. وإليك إبهما القاريء الكريم بعض أسماء أولئك العلماء الأعلام:

أبو خليل الدركلي

أبو يحيى سليمان بن ماطوس

أبو القاسم البَغْطُوري

أبو يحيى الدرفي

أبو محمد خصيب

أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي

أبو هارون بن موسى الجاللي

أبو محمد يَصْلِيَتَن الكباوي

أبو يحيى زكرياء بن يونس الفرسطائي

أبو سهل البشر بن محمد

أبو ذر صدوق الفرسطائي

أبو معروف جواد بن وَّيار

أبو زكريا يحيى بن الخير الجناوني

أبو الربيع سليمان بن هارون الباروني

أبو يوسف وَجْدَ لَيْشُ الإمليلي

داوود بن هارون

أبو يحيى توفيق الجناوني

أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم

أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي

أبو ساكن عامر بن علي الشماخي

أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى

أبو زكرياء يحيى بن زكرياء

نوح بن حازم المَرْسَاوُتي

أبو محمد عبدالله بن عبدالواحد الشماخي

عبدالله بن يحيى الباروني

ولست أقصد بذكر هذه الأسماء الحصر. فلقد قام عدد كبير من علماء آخرين بمثل ما قام به هؤلاء أو بأكثر. أو بأقل منهم. وإنما ذكرت هؤلاء على سبيل المثال.

وفي كتب التاريخ التي تعنى بتراجم الرجال. يجد الباحث المتقصى بغيته. قام كل واحد من هؤلاء العلماء وأضرابهم بتكوين مدرسة تعليمية. تخرج فيها عدد غير قليل من فطاحل العلماء. كما أن هذه المدارس كانت مراكز إشعاع تستمد منها الأمة الثقافة والهدى والسلوك. وتقتبس منها النور والحق والمعرفة ومن الطبيعي أن تكون هذه المدارس مختلفة في آثارها. متفاوتة في مقدار ما أتاحته للناس من فائدة. ويسرته من سبيل للوصول إلى الغذاء الروحي الممتع الصافي.

وإذا كانت بعض هذه المدارس في مبدأ الأمر مهتمة بناحية الثقافة وناحية السلوك. فكانت تيسر سبيل المعرفة للناس. وتتيح لهم فرص التعليم من جهة. ومن جهة أخرى كانت تقوم بتوجيه السلوك الجماعي والفردى. فكانت تسهر على المجتمع. وتقوم فيه بدروس الوعظ والارشاد. داعية له إلى المحافظة على السيرة النقية التي انتهجها الإسلام. أمرة بالمعروف. ناهية عن المنكر. حتى كان بعض المربين فيها يبعثون بطلابهم إلى القرى. يأمرهم بالمعروف. وينهون عن المنكر. ويدعون إلى سبيل الله القويم. ليتدرب أولئك الطلاب بالطريقة العملية على هذا الواجب الذي يراه الإباضية من اعظم أركان الإسلام التي لا يستقيم حال أمة إذا لم يقم به أفرادها العارفون. استجابة لقوله صلى الله عليه وسلم : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جندان من جنود الله.

من نصرهما نصره الله. ومن خذلهما خذله الله).

إذا كانت بعض المدارس قد اتجهت إلى هذين الاتجاهين. فإن مدارس أخرى قد اضافت إلى هذين الاتجاهين اتجاهًا ثالثًا. كان له خير أثر على التراث الإسلامي. هذا الاتجاه : هو الاشتغال بالتأليف : ولعل أعظم مدرسة قد امتازت بهذه الظاهرة الرائعة. فوجهت طلابها إلى هذا المنحى. فتركت لنا ثروة علمية وتشريعية قيمة. هي مدرسة أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسى ...

ولست أعني بهذا أن العلماء السابقين لم يشتغلوا بالتأليف. فإن هذا رأي لا يخطر ببال أحد فيما أظن. وكثير من الكتب التي كانت تدرس في زمن أبي موسى عيسى كانت من تأليف العلماء الليبيين في جبل نفوسة. أو في غيرها : وإنما أعني أن اتجاه المدرسة نفسها إلى التأليف. واشتغال كل الطلاب الذين حصلوا على كفاءة علمية بذلك. إنما كان في زمن هذه المدرسة. وقل أن تجد طالباً من طلابها لم يشتغل بالتأليف.

ومن الطلاب الذين تخرجوا فيها. واتجهوا هذا الاتجاه : فيلسوف الإسلام العلامة أبو طاهر اسماعيل بن موسى الحيطالي : ومن هؤلاء الطلاب : حجة الإسلام. ومرجع الفتوى. وسند الإباضية : العلامة أبو ساكن عامر بن على الشماخي : ومن هؤلاء الطلاب : العالم العامل : أبو غالي أبو عزيز بن إبراهيم بن يحيى. وهو الذي شغل مركز أستاذه من بعد في التدريس وإدارة المدارس التي أنشأها : أو أدارها. في كل من " طَرْمِيسَه " " وَمَزْعُورَه " " وَأَمْسِين " " وَيَفْرَن " ... وغير هؤلاء كثير. ربما تحدثنا عنهم في فصل خاص

بالتأليف..

وقد ترك لنا فيلسوف الإسلام العلامة أبو طاهر : مكتبة عامرة. لا تقل قيمة عما تركه فيلسوف الإسلام أبو حامد الغزالي. واشتغل بالتدريس في بعض الأحيان. إلا أن عنايته كانت منصبة إلى التأليف. وإلى إلقاء دروس الوعظ والإرشاد. والتوجيه. والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وذلك لأن العصر الذي يعيش فيه كان يستدعي منه هذا الجانب من الكفاح. فقد بدأ في كثير من الجهات الانحلال الديني. والتفسيخ الخلقي. والانصراف إلى المادة في إقبال نهم. كذلك لجأ إلى كفاح الباطل الذي أراد أن يستعلن ويطغى. ويتحول بالأمة المسلمة عن الاتجاه الذي دعاها إليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.

أما أبو ساكن الشماخي : فقد اتجه إلى تأليف الرجال. وقد تخرج عنه عدد غير قليل من فطاحل العلماء. ولم يشغل بتأليف الكتب إلا قليلاً. ومن هذا القليل : كتابه القيم المسمى بالإيضاح. في أربعة أجزاء كبيرة. ويعتبر من أهم المراجع في التشريع الإسلامي. يندر أن تجد له مثيلاً.

أما أبو زكرياء يحيى بن العز. فقد اشتغل بالتدريس والتأليف معاً. وقد ترك آثاراً قيمة تضاف إلى المكتبة الإسلامية العامرة.

استمرت حركة التأليف نشيطة منذ وجه أبو موسى عيسى طلابه إلى ذلك. فألفت مجموعة من الكتب القيمة. من طلاب أبي موسى. ثم من طلاب أبي ساكن. ومن غيرهم من الطلاب. وامتدت هذه الحركة العلمية المباركة في هذين الاتجاهين. إلى أن

وصلت إلى العلامة المصلح الكبير عبدالله بن يحيى الباروني. كما أن الاتجاه الثالث قد سار أيضاً علياً المنوال الذي وضعه أبو طاهر. فقد استمرت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والتوجيه الاجتماعي. نشيطة إلى أن بلغت ذلك العصر أيضاً. وفي كل هذه الفترات المتعاقبة التي يسلم فيها رسالة التعليم علم إلى علم في أمانة وحرص. كان يقوم إلى جانب ذلك مؤمن شديد في دين الله. قوي على أداء أمانة الإسلام. حريص على المحافظة على حدوده. وفي الزمن الذي كان العلامة عبدالله بن يحيى الباروني يقوم برسالة التعليم. ويوجه حركة التأليف. كان العلامة عمرو بن عيسى التندميرتي يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمحافظة على الدين. ومحاربة البدع. والخرافة. في صراحة وشدة ولست أعني بهذا. أن كلا الرجلين مستقل عن الثاني. بعيد عن عمله. لست أعني ذلك ؛ وإنما أعني أن الإمام عبدالله الباروني. وأسلافه الذين سار على نهجهم. كانت مهمتهم بالدرجة الأولى : هي التعليم ؛ ولكنهم مع ذلك لا يسكتون عن منكر يرتكب. أو حق يضاع. وأن العلامة التندميرتي وأسلافه الذين سار على طريقته. كانت مهمتهم الأولى هي التوجيه الديني. ومحاربة الإعراض عن الحق. وعن دين الله. ولكنهم مع ذلك كثيراً ما كانوا يتولون التدريس. وكل ما في الأمر أن بعض أولئك العلماء الأعلام يتجهون من أول الأمر إلى تنشئة الأطفال. وتربية الأجيال. وتسهيل سبل العلم للشباب ... وأن البعض الآخر يتجهون من أول الأمر إلى إصلاح المجتمع. ونشر الوعي الديني والخلقي بين الكبار ؛ في المساجد. والجامع :

فكانت الحركتان متساندتين متعاونتين. تكمل كل واحدة منهما الأخرى ؛ على أن العلماء من الفريق الأخير يجدون فراغاً من الوقت أكثر من زملائهم. ولذلك فقد كان إنتاج أبي طاهر في التأليف أكثر من إنتاج أبي ساكن. وكان إنتاج التندميرتي في هذا الميدان أكثر من إنتاج أستاذه وزميله الباروني.

أبو خليل الدركلي

"دَرْكُلُ" كانت قرية جميلة تقع على قمة جبل شامخ بين الجزيرة وأم صفار، ترنو في زهو وإعجاب إلى السفح الفسيح المسحور، وفي هذه القرية الجميلة نشأ أبو خليل صال الدركلي! نشأ طالباً من أجب الطلاب، يرافق فتية من أترابه إلى الجزيرة ليغترفوا العلم ويقتبسوا الخلق. ويأخذوا السيرة العطرة من أبي المنيب محمد بن يانس. وفي هذه المدرسة العظيمة التي خرجت مجموعة من أعلام الإسلام تخرج أبو خليل.

اقتدى أبو خليل بأستاذه في علمه وعمله وسيرته فأسس هو الآخر مدرسة كانت خيراً وبركة. وفي هذه المدرسة التي أسسها الدركلي وتولى التدريس فيها زمناً غير قصير تخرج العلامة الكبير، نذير زمانه، أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي.

كان أبو خليل صالاً من أولئك الأفذاذ الذين يملكون إرادة دونها الحديد، وعزماً لا ينتهي دون الغاية، وجداً متواصلاً في عمل الخير.

كان يقول للطلبة : احضروا المجالس ياكسالي. فقد حضرها من حضرها، ما يعوقه مابينه وبين قابس وما بينه وبين فزان. حتى

وقع قطاع الطرق عليه فجرحوه سبعة عشر جرحاً، والتجأ إلى مغارة فمكث فيها حتى شفى من جراحه. ما أكل ولا شرب إلا ما يراه في الحلم. ثم خرج من مغارته تلك، وواصل طلبه للعلم، حتى بلغ الغاية، وأصبح مرجعاً؛ ومع أن أبا خليل لم يذكر اسم وصاحب القصة إلا أن الطلبة كانوا يعرفون أن صاحب القصة إنما هو أستاذهم أبو خليل.

وكان من أكثر الناس عبادة ومحبة للصلاة. ينطلق في ظلام الليل إلى المسجد يمكث فيه ما شاء الله ؛ يصلي ويطيل في ذلك. وقد يعود من قريب، فسألته زوجته عن اختلاف أحواله وإطالته الصلاة في بعض الليالي. وتقصيرها في بعض الليالي الأخرى. فقال لها : إن النفس إقبالاً وإدباراً، فإذا وجد المؤمن في نفسه إقبالاً اغتنم واجتهد، وإذا لم يجد في نفسه تمسك بالفرائض وأداها حتى ينشط، لئلا يمل.

وقد تكلف أنواعاً من العبادة لا يقوى عليها غيره فقد يجعل ليلة كاملة في ركعة واحدة وقد يجعلها في سجدة واحدة ...

قد يبتسم بعض الناس ساخرين وهم يقرأون هذه الكلمات، ويقولون في أنفسهم : ولماذا هذا العذاب، والله لم يكلف البشر إلا ما يطيقون ؛ والجواب على هذه الإبتسامة الساخرة، تعرفه من أحوال أصحاب الإرادة القوية، الذين يخضعون قوى أجسامهم لإرادتهم ؛ فهم لا يجدون من المشقة إلا ما تجده نحن من الأحوال العادية ؛ ذلك لأنهم راضوا أجسامهم وأخضعوها لمطالب أرواحهم. ثم إن في أخبار هذا الشيخ نفسه الجواب على هذا

التساؤل. فإن الرجل الذي تقوى عنده الإرادة هذه القوة فيتغلب على مطالب الجسد هذا التغلب، ويرتخل بين ليبيا والقيروان. وبين ليبيا وفزان عدداً غير قليل من المرات لأجل طلب العلم. ويقع عليه معتدون آثمون. فيجرحونه سبعة عشر جرحاً. يصبر لها في الصحراء حتى تندمل وتبرأ دون غذاء أو علاج ثم يواصل بعد هذا العناء كفاحه من أجل العلم.

إن رجلاً يملك هذه الروح حقيق أن يأتي بالأعاجيب. ونحن لو تأملنا حديثه مع زوجه الوفية لأستطعنا أن نعرف كيف تربي النفوس. وكيف يغنم المؤمن أوقاته كلها في الصلاح. فعندما يجد النفس عازفة عن العمل مدبرة عن القيام بأعمال النفل يرجع إلى البيت ليقيضي حقوق الأسرة. فيحادث الزوجة ويداعب الأطفال. إنه يؤدي واجبات الزوج والأب. وعندما تأذن ساعة الكفاح لنشر العلم بين الطلاب. وإصدار الفتاوى وفصل المشاكل بين الناس. ينطلق إلى هذا الميدان وكله قوة وعزم. إنه يؤدي حقوق المجتمع والأمة. وعندما تهفوا روحه الزكية إلى مناجاة ربه ينطلق إلى المسجد. فيؤدي واجبات المؤمن التقى: تلك الواجبات التي درب عليها نفسه، فكانت فيه ملكة لا يحس معها بالتعب أو السأم. وهو ساجد لله يسبح بحمده، ويقدر له. فإذا قضى حق ربه، واطمأنت نفسه، انطلق إلى الكفاح: الكفاح من أجل الأمة، أو الكفاح من أجل الأسرة ...

أبو القاسم البَغْطُوري

"بغطورة" مدينة منبسطة على مرتفع سهل من أراضي

الحرابة اليوم. بين جريجن وتمنكرت "بَقِيْقِيْلَة" وفي هذه المدينة التي لم يبق منها إلا أطلال مساجد تشهد للتاريخ بما كان للسلف - نشأ أبو القاسم سدرات بن الحسن البغطوري في بيئة مؤمنة، عالمة بدين الله، عاملة، به، حريصة على الاغتراف من مناهل العلم الصافية.

قال فيه أبو العباس: "بقية الحافظين، واعتماد أهل الدنيا والدين، بل كان من الراسخين".

درس في مدرسة أبي ذر أبان بن وسيم في "ويغو" ومنه تلقى العلم وفيها تخرج، ثم كون مدرسته في هذه المدينة المنبسطة على ذلك المرتفع الفسيح، الذي تنحدر منه شعاب تزدان بأشجار الزيتون والنخيل.

صار أبو القاسم مرجع الفتوى والتدريس بعد وقعة مانو التي أكلت رجال العلم وأبطال الكفاح. أما هو فلم يحضر تلك الحرب الضروس لكبر سنه، وكان قد تجاوز المائة حينئذ، وبارك الله في عمره فعاش ما لا يقل عن مائة وثلاثين سنة، ضعف فيها جسمه ووهن عظمه، ولكن عقله النير كان يزداد استنارة وعلمه الغزير يزداد غزارة. ولسانه الفصيح يزداد طلاقة. قضى هذا العمر الطويل في نشر العلم وبث المعرفة وتهذيب النشء، وتعليمهم سيرة السلف الصالحين.

كان مرجعاً في جميع فنون العلم، وقد كافح بعد وقعة مانو كفاح الأبطال لتكون جيل جديد، يتحلى بما يتحلى به أسلافه من خلق وعلم ودين، ولم تمض السنوات الثلاثون الأخيرة من

عمره المبارك حتى كان له شباب لا يقلون عمن سبقهم علما وخلقا وشجاعة، وتبوأوا الأماكن الخالية التي كان يشغلها أبطال أكلتهم حرب مانو المسعورة.

ولحاجة الناس إليه لدرس الوعظ والإرشاد، كانوا ينقلونه من مسجد إلى مسجد محمولا، ولا تزال إلى اليوم أخبار تتناقلها ألسنة العوام عن شيخ ينقل من مسجد، إلى مسجد وإن كانوا لا يعرفون الشيخ ولا العصر الذي عاش فيه.

قال له طلابه يوما أنكتب عنك ما سمعنا؟ فقال: "اكتبوا ولو بأقلام النحاس: صُمْتُ أذن نَسِيتُ ما سَمِعْتُ"

لقد كان لا يمل من التعليم، ولا يمل من رواية السير والتاريخ كما كان في عهد الدراسة لا يعرف للتعب معنى، ولا يذوق للنوم طعما إلا غراماً في الأوقات التي يأوي فيها الناس إلى النوم، ويشبعون قلوباً في المضاجع.

كان حريصاً أن لا تفوته دروس أستاذه أبان حتى دروس الوعظ والإرشاد التي يلقيها ذلك العلامة الكبير في المسجد العامر، فكان يقطع المسافة الطويلة بين بغطورة وويغو كل ليلة، فيحضر صلاة العشاء الآخرة، يستمع إلى الدرس العام الذي يلقي في المسجد بعد الصلاة، ولم يحدث أن تأخر عن صلاة الجماعة وحضور هذا الدرس العام إلا مرة واحدة، سبقه فيها شيخه إلى المساجد، ولم تتكرر تلك الحادثة قط حتى تخرج البَغْطُوري واشتغل بالتدريس.

إن المسافة بين بَغْطُورَة وويغو لا تقل عن ستة أميال، ومع

ذلك فإن البَغْطُوري عندما التحق بهذه المدرسة لم ينقطع عن الدراسة، ولم يتكأءه تسلق الجبال وهبوط الأدوية حتى بلغ الغاية وظفر بالمراد.

وهذه الإرادة القوية والعزيمة الصادقة التي تحمل النفس على ماتكره هي نفس الإرادة التي لا تخاف لومة لأثم في دين الله، ولا نهادن عدوا من أعداء الله، مهما كانت الظروف والملايسات..

دعاه رجل من أهل تَمَنُكُرت ليبيت عنده، فكان يسير معه حتى لقي يهوديا، فقال له التَمَنُكُرتي: مرحبا، مرحبا وأظهر له الفرح والبشاشة فغضب البَغْطُوري من الترحيب بعدو الله، وقال لصاحبه: لا رجب الله بك ولا به، ثم قفل راجعا..

إنه موقف المؤمن الذي لا ينظر إلا إلى الله، ولا يعمل إلا بكتاب الله.

[لَا جِدَّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ]

كان أبو القاسم قويا في إيمانه، قويا في أخلاقه، قويا في صبره واحتماله "

افتقد الناس العلماء بعد وقعة مانو، فتواردوا على أبي القاسم من كل مكان وكان شيخا هرما ولكنه صبر لأسئلتهم، فكان يتململ في مجلسه وهو يحيب على الأسئلة التي توجه إليه ويقول: الكِبَرُ عيب، وبلغه نعي ولده في وقعة مانو فدخل على زوجته وقال لها: إن صدقت الناعي كما صدقته فاعتدي، وكان ذلك كل ما بأبداه من الحزن والأسف.

وتزوج آخر عمره امرأة كان يأمل أن تحفظ عليه شيخوخته، ولكنها كانت امرأة سوء، فاحتملها الله وحفظته ابنة أخيه جانا. فكانت تقوم له بكل لوازمه من غسيل وطعام وغير ذلك، حتى لحق بربه ...

أبو يحيى الفرسطائي

فرسطاء هي اليوم قرية صغيرة نائنة في صدر جبل عال كأنها ثدى عملاق، وقد كانت - من قبل - مدينة كبيرة تتناثر منازلها على صدر الجبل وجوانبه وقمته، وفي هذه القرية التي يهددها هذا الجبل الشامخ في حب وحنان نشأ أبو يحيى زكرياء بن أبي قاسم يونس الفرسطائي على ما نشأ عليه زملاؤه من أهل هذه القرية العامرة بالإيمان، محباً للعلم، مجتهداً فيه، ولما أخذ مبادئ العلم عن شيوخ مدينته ورغب أن يتم دراسته، ذهب إلى عاصمة الجبل شروس ليلتحق بالمدرسة العظيمة مدرسة ابن ماطوس، ولكن العاصمة الكبرى ضاقت به فقد امتلأت الأقسام الداخلية التابعة للمدرسة، حتى لم يبق بها مكان، ورجع إلى أهل المدينة فلم يجد مسكناً في أكبر مدينة بجبل نفوسة، لأن جميع المنازل غصت بالطلاب الذين يقبلون على اغتراف العلم من منبعه العذب، ودار الطالب الذكي في مصيره، وذهب إلى ابن ماطوس يستشيريه في أمره، فأسف الشيخ الكبير أن يحرم هذا الطالب النجيب من الدراسة في مدرسته لأنه لم يجد مسكناً في مدينة تحتوى على آلاف المنازل، وقال له ناصحاً: إني أدلك على من لو عرفه الناس لتزاحموا على بابه كما تزاحموا على باب أبي عبيدة في البصرة، عليك بأبي هارون الجلالى! ...

والتحق الطالب الذكي بهذه المدرسة التي لم تزل ناشئة لم يكثر عليها الإقبال، ولكنها ما فتئت أن أصبحت من أعظم المدارس التي قدمت للأمة المسلمة الخير الكثير وصدقت فراسة ابن ماطوس، فتزاحم الناس على باب أبي هارون الجلالى، كما تزاحموا على أبي عبيدة، وكما تزاحموا على ابن ماطوس، وكما تزاحموا على منابع العلم في كل مكان ...

درس أبو يحيى في هذه المدرسة، ومنها تخرج وكون مدرسته في القرية الجميلة القائمة على صدر الجبل، وفي هذه المدرسة تخرج عدد غير قليل من العلماء الأعلام من بينهم أبو محمد خصيب بن ابراهيم.

كان أبو يحيى قويا في دينه، قويا في علمه، قويا في خلقه، قويا في بدنه، لقد أضفى عليه المولى نعمة القوة في كل أحواله، وكان دائم الكفاح لا يمل ولا يفتقر، يعمل في حقوله ومزارعه كما يعمل الفلاحون المخلصون لمهنتهم، ويعمل في مدرسته كما يعمل المدرسون المخلصون لرسالتهم، ويعمل لربه كما يعمل المخلصون في عبادتهم.

وكان داعية خير وهدى، لا يكف ولا يمل عن الدعوة إلى الله، فإن كان بين المسلمين دعاهم إلى فهم دين الله والتمسك بهدي محمد صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه، وسيرة الصالحين من المؤمنين، وإن كان بين أقوام لا يؤمنون بالله دعاهم إلى الإيمان وحبب إليهم الإسلام.

سافر يوما إلى بعض بلاد السودان - وكانوا وثنيين - فلم يزل

يدعوههم إلى الإسلام حتى بلغ أمره إلى ملكهم، فاستدعاه، ولما ورد أبو يحيى على الملك ألقاه ناحل الجسم، ضعيف القوة، فسأله أبو يحيى عما به؟ فقال الملك: إن هذا من خوف الموت فدعاه أبو يحيى إلى الإيمان بالله، وأخبره بالجنة والنار، ووصف له أحوال المؤمنين في دار الخلود وما أعد الله لهم من خير، ولكن الملك أرتاب في أول الأمر، وقال له: لو صح عندك ما تقول ما بلغت إلينا في طلب الدنيا، فلم يزل أبو يحيى يذكره آلاء الله ونعمه، ويذكر له أن الله دعا المؤمنين إلى الضرب في الأرض، السير في الآفاق، والنيل من طيبات الرزق، حتى أسلم وحسن إسلامه.

والمؤمن الصادق لا يكف عن الدعوة إلى الله في أي مجتمع كان، فلا يفر بنفسه عن الناس، إنه لا يفر إلا الضعيف الذي يخاف على نفسه، والضعيف لا يستطيع أن يؤدي رسالة، أو يبلغ دعوة...

أبو محمد التَّمَصُّصِي

تمصص قرية تقع جنوب طَمَزِين قريبا منها، وقد عفى عليها الزمن وامحت أطلالها وأنقاضها، ولم يخلدها التاريخ إلا بنسبة عدد من الأعلام الذين أحببتهم، إليها.

نشأ أبو محمد خصيب بن إبراهيم التمصصي في هذه القرية التي تقع على منبسط من الأرض، تحيط بها غابات كثيفة من شجر الزيتون والتين، وفيها تلقى المبادئ الأولى من دراسته، ثم التحق بمدرسة أبي يحيى الفرسطائي، ولكنه كان يحس في نفسه ظمأ إلى مزيد من المعرفة، فذهب إلى "لالوت

"موضع الأشياخ والعلم، كما يقول أبو العباس، والتحق بمدرسة أبي الربيع سليمان بن هارون اللالوتي، فأم هناك دراسته، وتخرج منها علما من أعلام الإسلام، ومرجعاً من مراجع الثقافة، وسنداً قوياً للمؤمنين في الاهتداء والهداية إلى طريق الله القويم.

بعد أن تخرج رجع إلى بلده تمصص، وهناك أسس مدرسته الشهيرة التي تخرج منها فطاحل العلماء، وحسبها أنها المدرسة التي درست فيها العالمة البطلة أم ماطوس، التي تغلبت على إرادة البيئة من أجل طلب العلم، والتحقت بهذه المدرسة العظيمة، فكانت حُضر إليها من "جَارٍ إِصْرًا" والمسافة بين الحلين ليست قريبة، ثم أصبحت مثلة للمرأة في المجالس العلمية التي يعقدها المشائخ للمناقشة والدراسة في مختلف المحال، فلا تغيب عنها - سواء انعقدت في جناون أو في "تَنْدُوزِيع" - أو في غيرها من الأماكن...

كافح أبو محمد من أجل العلم - دارسا ومدرسا - بكل ما أوتى من جهد وقوة وإخلاص، وكان كريما، يبذل ما يصل إلى كفه من مال، فقد كان لا يجعل للدنيا حسابا، ولا يعرف للمال قدراً، ومهما دخل يديه من ثروة سواء كانت هذه الثروة نقوداً أو كانت ماشية أو كانت محاصيل زراعية، فإنها لن تبقى عنده أكثر من سنة، وقد يدخل يده في بعض السنوات ألف مودى من الحبوب، فما تتم السنة حتى ينفق هذه الثروة الطائلة من الحبوب ولا يبقى عنده شيء من المال، وكثيراً ما عاتبه ولده، وعاتبته زوجته على هذا الإنفاق، ولكنه لم يكن يستمع إلى كلامهما، فإن من طبع على خلق الكرم وتعود الإنفاق، لا يملك نفسه عن البذل

عندما تنهياً ظروف المعروف. وكم طالبه ولده أن يشتري الأملاك الثابتة حتى يخلفها له كما يخلفها الآباء لأبنائهم. ولكن أبا محمد لم يستجب لهذا الطلب الذي لا يوافق طبعه، ولا يجري على خلقه. قال له ولده يوما: إنك لست بكيس يا أبتاه! ... فأجابه الشيخ: الكياسة يابني عدوة الإسلام. ومعروف أن الكياسة المقصودة في هذا الحوار تعني الشح والتقتير والإدخار وتأثيل الأموال.

عاش أبو محمد فقيراً، لأنه ينفق جميع الأموال التي تصل يده في وجوه البر وعندما كبر وامتدت به الحياة، وضعف عن الكسب، احتاج إلى المساعدة.

ولقى رجلٌ من الذين لا يغفلون عن الأمر بالمعروف، لقي هذا الرجل أبا عبد الله محمد بن جنون كاتب أبي زكريا فقص عليه أخبار أبي محمد التميمي والحالة المؤسفة التي وصل إليها من الفقر والضعف والشيخوخة. فأسف أبو عبد الله وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون!! لي مال ومثل هذا الشيخ الذي هو جرثومة من جرثيم الإسلام تصل إليه الضيعة. ثم وضع يده في جيبه فوجد فيه واحداً وعشرين ديناراً فأعطاهما للرجل وطلب منه أن ينفقها على الشيخ. فإذا نفذت رجع إليه، ورجاه أن لا يخبر أحداً بحاجة الشيخ، ولا بمساعدة أبي عبد الله له.

وذهب الرجل بهدية الصديق إلى أبي محمد، فلم ينس أبو محمد طبعه الذي دأب عليه منذ عرف الخير والشر. ولذلك فما تسلم المبلغ حتى أخذ منه دينارين أنفقهما في سبيل الله، وما

أتم الباقي من المبلغ حتى توفاه الله إليه.

وكان أبو عبد الله محمد بن جنون ذا علم وفصاحة وبراعة في النقاش. لا يقوى على نقاشه أحد من العلماء. ولكنه إذا حضر مجلس أبي محمد خصب التميمي وقف منه موقف التلميذ من الأستاذ. لا يرفع إليه بصره، ولا يناقشه في سؤال. وهذا الموقف من أبي عبد الله يدل على مكانة الشيخ الكبرى.

درس على أبي محمد خصب عدد غير قليل من كبار العلماء. ومن أجبهم أبو زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي. أما فتاواه ومواعظه وتوجيهاته وأقواله في الفقه فقد بلغت كل مكان. وامتألت بها بطون الكتب.

أبو يوسف وجدليش

"يُوجِلين" قرية واقعة على زاوية مثلث من جبل شامخ متجه إلى مغرب الشمس. وعلى القدم اليسرى لهذا الجبل الشامخ الضارب في الهواء تستلقى جنان الجميلة. والواقف على قمة هذا الجبل فوق الأبراج المتينة التي شادتها هنالك سواعد الأجداد القوية ليحرسوا منها مدخل جنان يشاهد مدينة "مزغورة" رابضة فوق منبسط فسيح من الجبل المقابل، فإذا انحطت عيناه إلى الشمال قليلاً رأى في السفح قرية "شكشوك" كأنها خيمة يحيط بها هلال أخضر من نخيل. ومن هنا وهناك حول هذه القرية الجميلة تنحدر أودية خضراء ملتوية، تتقارب وتتباعد حتى تذوب في الأرض المبنسطة التي تتكون منها حقول القمح

والشعير.

وفي هذه القرية. وعلى رأس هذا المثلث. ولد أبو يوسف وجديش بن في. وصافحت عيناه النور. وتمتع منذ صغره بالجمال الذي اصفاه الخالق على طبيعة هذه المنطقة. وهل أجمل من أن يقف الإنسان في " يوجلين " ويستدير ببصره من اليمين إلى اليسار. ومن اليسار إلى اليمين ؟ يرمى ببصره إلى المشرق فيمتد بين غابة زيتون ونخيل تحجب لون الأرض بخضرة داكنة. فإذا استدار قليلاً طالعتاه المباني العالية " للقصير. وأشباري. وجادو " متراكبة كأنها ناطحة سحاب من صنع الخالق. ومن هناك ينزل بصره إلى " تموقت " التي تقع فوق سرة هذا العملاق العظيم. ومنها ينبع النهر الخالد الذي يروي الناس والشجر. وعلى قدمي هذه القرية الصغيرة ملاءة خضراء من شجر النخيل والأعناب والتين. وختها تستلقي جناون في استرخاء كأنها تغط في حلم لذيد. يتصاعد أمامها إلى الجنوب وادي جناون الجميل. فيكون ثلالاً في ماصرء. وينعقد بحيرة في الزرقاء. ومن هذه البحيرة التي لا تزال إلى اليوم مصيفاً لسكان الجبل ومقصداً للسواح الذين يزورون ليبيا. من هذه البحيرة ينحدر الوادي وترتفع عينا الناظر مع الجبل المقابل فيجد مدينة " جمارى " التي تسكنها جدة المشائخ " مارن " " وندبأس " التي يقع فيها أبو نصر. ثم " مزغورة " التي ترتفع منها صومعة أبي زيد. كما ترتفع المنارة الحدباء. فإذا استدار إلى الشمال انحطت عيناه على أرض الجفارة الفسيحة التي تشبه أن تكون زريبة بسطتها هنالك قدرة الخالق في أيام الربيع.

على هذه القمة وبين هذه المناظر الفاتنة. نشأ أبو يوسف جميلاً. صريحاً. حنوناً. يملأ قلبه الكبير حب للحق يستولي على مشاعره. فكان بذلك مؤمناً من أولئك المؤمنين الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : [أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ] يعرف الحق ويسير معه أنى سار لا تأخذه في الله لومة لائم. أخذ على نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فقام بهذه الفريضة كأحسن ما يقوم مؤمن بواجب من واجبات الدين. لا يعرف الغفلة ولا المسايرة ولا المداينة في دين الله. حتى إذا قام الحق واستقام الناس على الطريق. وغلب أمر الله. لزم نفسه. فكان ألين الناس خلقاً. وأطيبهم نفساً. وأكثرهم حبا وحناناً للمسلمين وعليهم المسلمين.

جعل إليه أمر السوق في " جادو " خوفاً من أن يقصده أولئك الذين دخلت أموالهم الريبة من الأموال المغصوبة التي يبتزها الحكام الظالمون وأتباعهم. أو الأموال المنهوبة التي يسرقها أقوام لم تطمئن قلوبهم بالإسلام. ولم تخضع جوارحهم لأحكام الله. فكان لا يستطيع أحد أن يبيع شيئاً في مدن الجبل إلا بعد أن يعرف مصدر ذلك المال.

وكان أبو يوسف رقيقاً فطنا في سوق جادو فما يستطيع أحد أن يبيع شيئاً إلا إذا أذن له. ولا يأذن أبو يوسف إلا إذا تحقق من مصدر ما يبيعه الناس. وعرف أن هذا المال لم تدخله ريبة. ولم يملكه صاحبه من حرام. ولم يتعامل مع أصحاب الشبهة.

جاء رجل من " إينر " بغنم له لبيعها في " جادو " فأستأذن أبا

يوسف في البيع، فسأله أبو يوسف عن نسبه ونسب غنمه، ولما اطمأن إلى أن صاحب هذه الغنم من لا تتطرق إليهم الشبهة سمح له بالبيع، وجاءه من بعده رجل من "أغل" يستأذنه في بيع غنم، فسأله عن أبيه، فلما عرفه وحقق أنه يتعامل مع المشبوهين غضب عليه وانتهره قائلاً: أفي سوق جادو وتبيع حرام أبيك؟! ...

ولم يزل به حتى أخرجه من جادو ولم يتركه حتى أوصله إلى ماطس.

وقد جمع إلى هذه القوة في أمر الله، العلم بدين الله، والحب في ازباد المعرفة حتى وهو كبير، فكان إذا ذهب للعمل يأخذ معه أداة العلم من كتاب أو لوح، فيختطف لحظات من الوقت وهو يشغل ليراجع مسألة، أو يردد شيئاً ما يود استظهاره من فنون العلم.

وقد جلس للتدريس، وأخذ عنه العلم خلق كثير، أما هو فقد درس على أبي يحيى يوسف بن زيد الدرفي، وأبي نصر زار بن يوسف التفسّتي، وغيرهم.

كان يحضر مجالس العلم في دار بني عبدالله في جادو، فإذا انتهى المجلس رجع إلى منزله في "يوجلين"، وحقده عليه قوم من لم يتركهم يبيعون إموالهم المسترابة في سوق جادو، فكمنوا له في الطريق في إحدى الليالي، ولما أراد منزله، خرجوا عليه من مكمنهم فجرحوه بضعة عشر جرحاً، ولما حضر المشائخ إليه في الصباح وحاولوا أن يعرفوا منه أسماء القوم المعتدين امتنع عن

ذلك، ولم يرض أن يداوي فتنة بفتنة، واحتسبها لله.

ولكن هذا الموقف الظالم لم يمنع الشيخ من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يمنعه من حضور مجمع العلم في دار بني عبدالله، ولا من الصلاة في "إمسراتن" الجامع الذي بنته نفوسة كلها، والذي يعقدون فيه اجتماعاتهم إذا حز بهم أمر أو أهمهم شأن ...

أبو زكرياء يحيى بن الخير الجناوني

جناون مدينة غناء تستلقي في دلال على أقدم جبل أشم وتلعب على سرتة القرية الطريفة الضاحكة "تموّقت" وجّم على صدره من الجانب الأيمن بلدة "القصير" الجميلة، أما هامته المرتفعة التي تناجى السحب فتتوجهها مدينة جادو، العظيمة الحديثة.

أما كتفاه القويتان فقد وقفت على إحداهما "مزو" وعلى الأخرى "يوجلين" تصفق الأولى "للجُمّاري" وتبتسم الثانية "لمزغورة".

وفي هذه المدينة الحاملة المسترخية على أقدم الجبل متلفة بغلالة خضراء نسجتها يد الطبيعة الساحرة، تخترقها جداول المياه المنحدرة مع شلال القصب "إيغانيمن" نابعة من نهر "تموّقت" الثّرار، وخطب بها الأشجار الباسقة الكثيفة من زيتون ونخيل وكروم، وتناجىها الشمس الغاربة على صومعة أبي زيد، فتبعث إليها قبلات المساء مع الأشعة الصفراء الدافئة..

في هذه المدينة الجميلة الفسيحة التي كانت منبعاً من

منابع العلم، ومركزاً من مراكز الإيمان، وحصناً لإنتاج الرجولة والبطولة والفداء، في هذه المدينة التي استعصمت على قوى الميؤوفى حين طاش به الغضب، وظن أنه أوتي من القوة ما يقضي به على الحياة، فأضرم النار ليجرق هذه المدينة وما يحيط بها من أجنة وبساتين، فاحترق ما يزيد عن إثني عشر ألفاً من شجر الزيتون، ولكن جناون بقيت صامدة له وللتاريخ، وقد أحرق التاريخ الميوقى وأضرابه من الظلمة، بعد أن أحصى عليهم جرائمهم، وبقيت جناون تبتسم للحياة ...

وفي هذه المدينة العظيمة نشأ أبو زكريا يحيى بن الخير بن أبي الخير الجناوني، تظهر عليه مخايل النجابة، وتسطع على جبينه أشعة الصلاح، وتدل حركاته وكلماته على الذكاء والعبقريّة منذ الصغر، وقد رعى تحت رعاية جده أبي الخير، فغذى عقله بالمعرفة، وملاً قلبه بالإيمان، وعوده السير على هدى الإسلام، فبلغ شهرة علمية لم يصل إليها جده.

وقد عكف على تأليف الكتب، فزود المكتبة الإسلامية بعدد من النفائس تزدان بها رفوفها العامرة، ولقد أصبح مرجعاً يقبى منه العلماء والطلاب، ويرجع إليه الباحثون والمتطلعون إلى المزيد..

درس في المدينة العلمية "إتّناين" على العلامة أبي الربيع سليمان بن أبي هارون الباروني، ولما أتم دراسته هناك ورجع إلى بلده جناون، اسندت إليه الفتوى، فكان نعم المفتى، لا يعيا بجواب، ولا يقف في سؤال، ولا يعسر عليه حل مشكلة من مشاكل

المعرفة.

وكان سمح الخلق، لين العريكة، كريم اليد، ولكنه مع هذه الصفات اللينة كان شديداً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يؤثر عليه موقف من المواقف، يقول فيه أبو العباس الشماخي: "كان اعتماد أهل نفوسة على كتبه، حفظاً وفتياً، لكونه أودع فيها المأخوذ به من الأقوال، وربما ذكر الخلاف، وهى كتب مفيدة في الأحكام،" وإن رجلاً يجوز ثقة أمة فتعتمد كتبه في دينها وأحكامها، رجل بلغ الغاية.

وهو إلى هذا الاطلاع الواسع، والعمل المتواصل في التأليف، كان جم النشاط، موصول الجهد في نشر العلم وبث المعرفة، وقد درس عليه كثير من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، ويرجع إليهم في عويص المسائل، ومعضلات المشاكل.

أما حرصه على التعلم وجده في دراسته، وإقباله على الإطلاع، فقد كان مضرب الأمثال بين الأقران ويكفى أنه بقى في إبنائن مدة دراسته على أبي الربيع، لم يجد من وقته فراغاً يقضيه في النجول بين أحياء المدينة، أو الإطلاع على البيئة التي تحيط به، فلما أتم دراسته وأراد الرجوع إلى بلده، استأذن من شيخه أن يقوم بجولة يطلع فيها على ما لم يعرفه من البيئة التي قضى فيها زمناً غير قصير من عمره المبارك، وأن يدخل إلى القسم المخصص للنساء في المسجد العامر، الذي كان محلاً للعبادة، عامراً بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، كما كان مدرسة تؤدي رسالة التعليم للكبار في دروس الوعظ والإرشاد.

تنقف عقول أولئك الناس الذين حرمتهم ظروف الحياة من الدراسة في الصغر، فتيسر لهم سبل التعليم، وتنور قلوبهم بما تضيفه عليهم تلك الدروس من هدى وحكمة ...

أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي

"ملوشايت" مدينة فسيحة تنبسط على قمة جبل شامخ، ترنو إلى مغرب الشمس وتناجي زميلتها فرسطاء الجائمة على ضفة الوادي المقابلة.

في هذه المدينة التي كانت تنافس عاصمة الجبل "شروس" العظيمة في يوم من الأيام، ولد أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي، وعلى هذا المنبسط فوق القمة الشامخة الذي يزدان بشجر الزيتون الأخضر درج، وعلى حوافي الجبل الشامخ كان يثب في خفة الوعل، أو يجلس ورجلاه تتأرجحان على ارتفاع شاهق وعيناه تنطلقان على مدى البصر في سهل الجفارة الذي لا يجد، وخياله يذهب سابحاً منطلقاً حراً فوق الغيوم ...

لقد كان لهذا الموقع الشعاعي الساحر أثره على هذا الطفل الذي شب في مدينة العلم والجمال؛ وبعد أن تلقى المبادئ الأولية، انتقل إلى المدرسة الكبرى، التي كان يشرف عليها خاله أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم، فكان نعم التلميذ لنعم الأستاذ.

بلغ في الدراسة مبلغاً لا يصله إلا القليل من عباد الله المختارين: ثقافة واسعة، وخلق رضى، وإيمان قوي، وشدة في دين الله، وقيام بالحق لا يقوم به إلا عدد ضئيل من أصحاب المبدأ والدين والضمير. إذا ترفع إليه الناس للخصومة جعل بينه

وبينهم سترًا من باب أو جدار أو غيره، حتى لا يغلبه الحياء فيميل مع أحدهما.

وإلى هذا الإيمان القوي، والدين القويم، والعلم الواسع، كان شاعراً مطبوعاً ليس له نظير من العلماء الشعراء؛ تطالع شعره فتجد حكمة المتنبي وجزالة لفظه.

وقد ينظم في العلوم، فتجد في نظمه الشاعر التي تخلو منها المتون الفقهية واللغوية، وإذا كان الشعراء غالباً ما يقضون أعمارهم بهيمون في الأودية، ويتسكعون في المنازه، وبلغون في الباطل، فإن هذا الشاعر العبقرى كان عاملاً ومن دعاة العمل، وجاداً ومن دعاة الجد، ومكافحاً ومن دعاة الكفاح، فاستمع إليه يصف لك طريق السمو والجد:

وسهر الليالي والسرى والتهجر

سما من سما بالجد والعزم والصبر

إن الإرادة القوية، والعزيمة الصادقة، والصبر على المكاره، ومواصلة الكفاح في الليل والنهار لهي الوسائل التي ترتفع بالإنسان إلى مراتب الجد والكمال. والشاعر يصور لنا الرجل الذي يظفر بإعجابه وحب، والرجل الذي يزدرىه ويبتعد عنه في بيتين رائعين من الشعر القوي:

لدنيا وأخرى، عاملاً بالتشمر

أحب الفتى ماضى العزائم حازماً

ولا بالجثوم الراكد المتدثر

وأما أخو النومات لا مرجحاً به

قارن بين الرجال الثلاثة في هذين البيتين، انظر إلى هذا الفتى الحازم، صاحب العزيمة الماضية، الذي يشمر عن ساعد الجد، ويكافح من أجل الحياة السعيدة، في الدنيا والآخرة؛ إنها صورة للمسلم الحي الذي يعرف قيمة الرسالة المنوطة به في الحياة، وقيمة العمل الذي يسأل عنه يوم القيامة، فهو لا ينسى آخرته بدنياً، ولا ينسى دنياه بآخرته فيعيش عالة على الناس.

ثم انظر إلى هذا الكسلان الذي يقطع يومه بالنومات، فهو لا يدأب على عمل، ولا يستمر في كفاح، استمرراً البطالة، وتعود على الإمتداد لا يصلح لدنياً ولا الدين.

أما الصورة الثالثة : فهي لهذا الرجل الذي يقبع في زاوية البيت أو المسجد، قد تلفع بثوبه وركد ركود الصخر، تحسب أن الحياة قد فارقتة، فهو جائم جثوم الجماد لا روح له ولا حركة، وتأمل معي هذه الصورة الشعرية الرائعة للكسلان الذي يعيش على الأمل لا على العمل، يبيت ليله مهموماً مشغول الفكر يقلب أوجه الرأي في طريق الكفاح، فإذا أصبح لم يعمل شيئاً، حتى يأوي به الزمن السائر الدائر إلى ليلة مقبلة، فيعاود ما كان عليه، حتى ينصرم منه العمر، ويذهب به التاريخ فيمن ذهب من الناس :

جبال الأمانى والوساوس والفكر

سمير هموم وسد الرأس ليله

واقراً معي إن شئت هذه الصورة الحية للإنسان في معركة الحياة :

أحاطت به الأمواج في لجج البحر

وما المرء في ديناه إلا كناعس

وتأمل معي إذا أردت هذه الصورة الرائعة لواقع الناس، عندما يدهم أحدهم الموت : فيذكرون الله، ويفزعون إليه، ويخشون عاقبة أعمالهم، حتى إذا توارى الميت : وبعد عنهم شبح القبر، رجعوا إلى ما كانوا عليه من تكالب على الدنيا، ونزاع على لذائذها وشهواتها :

وتأبى الطباع الانتقال عن الصبر

ترى عند ذكر الموت للنفس نفرة

وغاب فعادت لاقتطاف المنور

كذئب دهى خرفان حي فأرزت

والشاعر العالم كبير القلب، يحب الإخوان، ويبعث إليهم بتحياه في كل مكان :

سلام على الإخوان في كل موطن...

ولكن هذا الحب لا يمنعه أن يوجه إليهم كلمة العتاب والتوبيخ على جمود الفكر وضآلة العمل، وقرب الغاية التي يسعون إليها إذا كانوا يتجهون بدراستهم إلى أنواع معينة من المعارف تدر عليهم أبحاثاً مادية، ولكنها لا تسمو بهم في ميادين الثقافة العالية، والكفاح المثمر، الذي يدعى إليه المسلم الحريص

على أداء رسالة الإسلام ...

بفقه المعاش مولعين بالسُنن

نظرت إلى قرائنا فوجدتهم

ومن أمرّ ما ينتقد على هؤلاء المتعلمين القاصرين أن معارفهم سطحية، لا تتجاوز ألسنتهم، إنهم لم يصلوا إلى أن يكون علمهم مبدأً، وعقيدة راسخة في القلوب، عليها يعملون وبها يصدرون.

والشاعر المؤمن العالم عامر الجوانب، غزير المادة لا يصوره حديث عابر في فصل من كتاب، وإذا يسر الله فسوف أعود إليه في دراسة أدبية تتنازل بعض كبار الشعراء.

كان أبو نصر يجلس على حافة الجبل، متجهاً إلى الشمال، حيث تنبسط أمام عينيه السهول الفسيحة، التي تمتد ما بين جبل نفوسة والبحر. وفي هذا الموقع الجميل الذي يطل منه على العالم، نظم أبو نصر أغلب شعره، وأكثر متونه، وفيه ألف مقاماته الرائعة، التي نحا فيها منحى جديداً بالنسبة إلى ما عرف من أساليب المقامات وأغراضها. لقد كان بأيدي ذلك المكان الشاعري بعد صلاة الفجر، عندما تخف حرارة الشمس الغاربة، ويرق نسيم الأصيل.

أما ليله الذي يبتدئ بعد نهاية الدروس التي يلقيها في المسجد بعد صلاة العشاء لعموم الناس، فقد كان يقسمه قسمين : قسم لمذاكرة العلوم ومراجعة الأسفار الضخمة والتحقيق العلمي الذي يحتاج إليه : أما القسم الآخر فخاص

بعبادة ربه، يناجيه فيه، ويستلهمه الهداية والتوفيق والبركة، وعند الصباح كان يشغل بالتدريس، لينشئ جيلاً من الشباب الواعي يتحمل عنه رسالة الإسلام.

وهكذا كانت تمضي حياة أولئك الأعلام بين حلقات متواصلة من الكفاح، لا يفترقون ولا يملون ...

ولا بالجنوم الراكد المتدثر

وأما أخو النومات لا مرحباً به

أبو موسى عيسى الطرميسي

"طَرْمِيسَةُ" اليوم : قرية صغيرة جاثمة على قمة ضاربة في الهواء بين واديين عميقين تشبه أن تكون ناطحة سحاب، أو وكر عقاب، يفصلها عن بقية الجبل من جهة الجبل خندق عميق، يصل بين الوديين، حفرتة أيدي العمال الأقوياء ليحفظوا هذه القرية الصغيرة من عدوان المعتدين، ومفاجآت المغيرين، عندما تكالب الناس على الدنيا، وبعثوا عن دين الله : فكانت بذلك تشبه أن تكون جزيرة معلقة في السماء : أما موقع "طرميسة" القديم فيقع إلى الجنوب بنحو ميلين على حافة الوادي الجميل، الذي تنبع منه عين "قلو" حيث ترد اليوم أسراب من الحمام يخطئها العد. وفي هذه القرية التي تطل على هذه العين، التي كانت في يوم من الأيام شبيهة بعين الزرقاء، ولد أبو موسى عيسى الطرميسي، وفيها نشأ، ولما بلغ سن الدراسة التحق بمدرسة أبي يحيى وجدليش، وعنه درس، وفيها تخرج، ولما أتم دراسته أسس

مدرسته العظيمة التي خَرَّجت عدداً غير قليل من الأعلام.

تقع المدرسة التي أسسها أبو موسى عيسى الطرميسي فوق ريوه عالية متوسطة بين جادو وطرميسة، ويظهر أنه اختار هذا المكان حتى يكون وسطاً بين مجموعة من القرى، يأتي إليها الطلاب الذين يقيمون في الأقسام الداخلية التي أعدتها لهم المدرسة، فقد كانت تبعث إليها مبالغ من المال من مختلف الجهات لينفق منها على طلاب هذه المدرسة.

انقطع هذا العالم الكبير إلى التعليم، فلم يشغله عنه مال ولا ولد، وطالما نصحه أصدقاؤه أن يتزوج، ولكنه آثر العزوبة التي ينقطع فيها إلى العمل والعبادة، فلم يتخذ له شريكة في الحياة، ووهب كل حياته لربه وطلابه.

قضى زمناً غير قصير في تنظيم هذه المدرسة التي أسسها في مركز ممتاز، يجمع بين عدد من القرى، فلما استقرت أركانها، وقويت على أداء رسالتها، وانتظم أمر التعليم والطلبة فيها، تركها لبعض طلابه النجباء يتولى أمرها، ويسير قضية التعليم فيها، وانتقل إلى تلك المدرسة العظيمة التي أسسها أبو زيد المزغورتي، حين شعر أن أمر التعليم في هذه المدرسة العظيمة بدأ يتدهور، وقام بهذه الرسالة المقدسة في هذه المدرسة الكبرى فانتعشت حركة التعليم، وعادت فيها السيرة إلى ما كانت عليه يوم كان يشرف عليها أبو زيد العالم العظيم، وقد بقى في هذه المدرسة حتى وافته المنية سنة عشرين وسبعمئة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

كان أبو موسى جميل الطلعة، قوي البنية، نبيل الصورة، أبيض اللون، تبدو عليه سيماء الصلاح؛ ولما أحس بدنو الأجل، أوصى أن تكون مكتبته العامرة وقفا على طلبة نفوسة وعلمائهم، ولست أدعى في هذا المقام أن هذا الموقف من أبي موسى يعتبر الفكرة الأولى لتكوين المكتبات الشعبية، فأنا أعرف أن الدول قبل هذا الأوان كانت تكون المكاتب التي تجمع أندرها في العالم من نفائس ولكنني لا أزعج أنني وقفت فيما أطلعت عليه أن شخصا سلك هذا المسلك وكل ما عرفت: أن الشخص قد يحرص على بعض نفائسه، فيجمعها وقفا على أبنائه، أو ما يشبه ذلك.

وفي رأيي: أن أبا موسى قد يكون صاحب الفكرة الأولى لتكوين المكتبات الشعبية، التي تيسر الاطلاع للناس دون اعتماد على أموال الدولة أو سلطة الحكم.

أحسب أنني أشرت في بعض الفصول السابقة: أن مدرسة أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي تكون إيجاباً جديداً في الحياة العلمية بالجليل، ويصح أن تعتبر مبدأ نهضة علمية سلكت وجهة كانت خيراً وبركة على الأمة، هذا الاتجاه هو ما حرص عليه أبو موسى من توجيه طلابه إلى تأليف الكتب، هذه الناحية التي كانت فيما سبق لا يشغل بها إلا بعض الأفاضل الذين يجدون فراغاً في وقتهم، وإنما كانوا يعتمدون على الرواية ولا سيما في علوم الشريعة بمختلف فنونها، وقد استجاب أولئك الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد علماء قد يفوقون أستاذهم... استجابوا له، وعكف مجموعة منهم على التحرير.

فأجزوا لنا في زمن قصير مجموعة من الكتب القيمة، التي يحق أن تفخر بها المكتبة الإسلامية في كل العصور، ويكفي أن نضع على رأس القائمة مؤلفات فيلسوف الإسلام " الجيطالي " ليعرف الباحثون عن التراث الإسلامي أي ثروة تركتها لنا هذه المدرسة العظيمة التي لم يبق منها إلا مسجد فوق ربوة عالية، بين طرميسة، وجادو يصارع الزمن، ويتحدى التاريخ.

قد يفهم القارئ الكريم من حديثي هذا أن حركة التأليف في العصور التي سبقت أبا موسى الطرميسي كانت ضئيلة، أضعيفة، فإذا خطر لأحد القراء الكرام مثل هذا الخاطر فليعلم أنني لم أقصده أبداً ؛ فإن حركة تأليف الكتب لم تتوقف يوماً من الأيام منذ تشرفت هذه البلاد بالإسلام، وإنما كان الاهتمام بهذا المنحى اهتماماً فردياً لا مدرسياً، أما أبو موسى فقد وجه مدرسته نفسها إلى العناية بالتأليف، ولذلك فلم يبق أحد من طلابه من يقوى على القيام بهذه المهمة دون أن يقدم إلى المكتبة الإسلامية ما يستطيع من نتاج.

وقد استمرت هذه الحركة منذ هذا الجبل، أو هذه المدرسة، جادة نشيطة تؤتي أحسن الثمار.

لا يكاد يوجد شخص من ينسب إلى العلم في ذلك العصر لم يدرس في مدرسة أبي موسى ؛ وقد تخرج فيها عدد غير قليل من العلماء الأعلام، وحسبها أن يكون من طلابها فيلسوف الإسلام المؤمنان العالمان : أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي، وأبو ساكن عامر بن علي الشماخي. وحسب

أبي موسى شرفاً أن يكون هذان العالمان من طلابه...

أبو طاهر إسماعيل الجيطالي

" جيطال " : مدينة فسيحة تقع بين أمسين وإينر، على ربوتين متقابلتين كأنها نهدان على صدر حسناء، تحيط بها من جميع الجهات غابات كثيفة من الزيتون والتين.

وفي هذه المدينة الفسيحة نشأ فيلسوف الإسلام صنو أبي حامد الغزالي: أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي ...

درس أبو طاهر على أبي موسى عيسى الطرميسي، ومن مدرسته العامة تخرج، وبلغ من فهم الإسلام وأسرار الشريعة مبلغاً قصر عنه الطالبون، وتضاءل دون بلوغه العارفون. اشتغل بالتدريس في مدرسة أبي زيد المرغورتي وقد التقى فيها بعد وفاة شيخه أبي موسى بزميله وصديقه العلامة أبي عزيز، ثم انتقل إلى قرسطاء، فقام فيها بالتدريس تسع سنوات كاملة ؛ وأخيراً انتقل إلى جزيرة " جربة " وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل المحتوم، فخلق بربه.

أبو طاهر الجيطالي : عملاق من عمالقة الفكر الإسلامي في ذلك العصر، خدم الإسلام بإخلاص المؤمن، وجد العالم، وعمق الفيلسوف، والآثار القيمة التي تركها تحتاج إلى مزيد من العناية والدراسة والبحث، ولو قدمت تلك الآثار اليوم إلى المكتبة الإسلامية الغنية لاحتلت بينها مكاناً مرموقاً.

ولعل من أعظم ما كتب عن معاني الإيمان وفلسفة الأخلاق : كتابه القيم " قناطر الخيرات " في ثلاثة أجزاء ضخمة، والجيطالي

وإن كان متأخراً عن الغزالي، إلا أن مقارنة بينهما قد تكون من المباحث الممتعة التي تحتاجها المكتبة الإسلامية، والمقارنة بين الفيلسوفين المسلمين العظميين تحتاج إلى ذهن صاف، وفكر نير، وفهم عميق لروح الإسلام، وأثرها في العقيدة والسلوك.

والجيطالي لو لم يقدم إلى المكتبة الإسلامية إلا هذا الكتاب، لكان فيه الكفاية، ولكن الرجل مطبوع على حب الكفاح في سبيل الإيمان والعلم، فهو يدعو إلى ذلك بسلوكه ولسانه وقلمه، لم يفتر عن هذا الكفاح حتى لحق بالله، وقد ترك فيما ترك: "قواعد الإسلام" ولا يقل هذا الكتاب روعة عن القناطر، وإن كان كتاب القواعد لم يعن بالناحية الفلسفية للشريعة الإسلامية، وإنما عنى المؤلف فيه بالتحليل والتعليل والتدليل، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع في قواعد الإسلام الخمسة، وهو كتاب ضخيم قل أن تجد في موضوعه مثله.

وشرح قصيدة الشاعر العبقرى أبي نصر الملوشائي، المسماة بالنونية، والتي مطلعها.

سلام على الإخوان في كل موطن

وإنها لمنعة للنفس والفكر والعقل أن تقرأ شعراً لأبي نصر يقدمه إليك أبو طاهر ويشرحه لك.

وجمع المناقشات التي كانت تدور بين أئمة العلم فنسقها وقدمها في كتاب قيم، يشتمل على ثلاثة أجزاء ...

وقد أهتم بفريضة الحج اهتماماً خاصاً، فأفرد بها بكتاب فريد في نوعه وأسلوبه وروحه، وحسبك أن تعرف أنه كتب بروح أبي

طاهر الجيطالي.

جمع كثيراً من الرسائل، ونظم عدداً من القصائد، هي إلى معاني الفلسفة أقرب منها إلى أغراض الشعر.

إن الذي يقرأ الفقرات السابقة يحسب أن العمل في حقل العربية والإسلام لم يترك للفيلسوف الكبير وقتاً أو مجالاً يعمل فيهما في غير هذا الحقل... ولكن الواقع هو غير ما يظنه هذا القارئ الكريم، فإن الفيلسوف بلغ في العلوم الرياضية المعروفة في ذلك الحين مبلغاً يقصر عنه الأقران، وقد ألف في الحساب والهندسة.

وإلى هذا الجهد المتواصل في التأليف كان يشتغل بالتدريس، وكان لا يتوقف عن دروس الوعظ والإرشاد ولا يقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان يعيش في مجتمعه عيشة حقيقية، يعرف ما يقع فيه من هدى وظلال، ولذلك فقد كان يحارب أسباب الضلال حرباً متصلة لا تتوقف ولا تهدأ، سواء كان هذا الضلال زيفاً في العقيدة، أو انحرفاً في العمل، أو استهانة بالواجب، أو جهلاً بأحكام دين الله، وقد كان يغشى الأسواق، ويدخل المجتمعات يبين للناس الحق من الباطل والحلال من الحرام حتى قال بعض العابثين: إن أبا طاهر قد علم التجار جميع وسائل الغش، يعنون أنه ينهأهم عنها فتعلموها منه.

إن عزائم الأبطال لا تضعف ولا تتوقف عند حد، وهؤلاء الأعلام حين يخدمون الإسلام ويخدمون الأمة، ويخدمون الوطن، يخدمونها في جميع الجهات، وبجميع القوى والإمكانات، قلم

لا يكف عن الكتابة، ولسان لا يكف عن الهداية، وسلوك لا يحيد عن صراط الله السوي. وجوارح لا تعرف التعب أو السأم ... إنها جهود جبارة متواصلة متتابعة متعاونة ... سافر إلى طرابلس في تجارة، وكانت شهرته بلغت الآفاق، فجمع له الأمير عدداً من العلماء، فيهم قاضي المدينة، للجدال والنقاش، فعجزوا عن الوصول إلى شأوه، والتطلع إلى الأفق السامي الذي يحلق فيه، حتى خداهم فقال: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، فحقد عليه القوم، ولم يزالوا بالأمير حتى سلبه ماله وسجنه، وبقي في السجن حتى شفع فيه "ابن مكي" أمير قابس، فأطلق سراحه ...

أقام بفرسطاء مدة من الزمن، تبلغ تسع سنوات، يقوم فيها بالتدريس، ويقيم ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكافح الأمراض الاجتماعية التي تتسرب إلى الأمة بطرق خفية، حتى إذا كثرت استعلت وفشت! ... سمع يوماً بأن خمراً عند أحد الناس، فخرج إليه في جمع من الفقهاء والعلماء وأهل الصلاح ليغيروا هذا المنكر، ويطلبوا من هذا المنتهك حرمة الإسلام أن يكف عن معصية الله ويتوب إليه، ولكن أهل العاصي غلبتهم قوة القرابة عن أمر الله، وساقتهم عصبية الدم إلى معارضة حكم الدين، فاعترضوا طريق الشيخ وأصحابه، وامتنعوا عن تسليم المجرم الذي انتهك الحرمة، وأعلن المعصية: فرجع الشيخ أسفاً، وعزم على الارتحال، ولما تعلق به الناس يمنعون من الرحيل، ويحاولون دونه قال لهم: لا أقيم في بلد لا يقام فيه الحق، ومنع المؤمنون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وهكذا انتقل

من جبل نفوسة إلى جزيرة جربة، وكان لانتقاله ذلك أثر أكبر من إقامة الحد، وأخذ العاصي بالعقاب، فقد أعلنت المدينة براءتها من المجرم وأهله، وقطعوا التعامل معه، ونبذوه كما نبذ المصاب بالأمراض السارية، فضافت بالرجل وأهله الأرض، وأعلنوا توبتهم، ورجعوا يلتمسون السماح، ويطلبون تنفيذ حكم الله، وطأطأوا تلك الرؤوس التي نفخ فيها الشيطان فارتكبت أكبر جرمتين في شرع الأخلاق والدين، وهل أكبر من شرب الخمر ودعوى الجاهلية ...

زار بلده جيطال فوجد العلامة أبا ساكن عامر بن علي الشماخي في المسجد يدرس بعض الكتب بعد صلاة العشاء، والعلامة أبو ساكن من خريجي مدرسة أبي موسى الطرميسي التي درس فيها الجيطالي، وإن كان الجيطالي أسبق من أبي ساكن في حلقة الدرس فهما زميلان بالنسبة إلى المعهد وإن لم يجتمعا في عهد الدراسة.

وجلس الفيلسوف الكبير إلى العالم الكبير، وجرى بينهما النقاش الممتع الذي يجري بين صديقين ذكيين عالمين، واستمر بهما الحديث إلى أن قاما إلى صلاة الصبح، وأجاب العالم الكبير عن جميع الأسئلة التي وجهها إليه الفيلسوف الكبير، فلم يتوقف في مناقشة، ولم يع بجواب، فكان أبو طاهر يقول بعد ذلك إذا سئل عن أبي ساكن الشماخي: "عامر وحيد دهره" والرجل الذي ينجح في امتحان يعقده له أبو طاهر، وينافشه فيه ليلة كاملة حقيق أن يكون وحيد دهره على أن الآثار التي خلفها الشماخي كافية للدلالة على سمو منزلته، وارتفاع مكانته.

لقد عاش الجييطالي في القرنين السابع والثامن. يملأ الدنيا علماً، وحكمة، وخلقا، ودينا وتوفي سنة خمسين وسبعمئة، بعد أن ضرب مثلاً رائعاً للمسلم المكافح الذي لا يعوقه شيء عن بلوغ أنبل الغايات واسمى المقاصد ...

أبو ساكن عامر الشماخي

" يفرن " : أسم يطلق الآن على مجموعة من القرى متجاورة، وقد كان عدد منها متصلاً يكون مدينة عظيمة تسمى " البيضاء "، ومن هذه المجموعة تنأى قرية إلى الشمال الغربي تسمى " ديسير " كان لها تاريخ حافل، وبها الحصن العظيم الذي يتكون من نحو ألف وثمانيئة غرفة بعضها فوق بعض، خربته الدولة التركية عند احتلالها للجبل، كما خرجت كثيراً غيره من القصور الشاهقة التي تعتبر معاقل للتحصن ومخازن للحفظ.

وتقع هذه المدينة الكبرى بقراها التابعة لها على منبسط من الجبل قد تنأى فيه ربوة غير عالية أو ينحدر فيها واد غير عميق، والمنطقة التي تقع فيها هذه المدينة تعتبر من أجمل مناطق الجبل وأخصبها أراضاً، وأجودها تربة، وألطفها هواء، وأعذبها ماء.

في هذه المدينة الكبيرة الجميلة الغنية نشأ أبو ساكن عامر بن علي بن عامر بن بسيف الشماخي.

نشأ طفلاً يطل الذكاء من عينيه، وتظهر النجابة على مخائله، ويرى الصلاح على مسلكه، وهو صغير أرسله أبوه

ليرعى مع رفاقه له فمر بهم أعرابي وجد عامراً ممسكاً برسن البقرة يتبعها خطوة خطوة، هي تنتقى الأعشاب وتختار أنواع الكلاً، فقال له الأعرابي : لماذا تمسك برسن البقرة دون رفاقك هلا أرسلتها واسترحمت ولعبت مع أقرانك ؟ فقال عامر أخشى أن تغشى زروع الناس، وعجب الأعرابي من خلق هذا الطفل الصغير : فلما دخل المدينة ذهب إلى أبي عامر يقول له : إن ولدك يصلح للدراسة لا لرعي الأبقار، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياة هذا الطفل النجيب، وفي اليوم الثاني أرسله أبوه إلى المدرسة بدلاً من مرعى البقرة ...

وبعد أن تلقى المبادئ الأولى في مدرسة " البخابخة " التي كانت تقوم برسالة التعليم لقرون طويلة، التحق بالمدرسة العظيمة، مدرسة أبي موسى عيسى الطرميسي، هذه المدرسة التي خرجت عدداً غير قليل من أعلام الدين والفكر وفيها درس، ومنها تخرج، وكان أحب الطلاب إلى الشيخ الكبير وأثرهم عنده، حتى خصه دون بقية الطلاب النجباء بحمل الأمانة، فقال له : لقد أبلغت إليك هذا الدين سالماً دون أن تشوّهه الخرافة أو البدعة فإن حافظت عليه بقي، وإن أهملته ضاع

بعد أن أتم دراسته رجع إلى " يفرن " وكون هناك مدرسته الكبرى التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، في نقطة متوسطة بين قرى " يفرن " وبدأ كفاحه في نشر العلم، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الثقافة والوعي الديني والخلقي بين الناس مدة من الزمن، ثم انتقل إلى مدرسة أبي زيد المزغورتي، وتعاون مع زميله وصديقه الشيخ أبي عزيز في حمل الرسالة

المقدسة حتى استقامت. ووجد أبو عزيز من طلابهما من يساعده على أداء هذا الواجب، فانتقل أبو ساكن إلى "ميتيُون" في أرض الرحيبات، وهنالك بقى ثلاث عشرة سنة، استطاع خلالها أن يرجع إلى تلك البلاد عهدا الزاهر في العلم والفضل والدين. ثم رجع إلى مدرسته العظيمة في "يفرن" وبقى بها إلى أن اختاره الله للرفيق الأعلى.

لقد حرص أبو ساكن أن يكون عند حسن أستاذه، فبذل جهداً لا يقل عن جهد شيخه، وترك من الأثر ما لا يزال إلى اليوم.

قد يخطر سؤال على بال أحد القراء الكرام فيقول : لماذا ينتقل هؤلاء العلماء من مكان إلى مكان يؤسسون مدرسة في بلد من البلدان وبعد زمن طويل أو قصير ينتقلون إلى بلد آخر فيقومون بنفس الرسالة، ثم لا يلبثون أن ينتقلوا منها.

والجواب على ذلك معروف من قواعد المذهب، فإن أولئك العلماء الأعلام يؤمنون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وهم لا يستطيعون أن يحاربوا الجهل أو المنكر أو الفساد أو الانحراف عن بعد، أو بالمراسلة، ولذلك فهم يدرسون المجتمع ويعرفون جوانب الحياة في كل جهة من جهاته، ويلمسون الأمراض التي تصيب الأمة في دينها أو في خلقها، وفي الحبل الذي تبدو ظواهر بعض هذه الأمراض يتخذون مراكز علمهم، وينطلق كفاحهم، حتى يستأصلوا الداء ويبيدوا جراثيمه التي تفتك بالأمة، فإذا علموا أنهم قضوا على هذه الأمراض الإجتماعية والدينية الفتاكة، وأمّنوا على هذا الجانب من الأمة، ورأوا آثار أعمالهم، انتقلوا إلى

غير ذلك المركز ليقوموا بنفس العمل.

إن أولئك الأعلام كانوا يرون أنهم محاسبون على إبلاغ رسالة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء بها، ولن يعذرهم ربهم أن يعملوا على تبليغها في مكان واحد وهم قادرون أن يبلغوها في أمكنة متعددة، إنهم يلاحقون هذه الأمراض : أمراض الجهل، والانحراف عن دين الله بالزيف أو الإهمال، كما يحارب أبطال السيف هجوم الأعداء : فما يسمعون بغارة كبيرة أو صغيرة في طرف من أطراف الوطن حتى ينطلقوا إليها.

هكذا كانوا يفعلون، وبهذه السيرة سار أبو طاهر الجيطالي، وبهذه السيرة سار أبو ساكن عامر الشماخي، وبهذه السيرة سار عبدالله الباروني، وبهذه السيرة سار عشرات المشائخ الأعلام من قبل هؤلاء ومن بعدهم وفي عصورهم، لا يفتر عزائمهم إعراس الجاهلين ولا هزء المتكبرين، ولا يقعد بهم حب المال أو الأهل أو القرابة، ولا يألّفون الاستقرار والإقامة : فما الحياة في نظرهم إلا رحلة متصلة، لا يهتم المسافر فيها المكان الذي يبيت فيه، سواء بات "بيفرن" أو بمزغورة أو بمرساؤون أو بلالوت "ذلك أنه لا يريد أن يتأثر ما لا أو يبني قصوراً أو ليعيش حياة رغد ورفاهية.

إن نفسه لتتوق إلى ذلك وهو يستعد لها، وإنه ليرجو من الله أن يكون له ما يشتهي وفوق ما يشتهي، بعد أن يتم هذه الرسالة الطويلة ويستقر إلى الحياة الوادعة الآمنة التي لا نقله فيها ولا انتجاع..

وعاش أبو ساكن كما عاش أبو طاهر حياة كفاح متواصل لا

ينقطع، حتى صح لأبي العباس أن يقول فيهما: "وكان - أي أبو ساكن - مع أبي طاهر كفرسي رهان يتسابقان في ميدان".

ولست أدري هل يحق لي أن أزعم أن أبا طاهر جلى في ميدان التأليف وأن أبا ساكن جلى في ميدان التدريس، وليس معنى هذا أن مجهود أبي طاهر في التدريس كان ضئيلاً، أو أن عمل أبي ساكن في التأليف كان قليلاً، ليس هذا ما أقصد، فإن أبا طاهر كما أسلفت في الحديث عنه لم ينقطع عن التدريس، ولم يتوقف عن الإرشاد العام، ولكنه مع ذلك قدم لنا ثروة فكرية قيمة، تشغل حيزاً هاماً من المكتبة الإسلامية العامرة، وجهده في هذا الميدان أكثر أثراً من جهده في ميدان التعليم، أما أبو ساكن فقد ترك لنا عدداً من العلماء الأعلام الذين كافحوا الجهل والبدعة والانحراف والفساد، وألفوا مجموعة من الكتب القيمة، وقاموا برسالة التعليم المقدسة، التي تدعوا إليها جميع النبوات، وهو إلى هذا المجهود العظيم قد قدم إلى المكتبة الإسلامية أثراً قيمة رائعة ولو لم يكن فيها غير كتابه القيم "الإيضاح" لكان ذلك كافياً. يقول أبو العباس عن هذا الكتاب: "وهذا التأليف ما أظن ألف في المذهب مثله، جمعاً وتعليلاً واختصاراً غير مخل، وتطويلاً غير مل ولا مكرر، وهو اعتماد أهل المغرب في وقتنا، خصوصاً نفوسة" هذا ما يقوله أبو العباس عن هذا الكتاب القيم، أما أنا: فإن الإيضاح أحب الكتب إلى نفسي، وأثرها عندى بعد كتاب الله وصحاح الحديث الشريف، وفي جميع مشاكلي العلمية التي تدخل في نطاق أبحاثه أرجع إليه قبل أي كتاب، على كثرة ما ألف في المذهب من نفائس وأغلاق...

أخذ عنه العلم عدد غير قليل من العمالقة العظام، منهم ولده موسى، وحفيده سليمان، وأبو يعقوب يونس بن مصباح، والشيخ بن محمد بن الشيخ، وأبو زكرياء يحيى بن زكرياء، وأيوب الجيطالي، وأبو القاسم البرّادي، ونوح بن حازم المرساوي، وأبو عبدالله محمد التّفجّاني، وأبو الضياء الطرميسي، وغير أولئك من الأعلام الذين لا يستقصيهم العد في مثل هذا المقام...

أحس أبو عزيز صديق أبي ساكن في الدراسة بدنو الأجل، فبعث إلى صديقه يدعوه إليه وكان أبو ساكن قد قرر زيارة صديقه العزيز، فوافاه في آخر أيام الحياة الدنيا، وخادث الصديقان العزيزان، وتواصيا بما يتواصى به المؤمنون المتقون، ثم افترقا في دنيا الفناء إلى لقاء في الآخرة سعيد، وقد أفضى أبو عزيز بما في نفسه إلى صديقه، ولما لحق بربه انتقل طلبته إلى أبي ساكن، ولحقوا بمدرسته العامرة.

كان أبو ساكن مثلاً يحتذى به في الجد والعمل والخلق الحميد، إنه من أولئك الدعاة الهداة الذين يقيم بهم الله الحجة على العباد في مختلف الأزمان، والمؤرخون يروون أمثلة رائعة عن جده في التعليم، وحرصه على نشر الثقافة والوعي الإسلامي في الأمة، وقيامه بالعبادة الخالصة المتواصلة لربه، والتزامه للسبيل في الطريقة القويمة، وإحياء لسيرة الصالحين...

وقد أطل الله في عمره الخير، حتى أعياه الهرم، ولكنه مع ذلك لم يكن ليترك ما أخذ به نفسه من إلقاء الدروس وإرشاد الناس، وملازمة المسجد، وقد ذكر أنه صلى بالناس في مصلى

مسجده - وكان الوقت صيفاً - ولما أخذ في الدعاء نزل منه البول دون أن يشعر حتى ظهر من تحتة، ووقره الناس فلم يخبروه، فلما فطن إليه ورآه بكى رحمه الله وقال: أطمع من الله أن يطهر منه المصلي، فلم يلبث إلا قليلاً حتى تكون سحاب، ونزل مطر غزير طهر المصلي.

"إن لله عبادة لو أقسموا عليه لأبرهم"

لقد كان رحمه الله مؤمناً من أصدق المؤمنين، ومكافحاً في الله من أشد المكافحين، وكان متخلياً بخلق القرآن، حكيمًا، وقوراً، عفيفاً، لين العريكة، سهل الخلق، يحب الناس ويحبونه، وبالفهم وبالفونه، إلا أن تنتهك حرمه من حرم الله، فإنه لا يقر له قرار حتى يقوم فيها بأمر الله.

أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى

نشأ في مدينة "يفرن" : هذه المدينة العظيمة التي تتكون من مجموعة قرى لا تخلو إحداها من علم وفضل، ولعل من الخير أن أدع شاهد عيان يتحدث عنه، فقد جلس إليه العلامة أبو العباس الشماخي وسمع منه وناقشه فلندعه يتكلم، قال : "أخذ العلم من عمنا عبد الله الشماخي وغيره، وكان محققاً، وحيد العصر، فريد الدهر، إماماً في العلوم، وكنت سمعت بتونس حاضرة أفريقية من البيدُموري، وكان محققاً في العلوم كلها على ما يدعى - وكنت أقرأ عليه، وقد سألتني عن الشيخ أبي يوسف وعن حاله فقلت له : بخير، وكان يؤمن حياً فقال : ما في تونس أنحى منه، أي أعلم منه بالنحو : وكان بها أقرأ العلوم من

النحو والبيان والمنطق والأصول، وسمعت من فقهاء تونس أخباراً في علو درجته في العلم، وكان طلبته بها ومن أخذ منه يفتخر على غيره، وذكر أنه اختلف مع بعض الأشياخ بها في مسألة في النحو، فأحضر في إثباتها ما يقرب على عشرين شاهداً من أشعار العرب، ثم انتقل إلى "أمسين" قرية من نفوسة، وأقام بها إلى أن توفي في شوال عام أربعة وتسعين وثمانمائة، وقد جالسته مراراً وباحثته فما رأيت في جميع من لاقيت أكثر اسحضاراً منه : لو جالسته يومك ماظفرت بكلمة لحن فيها في إعراب ولا تصريح، ولا يسكت ولو هنيهة، فكل كلامه علم مع سرعة لسان، إن سألته عن مسألة لا ينفصل منها إلا أن تعارضه بسؤال آخر، أما النحو فعشبه الذي يعرف كيف يدخل فيه، ويخرج، وأما اللغة والتصريف فيا للعجب، وأما التفسير فلو ادعى أحد أنه ما شذ عليه شيء من التفسير ما كذب، وعلم الحديث أظن أنه يحفظ ما رواه الخالفون والموافقون بضبطه وشكله ومعناه، وعلم التاريخ وتسمية الرواة والعلماء فكأنه حضر معهم وصحبهم، وعلم الرقائق من الوعظ والتذكير فأية، وهو مفزع علمه، والفقه حضرت عنده مراراً يحكم بين الناس فتعجبت من تفصيله، فقلت: لا ينبغي أن يحكم بين الناس إلا مثل هذا، واتيته يوماً زائراً وهو شيخ كبير، فألقيته يدرس تحت شجرة التين فتسمعت فإذا هو يقرأ مقدمة الخوجي في المنطق، وأما القرآن فأظنه يقرأ كتاب الله بالسبع، والبيان والأصول فهما نصب عينيه.

وحضرت مجلسه يوماً وكنت قبل مستشكلاً مسألة فلم

أجد من أزال إشكالها فوقعت في المجلس عارضة من غير أن أسال عنها. فباحثته فرأيت منه ما أبهرني وأودعت بعض البحث في إعرابي لشكل كتاب الدعائم. في أول قصيد الجنائز وغيرها. وذكر لي بعض طلبته أنه بقى في آخر عمره خمسة أعوام ما وضع جنبه على الأرض نائماً. طوى الفراش. وكان صائم الدهر. وكانت صداقاته سرّاً. وكان كثير الصلاة. وعادته يعظ الجالس إليه. أو يقرأ القرآن. أو يدرس ما حفظ من العلوم. أو ينظر في الكتب. وإذا أخذه النعاس تناوم قليلاً كذلك.

قال لي : حفظت ابن حريق في اللغة في خمسين يوماً. وكان يدرسه ويدرس المقامات. وكان كثير الحفظ. قلت له يوماً : كدت أن تكون ترجمان القرآن. مارأيت احفظ منك !... قال عمنا عبدالله بن عبدالواحد لا أصله في الحفظ. وزرته مريضاً ومعي الحاج محمد بن عبدالله العماني السمائي وعمنا يونس بن محمد. فتكلما معه في علم الطب فأفحمهما. وقال عمنا : يونس إذا شاب ابن آدم تشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل. فضم شين تشب أظن فأنكر عليه. وأخذ في تصريفها بلغاتها ومصادرها. فكأنه ينظر في إصلاح المنطق لابن السكيت. أو فصيح ثعلب. وبالجمله من لم يره لم ير ما يتحدث به في أخبار العلماء. ومات ولم يترك تأليفاً مع أنه ذو قدوة على التأليف في أي علم أراد. خصوصاً التفسير والحديث .

إنني اكتفى بمראה العلامة الشماخي ورواه عن هذا العملاق من عمالقة العلم والدين.

أبو العباس الشماخي

يشرفني أن أقف هنا لأدع الحديث للأمام القدوة أبي إسحاق اطفيش - أطال الله عمره وأبقاه ذخراً للإسلام - قال أبو إسحاق : " وأما البدر الشماخي فهو الإمام المجتهد أبو العباس بدر الدين أحمد بن أبي عثمان بن سعيد بن عبدالواحد بن سعيد بن أبي الفضل قاسم بن سليمان بن محمد بن عمر بن يحيى بن إبراهيم بن موسى بن عامر جد الإمام أبي ساكن عامر بن موسى بن علي بن عامر الشماخي. فهو يجتمع بهذا الإمام في جده فيما يتبادر توفي : رحمه الله على ما ذكره العلامة أبو زكرياء الباروني سنة 928 هـ

وأبو العباس من أعلام العلم الذين نبه لهم شأن عظيم لجدهم واجتهادهم وبلغوا منزلة قصوى في العلم. كانوا بها مناراً يهتدى به. وعلماً يُعتصم به. ويلجأ إليه. إذا ألف وصنف كان آية. وإذا ردت إليه مشكلة كان في حلها غاية. وإذا حضر مجلساً من مجالس العلم كان فيه النهاية. له من التصانيف في عدة علوم كلها تعد من الأمهات. خصوصاً مقدمته في أصول الفقه وشرحها. اختصر المقدمة من كتاب العدل والإنصاف لشمس الدين أبي يعقوب الوارجلاني. فكانت أجمل وأنقى متن في أصول الفقه. وأمتن عنه. وأجدى مادته لمن يريد حفظ قواعد الأصول. وأنى لأراها أحسن متونها شمولاً وإيجازاً. وشرحها وإن كان مختصراً جداً إلا أنه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق. ومن مراجع تراجم الرجال وتاريخ أهل الحق والاستقامة : كتاب السير له. يظن الذين لاحظ لهم من

التاريخ، ولا قدرة لهم على جوب مراحل ودخول ميادينه : إنه كتاب غير مفيد، ولكنهم لا يعلمون أنه ثروة ومادة أخذت من كل ناحية بسبب، واختصت بذكر أساطين العلم والدين. وأتت منهم بعجب، وأني لأطالع هذا الكنز المكنون، والفلك المشحون، ولا أزال أكتشف فيه الاعلاق وجلال تاريخ الأئمة، ومفاتيح ما غلق من تاريخ الإباضية وسط الأمة الإسلامية بشمال إفريقيا ... تاريخ العلم والعمران، وازدهار الدين والإيمان، وهذه الحاشية على مقدمة التوحيد تبدي لك غزارة علمه، ووفرة مادته، وتبحره في فنون الشريعة وعلوم العربية مع صغر حجمها، وقد وضعت لك أيها القارئ الكريم تحت بعض الجمل السامية المعنى سطرًا يلفتك إليها، كأنموذج لتحقيقات هذا المصنف الجليل، ونظرياته المعربة عن سلامة ذوقه، وسمو نظره، وبينهما ما يحدثنا عن المصنف الجليل، ونظرياته المعربة عن سلامة ذوقه، وسمو نظره، وبينها ما يحدثنا عن المصنف من حيث نظره إلى الحياة الاجتماعية، نظرًا يباين كثيرًا من الفقهاء الذين اضعفوا الأوساط، وأوهنوا العزائم : وما وقفت عليه من مصنفات هذا الإمام الجليل إعراب الدعائم سماه " إعراب مشكل الدعائم " وهو من خزنة الشيخ محمد بن عيسى أزيارة، ولعل صوابه أزيارة، وأظن أنني رأيت له شرحا على متن الديانات نفيساً جداً، واجتهدت في الحصول عليه وقت كتابة هذا فلم أفر به.

ويحدثنا المصنف عن بعض مؤلفاته بالإحالة إليها في مهمات المسائل، أو إلى بسط القول فيها، فهو يقول إن له شرحاً على مرج البحرين لشمس الدين أبي يعقوب، في المنطق.

والحساب، والهندسة، حيث تكلم في خطبة شرح مقدمة الأصول على اسم الجلالة واشتقاقه فقال : قد بسطنا ذلك في شرح مرج البحرين فلينظره الراغب.

وقد تمنى ضياء الدين الثميني رحمه الله أن يقف عليه فقال في شرح مرج البحرين : غير أنني سمعت أن البدر الشماخي علق عليه شرحاً عجيباً، ولكنه ضاع، فياليتني كنت له مصيباً، ثم إنه وعد في آخر شرحه على مقدمته أنه إن أنسا الله له العمر فإنه يحمل له شرحاً يستوعب جميع مباحثه، وذلك سنة ثمانمائة وأربعة وتسعين، وقد أنسا الله له في العمر إلى تسعمائة وثمانية وعشرين، ولعله وضع لها شرحاً مبسوطاً كما وعد ولم نقف عليه، ومن لطائف التاريخ أن البدر الشماخي أرخ شرحه هذا على المقدمة بحادثة تاريخية هامة حيث يقول : فرغ منه بتاريخ أوائل شعبان سنة أربعة وتسعمائة، وهو العام الثاني من إخراج المسلمين النصاري من " جربة "، ويعني به إخراج الأسبانيين من الجزيرة بعد أن استولوا عليها، كما احتلوا شطوط المملكة التونسية، وقد وقفت على تفاصيل هذه الواقعة منذ سنين، ولم يتيسر لي قيدها ...

وبعد فإني أرى البدر الشماخي من المؤلفين المكثرين، ويظهر أن له مصنفات في الفروع الفقهية، بيد أنها لم تصل إلينا بل لعبت بها أيدي التلاشي، وعبثت بها عوداي الغواشي، فكانت أثراً بعيد عين.

توفي رحمه الله ببلدة " يفرن " من جبل نفوسة سنة 928 هـ.

وعده العلامة أبو عبد الله محمد بن زكرياء الباروني في الطبقة الثامنة عشر حسب ترتيبه : كل خمسين سنة طبقة.

وأما شيوخه فقد ذكر في تاريخه بعضاً منهم : ذكر أنه أخذ العلم بتونس المؤنسة عن الشيخ البیدموري. وعن العلامة الشيخ أبي عفيف صالح بن نوح بن زكرياء التندميرتي النفوسي. قال البدر : عنه أخذت بعض العلوم. وكان عهد البدر مزدهراً بالعلم ازدهاراً من كل نواحي الثقافة الإسلامية والدين. ظهر فيه أعلام فخام. مثل أبي القاسم البرادي وأبي يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى آية من آيات الله في جميع العلوم الشرعية والعربية والفلسفية والتاريخ. وكان أعلم رجل بتونس في النحو بشهادة علمائها. وكثير من تلاميذ الإمام أبي ساكن عامر الشماخي. فإنه نبغ منهم جمع كل منهم بلغ الذروة العليا : علماً وعملاً يشار إليه بالبنان. فرحمهم الله .

انتهى إلى هنا ما قاله الإمام القدوة العلامة أبو إسحاق اطفيش. وإذا قال أبو إسحاق فليس لقائل بعده أن يقول. ولكنني مع ذلك استسمحه أن أزيد كلمة. وكل ما أريد أن أشير إليه بعد هذا الحديث الممتع الصادق. الحق الجامع. أن أشير إلى أن العلامة البدر الشماخي يعد في نظري أحد الأعلام الذين قامت عليهم حركة التأليف منذ الاتجاه الجديد الذي اتجهه طلاب أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي.

وإذا كانت تلك الحركة المباركة أتت ثماراً طيبة. وتركت لنا تراثاً مجيداً فتخبر به المكتبة الإسلامية فإن طريقة أبي العباس في

كتابه القديم "السير" طريقة فريدة ليس لها مثيل فيما عرفناه من كتب التاريخ. فإن المؤلفين في التاريخ غالباً ما تتخطفهم حوادث السياسة. ويتبعون المظاهر الخادعة من حوادث الانقلابات والمعارك العسكرية وسير الملوك والحكام. ويعتقدون أنهم بذلك قد أرخو للشعوب والأمم. والواقع هو أنهم أرخوا لعدد قليل من الناس. وثبو إلى كراسي الحكم. وتصرفوا في عباد الله وأموال الأمة دون حق. ولن يعطي ذلك صورة صحيحة عن تاريخ أمة من الأمم أبداً. فإن أخبار الجيوش والمعارك وتحركات الأجناد والقواد أعمال الحكام الظالمين. ثم السيطرة على الناس والتحكم فيهم. وتخطيط المدن المعقل. وما يتبع ذلك من مظاهر القوة والسلطان التي تستعمل في غير أمر الله. ليست هي الصورة الصحيحة لتاريخ وحياء أمة ...

وقد أدرك العلامة أبو العباس الشماخي هذه الحقيقة فلم ينجر مع تيار السياسة إلا بمقدار. وإنما قدم لنا الصورة الحقيقية لجانب من الأمة المسلمة. هذه الأمة التي تسكن ما بين "سرت" والمغرب الأقصى. وهو يقدم لنا المادة الحقيقية لتاريخ هذه الأمة في صورة العالم الذي يلقي دروس الوعظ والإرشاد. وفي صورة الرجل الذي يحمل الفأس ويذهب إلى الحديقة ليقلب الأرض. وفي الشيخ العالم القدوة الذي يسوق بقرفته بعد أن ينزل المطر ليقوم بعملية الحرث. وفي الطفل اليتيم الذكي الذي يستوهب جحشاً صغيراً ثم يتحایل على صاحبه فيبيعه له. وفي المجالس العلمية التي تنعقد في هذا المجتمع أو ذاك. وفي المبالغ التي تجمع لينفق منها على الأقسام الداخلية في المدارس المنتشرة. وفي

صورة النصيحة التي تقدمها المرأة المخلصة لزوجها أو لصديقتها. وفي سلوكها عندما يتخذ عليها الزوج ضرة أو يقسو عليها في الحياة. وفي حديث البنت السانجة - عندما تزف - إلى أبيها عن زينتها. وفي نقاش البنت لتعلمة لأبيها وإدلالها عليه، وفي كفاح المرأة من أجل العلم. وفي صورة الأحاديث والمشاورات والآراء والفتاوي والأعمال. وكل المظاهر التي يعيشها الشعب عيشة حقيقية لمجتمع وأسرة وفرد..

لقد قرأت كثيراً من كتب التاريخ. وقرأت كثيراً من كتب الاجتماع. فلم أجد ما يستهويني. كما أجد ذلك في كتابه " السير " هذا الكتاب الذي يجعلني أعيش حياة واقعية تمتد عشرة قرون.

أرأيت القصصي الموفق الذي يستطيع أن يبعث الحياة في شخوص أبطاله ويجعلك معجبا بهم مهتما بأعمالهم ؟ أنه أبو العباس الشماخي. وقصته هذه هي قصة حياة أمة خلال عشرة قرون. وأبطالها أبطال الحقيقة لا الخيال. حقيقة الحياة بما فيها من متعة، بما فيها من فقر وغنى. بما فيها من حركة وصراع ونضال. بما فيها من عمل فردي وجماعي. والأمة الإسلامية في حاجة كبرى إلى كتاب من هذا الطراز يصورون الواقع كما هو. وكما تشهد به الحياة. وكما يجري به التاريخ الواقعي في فلك الزمان الطويل بعيداً عن توجيه السياسة المغرضة. والأطماع الزائفة، والمؤثرات الخارجية، مقصودة أو غير مقصودة.

عبدالله بن يحيى الباروني

بشرفنى هذه المرة أن أقف لأدع الحديث لأبي النهضة الحديثة في الجزائر. المؤرخ الأديب الشاعر العالم المصلح أستاذي وشيخي أبي اليقظان الحاج إبراهيم بن الحاج عيسى. أطال الله عمره. ورزقه الصحة والعافية. ومتع المسلمين بحياته الحافلة بعمل الخير. وقول المعروف. والإرشاد إلى سيرة الهداة والمصلحين الصالحين. قال العلامة أبو اليقظان :

" هو العلامة الجليل. الشيخ عبدالله بن يحيى بن احمد الباروني. وقد وصفه قطب الأئمة الشيخ اطفيش في بعض رسائله بقوله : والشيخ عبدالله بن يحيى هو عالم ووارع نفوسة. قال : وأظنه تربى ".

أخذ العلوم الدينية عن العلامة الكبير الإمام الشيخ أبي عثمان سعيد بن عيسى الباروني. نزيل جربة. الذي وافته منيته بها في عام 1282 هـ.

ثم انتقل إلى مصر للإغتراف من مناهل الأزهر الشريف. ولا سيما العلوم العقلية منها.

فكان مثالا للجد والكد والتحصيل. والعفة والنزاهة والخلق الكريم. فاكتمسب بهذه الصفات مركزا ممتازا بين علماء وأدباء مصر في ذلك العصر عامة. وبين رفقاءه من التونسيين خاصة. من بينهم ذلك السري الماجد العلامة الشيخ سعيد بن قاسم الشماخي الشهير. الذي كان وكيلا للدولة التونسية في مصر سابقا إلى أن توفي فيها.

كان من أصدقائه الكبار : العلامة الجليل. الشيخ أبو زكرياء

يحيى بن أيوب الباروني، الذي هو من بلدة كاباو.

* مآثره :

بعد أن أخذ حظه من العلوم العربية بمصر، رجع إلى وطنه جبل نفوسة، فاستقر بفَسَّاطُو، وهو على جانب كبير من العلم والورع والاستقامة، وكان له نثر رائق وشعر فائق، وأسلوب جذاب، امتلك بها مجامع القلوب من العلماء والأدباء ورؤساء الدولة العثمانية وولاتها إذ ذاك بطرابلس الغرب، فكانه له بهذه الصفات الحميدة حظ موفور من الوجاهة والقدر والاحترام، ظهرت فيما بعد نتائجه الكبيرة من جلب نفع، ودفع ضرر للإسلام ولأبناء وطنه طرابلس، ولا سيما إزاء محنة ابنه العزيز سليمان على ما يأتي بيانه، وقد تصدى لنشر العلم والوعظ والإرشاد، ومكافحة الجهل والأمية بين أبناء أمته.

* تلامذته :

من أجل ذلك الجد والنصح والدأب المتواصل تخرج عنه تلاميذ نبهاء، من بينهم شبله العظيم الشيخ سليمان باشا الباروني، ومنهم العالم الجليل شيخ الصحافة التونسية مدير جريدة مرشد الأمة، الشيخ سليمان الجادوي.

ومنهم الأديب اللامع الشيخ عمرو بن عيسى التندميرتي صاحب الديوان الشهير: "القلائد الدرية" الذي سكب فيه دموعاً سخينة على الإسلام وأهله، ومنهم النقيب الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أخيه الشيخ عيسى وهو - فيما بعد - أبو زكرياء، مفتى لالوت وتوفي في عام 1324 هـ ومنهم ولداه

الذكيان الشيخان أحمد ويحيى وغيرهم ...

* مؤلفاته :

كما أخذ حظه من تأليف الرجال، فإنه أخذ حظه كذلك من تأليف الكتب، وقد رأينا من تأليفه رسالة قيمة في التاريخ: "سلم العامة والمبتدئين" وهي كما سمها - حقا - سلم العامة والمبتدئين للعروج بهم إلى شواهد الرجال الكبار. ومنها ديوانه الشهير "ديوان الشيخ عبدالله الباروني"، وهو لعمر بمرآة انعكست فيها أشعة علمه وأدبه وثقافته وخلقه الكريم في سائر أطوار حياته.

وعظ فيه وأرشد، ونصح وذكر، وأنعش به روح الدين والفضيلة، سكب فيه دموعه السخينة، وأجج فيه عواطفه الملتهبة نحو إخوانه في الدين، امتدح فيه الرسول الكريم، ونوه بالعلماء والصلحاء، وأشاد بأولى العدالة والعفة والنزاهة من القضاة والأمراء والرؤساء، ورثى بدموعه الحارة الراحلين من أهل العلم والصلاح والإصلاح. "إنتهى

إن شيخ الصحافة الجزائرية، وأبا النهضة الحديثة فيها العلامة، أبا اليقظان، لم يقف عند هذا الحد من ترجمة الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني وإنما غلب عليه طبع الأديب الفنان، فأخرج الصورة كاملة الإطار لحياة هذا المصلح الكبير، ولم يهمل الجانب الأدبي منها، ولذلك فقد استمر يتحدث عن الناحية الأدبية من هذه الشخصية العظيمة، ولولا أنني عازم على الرجوع إلى هذا الموضوع من قريب إن شاء الله أن فأقدم

دراسة أدبية متواضعة عن عدد من الأدباء أمثال الشيخ عبدالله، والشيخ عمرو بن عيسى، وأبي نصر وغيرهم. لولا أنني عازم على ذلك لنقلت لك أيها القارئ الكريم بقية هذا الفصل الرائع الذي كتبه أبو النهضة الجزائرية وشيخ صحافتها، وإمام شعرائها وأدبائها في كتابه القيم "سليمان الباروني باشا في أطوار حياته".

وكما لا يجد القائل مجالا للحديث بعد أبي أسحاق، فإنه لن يجد ما يقول بعد أبي اليقظان وهل يترك أبو اليقظان مقالا لقائل ؟ ...

ولكنني رغم كل ذلك، ومع يقيني بأن حديثي سيكون تافها ملاما بعد هذا الفصل الرائع من قلم شيخ الصحافة العربية في الجزائر الإسلامية التي ناضلت الاستعمار الغاشم، وناضلت الفساد الاجتماعي المستحكم، وناضلت الجمود الديني المتعصب؛ ناضلت كل تلك القوى متظافرة، وانتصرت عليها. لأن الحق لا يهزم - وإن طال أمد الكفاح - مهما كانت قوى الباطل والطغيان.. إن الباطل قد ينتصر في معركة أو معارك، ولكنه لا ينتصر أبداً في نضاله الدائم مع الحق والعدل والحرية. مع المبادئ والمثل التي نزلت بها الشرائع وقدسها الأديان، واستجاب لها العقل والطبع.

إنني أريد أشير إلى أن العلامة عبدالله الباروني كان مثلاً للمؤمن الصادق الذي يكافح من أجل العقيدة، وهو بهذه الروح القوية، والعزيمة الصادقة، والإرادة التي لا تنثنى ولا تضعف ولا

تخور. يتعقب الباطل أينما كان، سواء كان الباطل في صورة جهل مطبق على سكان ناحية من الوطن، أو كان في صورة استعلان للعاصي، ومجاهرة بها، دون خوف من الله، أو حياء من المؤمنين، أو كان في صورة طغيان حكام، وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة، فاطغاهم البطر. فاستذلوا الناس، عبثوا بالأمانة..

إنه يتعقب الباطل سواء كان في هذه الصور أو في غيرها من الصور.

يتعقبها بالموعظة الحسنة، والسيرة الصالحة، والتعليم الصحيح، والأمربمعروف يدعو إليه الإسلام، والنهي عن منكر ولو ألفه الناس.

فإذا أنس في مكان أن الصلاح يغلب على أهله، وأن الاستقامة هي الطريق التي يسير عليها الناس، ورأى استجابة وإذعانا للحق، وسلوكا للمحجة، انتقل إلى غير ذلك المكان لبدأ الكفاح من جديد.

وقد بدأ كفاحه في "كاباو" ثم انتقل إلى "جادو" وذهب إلى "يفرن" فجدد رؤية البخابخة العظيمة، ولم ينتقل من "يفرن" حتى بدأ الطليان يزحفون على الوطن الحبيب، ويحتلون أراضيه رقعة بعد رقعة، وكان يدعو الله ويلجأ في الدعاء أن لا يرى وجوه العدو، وأن لا يكون في بلد يحتله أعداء الله، فلما اقتربوا من "يفرن" رجع إلى "جادو" فلما بدأوا يفكرون في احتلال جادو رجع إلى كاباو وهناك توفي إلى رحمته الله قبل أن تدنس أقدام أولئك العلوج هذا البلد الكريم، واستجاب الله دعاء الشيخ، فتوفاه إليه

قبل أن تقضى عيناه الكريمتان بمراى أعداء الله - أعداء الوطن.
وأعداء الأمة ...

إن الطريقة التي سلكها عبدالله الباروني هي نفس الطريقة التي سلكها من قبله كثير من المشائخ الذين لم يكن العلم عندهم مجرد نظريات وأقوالاً. وإنما كان العلم عندهم تطبيقاً وتنفيذاً لمقتضاه وسيرة به، وقد رأيت من قبل سيرة أبي موسى، وسيرة أبي طاهر، وسيرة أبي ساكن، وسير كثير من الأعلام، الذين حافظوا على الإسلام نقياً نظيفاً، كما جاء عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

نظم التربية والتعليم

ينقسم الناس في المجتمع الإباضي إلى قسمين كبيرين هما :
عوام، ومتعلمون " أو طلبة " والمتعلمون ينقسمون إلى أربعة أقسام :

1 - العزابة.

2 - العرفاء.

3 - التلاميذ.

4 - المستمعون.

* فالعوام هم الناس الذين يشتغلون بأعمال الحياة، لا يرتبطون بميدان التعليم أو القيام بمهام دينية، ولو كانوا من فطاحل العلماء. * والعزابة هم هيئة محدودة العدد، تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاً، ويشترط فيهم شروطاً معينة، ويجب أن يكونوا من حملة كتاب الله، وأن يكونوا مروا بالمنهج الدراسي، فقطعوا مراحل مرحلة مرحلة، إلا إذا تعذر ذلك - وهذه الهيئة تقوم بالإشراف على الشؤون الاجتماعية للأمة، وعلى الأمور الدينية، من رعاية المساجد، والقيام بوظائف الصلاة، كالإمامة والأذان والتصرف في الأوقاف، والإشراف على التعليم، وما إلى ذلك، وهي في زمن الظهور أو زمن الدفاع تكون مجلس الشورى

للإمام، وفي حالتي الكتمان أو الشراء تمثل سلطة الإمام، ويختار مجلس العزابة شيخاً لهم من بينهم، يكون غالباً أعلمهم، وإن لم يكن أسنهم، وهو الذي يمثل هذه الهيئة في جميع أعمالها، وينفذ قراراتها، ويتكلم باسمها ...

وبما أن هذه الفصل عقد للجانب العلمى سوف أتحديث عن هذا الجانب الهام.

* تتكون هيئة التعليم من يأتي :

1 - الشيخ : وهو شيخ العزابة أو من ينوب عنه.

2 - عريف أوقات الختمات.

3 - عريف الطعام.

4 - عريف تعليم القرآن الكريم.

5 - عريف تنظيم أوقات الدراسة.

* ويتكون التلاميذ من يأتي :

1 - طلبة قرآن.

2 - طلبة فنون العلم والأدب.

3 - مستمعون.

مهام الشيخ : بالإضافة إلى مهام الشيخ باعتباره رئيساً للعزابة، وأقوى شخصية تنفيذه في شئون البلد - العامة والخاصة - فإنه المسؤول الأول عن قضية التعليم.

* وتتلخص أعماله التعليمية فيما يلي :

1 - عليه اعتماد سير الدراسة، ويجب أن تخصص له أوقات يدرس فيها للطبقات العليا من التلاميذ، ويساعده في مهمته هذه بعض العلماء الآخرين لاسيما حينما يكون عدد الطلاب كثيراً، ومستوياتهم العلمية مختلفة.

2 - يتولى تولية العرفاء وفصلهم من وظائفهم.

3 - يفصل في جميع المشاكل التي تقع في المدرسة، سواء كانت بين التلاميذ أو بين العرفاء، أو بينهم وبين التلاميذ، وفصله نهائي لا يطعن فيه ...

4 - يعقد ندوات ثقافية بعد كل ختمة ويدير فيها المناقشات، وله أن يحيل الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه إلى بعض الطلاب، كما له أن يكلف غيره بإدارة هذه الندوات.

5 - يتحتم عليه أن يقوم قبل الفجر بوقت كاف، ثم يستفتح لتلاوة القرآن الكريم وعلى جميع الطلاب أن يحضروا هذا الاستفتاح الذي ينتهي بصلاة الفجر.

6 - عليه أن يقوم بدرس أو درسين في الأسبوع، يخصصهما للأخلاق والدراسات الإجتماعية، واستعراض سير الدراسة في الأسبوع : وعلى جميع التلاميذ بمختلف مستوياتهم أن يحضروا هذا الدرس، ويحق له أن يستوحي موضوع الدرس من سلوك الطلاب أو العرفاء خلال الأسبوع إذا صدر من أحدهم ما يستلفت النظر، سواء كان ذلك ما يذم أو ما يمدح.

7 - له وحده حق قبول الطلبة الجدد في الأقسام الدراسية أو رفضهم، فإذا ورد على المدرسة طالب جديد نظر العرفاء في أمره.

فإذا كان عابر سبيل عومل معاملة الضيف، فسمح له بالمأوى والأكل حتى يسافر، وإذا كان يريد الالتحاق بالمدرسة ونظامها الداخلي عرض أمره على الشيخ، فإذا ثبت لديه أنه حسن السيرة والسلوك، متمسك بدينه أمر بقبوله وإذا ثبت أنه غير محمود السيرة أمر برفضه، فإن جاء من بعيد ولم يعرف حاله فإنه يترك في الوقوف، ويسمح له بالسكنى والأكل مؤقتاً حتى يعرف حاله فيقبل أو يرفض.

* العريف المكلف بالختامات :

نستطيع أن نطلق عليه ضابط المدرسة، وهو أقوى شخصية بعد الشيخ، وأهم عنصر في التربية، ويتلخص عمله في المهام الآتية :

إعلان انتهاء الدورة الصباحية : وذلك بأن يدعو جميع الطلاب إلى حضور دعاء الختام، فيدعو أسن القوم، وإذا انتهى الدعاء قام الطلاب.

وحضور هذا الدعاء الختامي حتمي.

الدعوة إلى حضور ختمة المغرب : بعد صلاة المغرب ينادي الطلاب إلى الختمة، فيجتمعون إلى أكبرهم سنناً، فإذا استداروا في الحلقة استفتحوا للقراءة، فيتلو قارئان ما تيسر من كتاب الله إلى وقت صلاة العشاء الأخيرة، فيدور بينهم دعاء الختام.

وحضور هذه الختامة واجب حتمي.

اختتام المذاكرة الليلية : بعد صلاة العشاء يترك الطلاب

في مذاكرة حرية مدة ليست طويلة، ثم يدعوهم إلى الختمة، فيقرأ أحدهم آيات من كتاب الله، ويدعو دعاء خفيفاً، ثم يلقي أحد المقتردين كلمة مناسبة في التوجيه والإرشاد، كتوجيه بعد كفاح يوم كامل، ويستحسن أن تستوحى تلك الكلمة من الآيات التي سبق أن قرئت : وبعد هذه الكلمة يختم بالدعاء ويقوم الطلبة إلى النوم، وحضور هذه الختمة ليس واجباً حتمياً، وإنما هو واجب كفائي يكفي فيه حضور بعض الطلاب.

إعلان ابتداء النوم في الظهيرة : بعد أن يتناول الطلاب غذاءهم في القسم الداخلي يجب أن يناموا، وعلى هذا العريف أن يعلن إليهم ذلك، ولا يحق لأي واحد منهم أن يتخلف عن نوم القيلولة، لأن ذلك قد يكون ذريعة لعدم القيام في الليل.

إعلان ابتداء النوم الليلي : بعد كلمة الختام يعلن العريف إلى الطلبة وجوب ذهابهم إلى مضاجعهم، ولا يحق لأي واحد منهم أن يتلصق أو يحدث ضوضاء تؤثر على راحة الآخرين، وقد يسمح لبعض كبار المتعلمين في المراحل النهائية أن يأخذوا كتبهم ويبتعدوا عن عنابر النوم ليزدادوا مذاكرة، على شريطة أن لا يؤثر ذلك مطلقاً في راحة بقية الطلاب.

* عريف الطعام : وهو المشرف على الأكل حسب تعبيرنا في الوقت الحاضر، وتتخلص مهماته فيما يأتي :

1 - ترتيب جلوس الطلاب عند الأكل وتنظيمهم، سواء كان ذلك في مطعم المدرسة العادي أو كان خارجه، كما إذا كانوا في رحلة مدرسية أو استضافهم أحد الناس.

2 - على الطلاب أن يحضروا إلى الأكل باللباس الكامل وهو الزي الخاص بهم، وعريف الطعام هو المسؤول عن مراقبة ذلك.

3 - تسجيل الغياب عن الطعام ومعرفة أسبابه.

4 - ملاحظة سلوك الطلاب ومدى تطبيقهم لأداب الأكل المعروفة حينئذ.

5 - إعلان الانتهاء من الأكل، فلا يحق لأي طالب أن يقوم من مكانه، أو يغسل يديه إلا بعد أن يعلن ذلك عريف الطعام وذلك أن العريف ينظر حتى إذا تحقق أن جميع الطلاب اكتفوا ورفعوا أيديهم نادى بدعاء الختام، فيدعو أكبر القوم، وبعده ينصرف الطلاب.

6 - يشرف على توزيع الطعام والفاكهة أو الطرف.

7 - يقسم بمساعدة من يشاء الهدايا أو الطرف، من الفاكهة التي يؤتي بها إلى المدرسة بالسوية بين المدرسين والعرفاء وجميع الطلاب، سواء كانوا في الأقسام الداخلية أو كانوا طلاب منازل.

8 - يشرف على تنظيم الوجبتين الإضافيتين : وذلك أن لهذه المدارس تقليداً رائعاً ؛ وذلك أنها تقدم وجبتين خفيفتين : إحداهما عند الاستراحة الصباحية، والأخرى عند الاستراحة المسائية بعد صلاة العصر، ويكفي في هذه الوجبة الخفيفة أن تكون فاكهة، أو تيناً أو بلحاً أو ما شابه ذلك، والطريف فيها أن الطلاب عند بدء الاستراحة سواء في الصباح أو في المساء ينقسمون إلى مجموعات، على كل مجموعة عريف أو نقيب، يكون أنبه المجموعة وأذكاها، ويستحسن أن يكون أسنهما، فإذا قدمت فرقة

التوزيع تعين على كل فرد أن يلقي ثلاث مسائل في أي من الفنون شاء، ابتداء من العريف أو النقيب، فمن قام بهذا الواجب الخفيف أعطى له نصيبه، ومن لم يستطع حيل دونه ودون هذه الوجبة فإذا استطاع أن يهيئ موضوعه قبل أن تنصرف فرقة التوزيع وذكر مسأله أعطى له نصيبه، وإلا حرم منه في ذلك اليوم، ولا يجوز لأي واحد منهم أن يعيد ما يقوله زملاؤه.

وعريف الطعام هو المسؤول عن تنظيم هاتين الوجبتين، حتى ينتهي منها الطلاب في أسرع وقت، وذلك بأن يجعل المجموعات صغيرة، ويعين نقيبها من أول السنة الدراسية، ثم يجعل نظاماً متبادلاً لفرق التوزيع، بحيث يقوم عدد من الفرق كل يوم بهذه المهمة على التبادل، أعني أن المجموعات هي نفسها تقوم بالتوزيع حسب جدول يومي يضعه عريف الطعام.

* **عريف أوقات الدراسة** : قريب بما نسميه اليوم بعريف الفصل، وتتلخص مهامه فيما يأتي :

1 - تسجيل التأخر عن وقت بدء الدروس أو بدء الحفظ.

2 - حفظ النظام في الفصول الدراسية.

3 - تشغيل الطلاب بواجباتهم عند غياب المدرس وفي أوقات

المذاكرة..

* **الأوقات التي لا يجوز للطلاب أن يتخلف فيها بغير عذر شرعي:**

1 - الاستفتاح للتلاوة قبل الفجر.

2 - دروس الدورة المسائية، وتبتدىء بعد صلاة الظهر.

3 - تلاوة ما بين المغرب والعشاء.

4 - الأوقات المعينة للدروس الصباحية.

5 - دروس الوعظ والإرشاد العامة في المسجد.

6 - دروس الأخلاق والاجتماعيات.

7 - الندوة الختامية بعد انتهاء الدورة الصباحية : يتحتم أن يجتمع الطلاب على الشيخ أو أكبر مساعديه، وقد أعدوا عدداً من الأسئلة لتلقى على الشيخ. وقد تناول تلك الأسئلة مسائل علمية أو مسائل اجتماعية، أو تتعلق بالأحداث التي تقع في البلد.

وللشيخ أن يجيب عليها أو أن يحيلها إلى من يشاء من العلماء أو الطلبة، ولكل من في المجلس حق الملاحظة والاشتراك في الحديث وزيادة الإيضاح والشرح إذا رأى أن الجواب غير كاف.

* عريف حفظ القرآن الكريم :

قد يكون واحداً، وقد يتعدد حسب اللزوم. وهؤلاء العرفاء في الواقع هم القائمون بتعليم القرآن، ويشترط في هذا العريف أن يكون حافظاً لكتاب الله حفظاً جيداً عارفاً برسم المصحف، وتتلخص مهامه فيما يلي:

1 - تكون عليه حلقة من الطلاب الذين يحفظون القرآن الكريم لا تزيد عن عشرة، ولا تقل عن اثنين، وقد تكون أكثر من ذلك إذا كان عدد العرفاء قليلاً.

2 - عليه أن يتولى الإملاء عليهم حين الكتابة، وأن يستعرضهم عند الاستظهار، وأن يصحح ألواحهم بعد الكتابة.

3 - يجعل على الفرقة نقيباً يكون واسطة اتصال بينه وبين الفرقة، فلا يبدأ الاستعراض إلا إذا أخبره النقيب أن كل الطلاب قد حفظوا ألواحهم، ولا يبدأ التصحيح إلا إذا أخبره النقيب أن جميع الألواح قد جفت.

4 - لا يحق لطالب أن ينتقل من عريف إلى عريف آخر إلا بموافقته.

5 - على العريف أن يختبر طلابه فيما حفظوا من أسبوع لأسبوع.

6 - طلبة القرآن الكريم يخضعون لأشراف عرفائهم في أوقات الدراسة، ويخضعون لعريف الطعام في الأكل، ويخضعون لعريف الختمات في النوم.

7 - طلبة القرآن يتحتم عليهم حضور دروس الأخلاق الأسبوعية فقط.

8 - عريف حفظ القرآن هو المسئول عن الناحية الخلقية لتلاميذه، وعليه أن يرفع إلى الشيخ الحالات المستعصية التي لا يتمكن من علاجها.

* نظم الدراسة : تنقسم الدراسة إلى مرحلتين :

الأولى : يحفظ فيها الطلاب القرآن الكريم، ويتعلمون القراءة

والكتابة ومبادئ الحساب.

الثاني: يدرس فيها الطلاب أنواع المعارف المعروفة في ذلك الحين. ولا يقبل الطالب في المرحلة الثانية إلا إذا حفظ كتاب الله. فحفظ القرآن الكريم بمثابة شهادات اليوم.

* أقسام الطلاب : ينقسم الطلاب إلى ثلاثة أقسام :

1 - طلبة القرآن

2 - طلاب علوم

3 - مستمعون.

1 - طالب القرآن وإن كان يتمتع بكثير من الحقوق لكنه لا يعتبر تلميذاً رسمياً إلا بعد أن يستظهر القرآن الكريم، ولذلك فهو لا يطالب بالزي الرسمي الموحد للطلاب، ولا يحق له الاستفادة من خصائص الطلبة، وإنما توفر له المدرسة المأوى والأكل وأوقات الدراسة.

2 - طالب العلوم يشترط فيه أن يكون حافظاً للقرآن الكريم، حسن السيرة والسلوك، محافظاً على دين الله، معمراً للمسجد، ملتزماً بلبس الزي الرسمي الموحد للطلاب.

ولهؤلاء الطلاب حقوق وامتيازات لا تعطى لغيرهم. منها صالة خاصة بهم تعتبر كنادٍ لهم لا يجوز لغيرهم أن يدخلها، ومنها مكتبة خاصة بهم أيضاً، ومنها الندوات التي تعقد في صالونهم، ومنها الدروس الخاصة التي يلقيها عليهم الشيخ أو بعض العزابة، ومنها أنهم يستقبلون في ناديتهم بعض

الشخصيات ليستفيدوا منها ولا يحق لغيرهم حضورها. وهذه الاستثناءات بطبيعة الحال لا تتناول العزابة، لأن العزابة قبل أن يكونوا عزابة كانوا تلاميذ ومروا بجميع هذه المراحل، ثم هم من الناحية الأدبية يعتبرون مشرفين على الجميع.

وهم في دراستهم العلمية ينقسمون إلى فرق حسب مستوياتهم، وللشيخ أن يعين مدرسين لبعض هذه الفرق ولكن يحتم عليهم جميعاً أن يحضروا الختمات العامة والدروس العامة.

3 - المستمعون : ويتكون هذا القسم غالباً من طلاب فاتتهم مراحل الدراسة فلم يستطيعوا أن يسايروها، إما بعدم حفظ القرآن الكريم أو عدم التمكن من المواظبة، أو غير ذلك من الأسباب، وهم مع ذلك مشغوفون بالدراسة، ولهؤلاء الطلاب حق الاستفادة من الدروس التي شاءوا دون أن يتقيدوا بنظام، ولهم أيضاً حق في الوجبتين الخفيفتين عند الاستراحة الصباحية، أو الاستراحة المسائية، ويطلق على هذه الفئة في النظام الذي وضعه العلامة أبو عبد الله محمد بن بكر كلمة - العجزة - ويوصي العالم الكبير بالعطف على هؤلاء ومساعدتهم كل المساعدة، لاسيما أولئك الذين تعطلوا عن دراستهم بسبب إصابات، كالعمى أو غيره من الأمراض. وإذا كان بعض هؤلاء العجزة قد ابتلى بالعجز البدني عن الكسب، والعجز العقلي عن التعلم، فلا يرى أبو عبد الله مانعاً من الانفاق عليه كما ينفق على الطلاب النظاميين، مراعاة للجانب الإنساني.

أعتقد أنني أعطيت القارئ الكريم صورة عن نظام التعليم ونظام الأقسام الداخلية في تلك العهود الزاهرة، وإن كانت الصورة التي أعطيتها مختصرة، جدا وقد تكون هنالك كثير من الجوانب تركتها إما سهواً وإما لأنني لا أرى كبير فائدة منها للقارئ الكريم، وذلك مثل أنواع التأديب والعقاب وغير ذلك، ومن شاء الدراسة الكاملة لهذا النظام فعليه أن يقرأ أولاً سير أبي الربيع سليمان بن خلف، ثم نظام العزابة الذي وضعه أبو عبدالله محمد بن بكر الفرساطائي فإنه يجد فيهما ما يتوق إليه من التدقيق والتوسع.